مطبوعات مكتبة النهضة المصرية

جولة في ربوع استراليا

بين مصر و هونولولو

زيلنده - فيجي - ساموا - هاواي - هوليوود - كندا - أوربا

وضع الرحالة

محمد ثابت

الأستاذ بمعهد التربية



مطبعة الاعتماد بشارع حسن الأكبر بمصر

مقدمة

شاءت المقادير أن أحقق هذا العام أمنية طالما جالت بخاطرى فحسبتها خيالا : هى أن أقوم بجولة حول الكرة الارضية عابرا المحيطات الثلاثة الكبرى : الهندى والهادى والاطلنطى . متجولا فيما أحاط بالمحيط الأعظم من قارات وجزائر — ماخلا شواطىء آسيا التى طفنا بها فى عام فائت . ولقد تبين لى بعد ما حللتها أنا لا نعرف عن حقيقة الحياة فيها الا القليل لبعد الشقة بيننا وبينها .

جبت كثيرا من بقاع استراليا وزيلندة وجزائر المحيط الهادى وأمريكا الشمالية فالفيت الحياة فيها متقاربة متشابهة ، وتغاير كل المغايرة ما رأيته فى بلاد أوروبا وآسيا وأفريقية . وهى فى جملتها تتخذ الولايات المتحدة مثلا لها تحتذيه وتقفو على آثاره ، فسنة التطور فيها تسير بخطى جبارة ، حتى فاق العمران هناك سائر البلاد ، واستحقت تلك الجهات أن تسمى بالدنيا الجديدة .

ويظهر بحق أن المحيط الهادى سيكون محط الأنظار ومستمد القوى — مادية ومعنوية — فى الجيل المقبل . فبلاده كلها فتية لما تجهد مرافقها أو تخور مناشطها ولقد نجت فى جملتها من سيئات القديم وتقاليده التى ظلت ولا تزال عثرات فى سبيل كثير من وجوه الاصلاح فى بلاد الدنيا القديمة . لذلك كان يهولنى هناك مدى نشاط القوم فى الانشاء والتجديد ولما يزد عمر تلك البلاد على قرن وبعض قرن .

على أنها لم تسلم من سيئات المادة والمغالاة فى التربية الاستقلالية والحرية

المطلقة . التى لا تكاد تتقيد بقانون ولا يكبح جماحها عرف أو تقليد : فالفتاة تستبيح السير وفق اهوائها ويعلم الآباء فيهـــا ذلك وهم به قانعون وله منشطون . والابناء لا يتورعون أن يأتوا ما راقهم دون اعتداد بأب أو رعاية لأم . والخادم يمزح مع سيده ويلهو فى حضرته كأنه له ند أو به زعيم .

ولقد شجع هذا العمران هجر المنازل والميل الى حياة الاندية والمقاصف والفنادق فلا تكاد تلمس للبيوت حرمة ولا تقديرا فهى ابدا خاوية من ساكنيها الذين يجرون وراء عمل مادى أو نزهة خلوية أو ملهى يأوون اليه سحابة يومهم وساعات ليلهم . وحتى الانسان الفطرى نزيل جزائر المحيط الهادى قد جرفه ذاك التيار فحاكاهم فى كل شىء .

ولست أدرى ماذا عسى أن تبلغ الحال بأولئك فى قرن آخر من الزمان وقد بلغوا فى القرن الفائت مالم تبلغه أمم قبلهم فى عدة أجيال .

وأنى لأجدنى حائرا : أنسمى ذاك عمرانا وتقدما — وهو لا شك نشاط انتاجى يبهر العقول — أم تدهورا وانحطاطا نال من اخلاقنا الشىء الكثير .

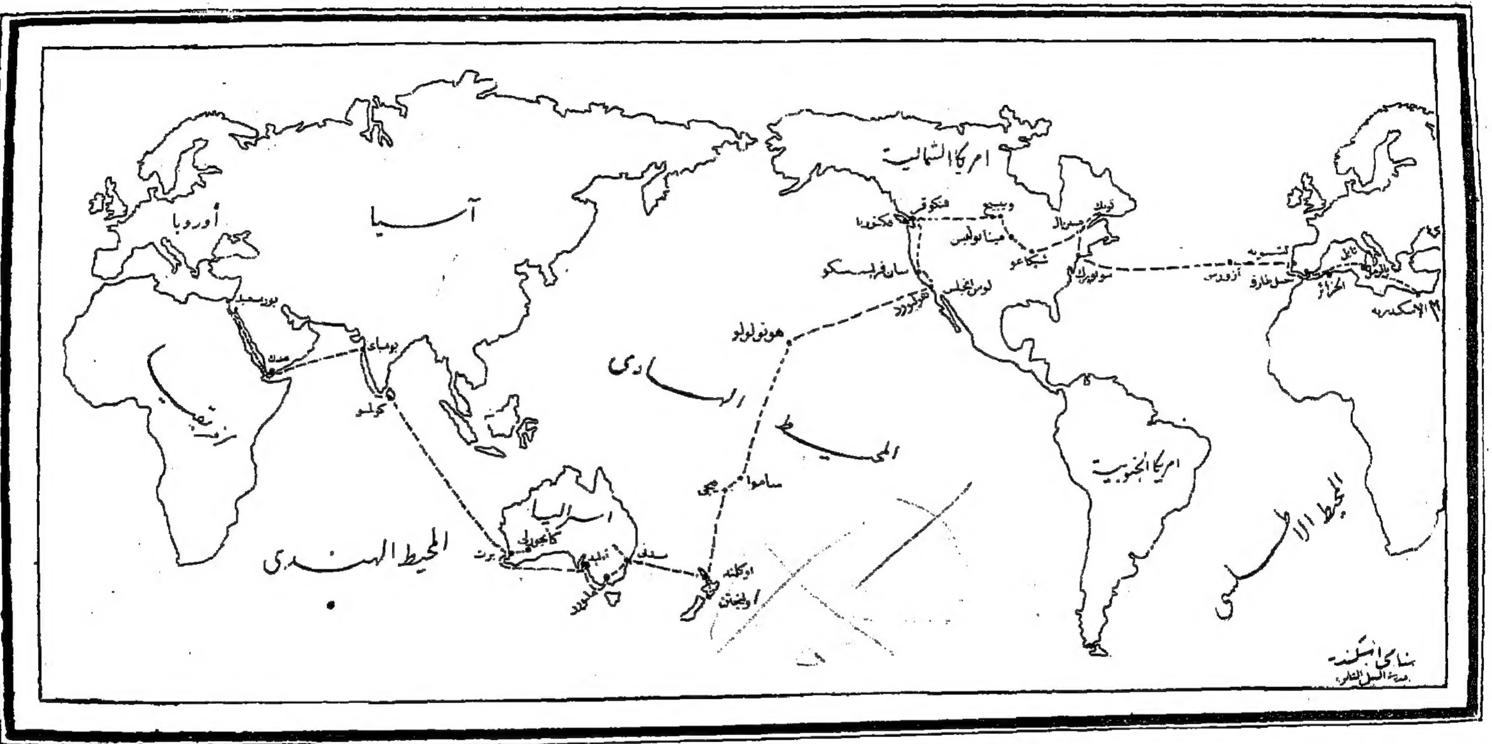
وفى ظنى أن مصرنا الفتية التى أضحت اليوم فى فجر عهد جديد تستطيع أن تتخذ من تلك البلاد الجديدة أسوة حسنة فى نشاطها المادى والعلمى . وان تحتفظ بما ورثت من أخلاق وتقيم فى سبيل الانحلال سدودا تتقى بها شر تلك الاباحة المقيته .

وأنما الأمم الأخلاق مابقيت فان همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

محمد ثابت

أول رمضان ١٣٥٥

١٥ نوفمبر ١٩٣٦



لبثنا فى طوافنا حول الارض عشرة أيام ومائة يوم قطعنا خلالها فوق أربعين الف كيلو متر

بسم الله الرحمن الرحيم

طالما تاقت نفسى إلى طواف كامل حول الأرض وكنت كلما فكرت فى ذلك بدا الأمر متعذرا وانتقلت به إلى عالم الخيال والأمانى وكيف يستطيع ضعيف مثلى القيام بذلك وقد أعوزنى الوقت والمال . قاربت عطلة الصيف ولم أصمم على شىء ولما يبق لى من القارات الخمس سوى أصغرها : أستراليا وهل تستحق تلك الجزيرة التى ليس لها كبير شأن زيارة تكلفنى كثيرا من المال والمشاق ؟ ولكنى أعود فأقول إن لى فى جارتها زيلندة الجديدة وما حوت من آيات الطبيعة هى وما حولها من جزائر ما يبرر زيارة إلى أقصى الأرض مهما حف ذلك من نصب ومشقة . طفقت أتردد على دور السياحة أتخير من السفن أكثرها ملاءمة لى فى الوقت والمال وقد أوشكت شراء تذكرة إلى أستراليا بأربعين جنيها فى الدرجة الثانية المخفضة (Tourist) وإذا بى أتحدث إلى الرجل فى الطواف حول العالم وما أصبو إليه من جولة تعيد إلى ذاكرتى نبأ ماجلان وما قاسى . فقال الرجل ولم لا تقوم بمثل ذلك وأنت إن فعلت تستطيعه فى أربعة شهور وبقيمة زهيدة عن طريق شركة P. & O. (Peninsular & Oriental) فقلت وكم أدفع لذلك قال مائة وخمسة وعشرين جنيها فلم أتردد لحظة ودفعت المبلغ وأنا أطيب ما أكون خاطرا وأكثر بهجة وكان حظى فى السفر على الباخرة مالويا Maloya من كبريات بواخر شركة P. & O. وحمولتها ٢١ ألف طن وبها من وسائل الراحة وحسن المعاملة وجودة الطعام ووفرته ما لم أجده من قبل فى جميع أسفارى على كثرتها وقد لاحظت أن جل خدامها من الهنود وذلك لرخص أجورهم ، والباخرة معدة لعدد من المسافرين يربو على الألفين وقد كان بها زهاء أربعمائة ، وقد لفت نظرى علم الشركة الذى قسم إلى أربعة مثلثات الأبيض والأزرق وهو برتقالى والأصفر

والأحمر وهو اسبانى مع أن الشركة انجليزية لكنى علمت أن الشركة قديمة جدا ، ولقد ساعد أصحابها سنة ١٨٣٢ ملكة البرتغال ضد بعض الثوار وكذلك ساعدت الشركة الملكة إيزابلا فى ثورة اسبانية فشجعت هاتان الدولتان الشركة وفى مقابل ذلك احتفظت بالعلمين البرتغالى والاسبانى شعارا لها ، ولقد اتخذت الشركة لها قاعدة تجارية هامة فى عدن منذ ١٨٤١ قبل فتح قناة السويس حتى قيل إنها كانت فاتحة التجارة فى تلك الجهات .

كان نصيبى من الباخرة فى مجاورة شاب روسى مهذب وسيم الطلعة يشتغل بالتدريس فى مدارس الهند فما كاد يعلم بأنى مصرى حتى بدرنى قائلا : لماذا تعاملونا بتلك القسوة فى بلادكم ؟ قلت وأية قسوة تعنى ؟ قال : منذ حلت الباخرة بورسعيد والبوليس يحوطنى وقد نزل الركاب جميعا للتريض فى المدينة إلا إياى وقد دهشت لما خبرنى زميلى فى الكابين بأنه عند عودته متأخرا فى المساء من المدينة رأى الجندى المصرى جالسا أمام باب (الكابين) وبيده (البندقية) ليراقبنى — لكنه كان يغط فى نومه ولم يشعر بوجودى — فلماذا تعاملون الروس هكذا وقد اعترف بنا وبحكومتنا كل العالم — حتى من كانوا ألد خصومنا — ولقد علمت منه بأن النظام السوفيتى سائر فى سبيل التوطيد والاستقرار وأن شبح البلشفية بمعناها الذى نعرفه غير موجود فى بلادهم وأن حالة العامة فى بلادهم ليست بالبؤس والانحطاط الذى نسمع عنه فلقد تقدمت حالهم عما كانت عليه قبل الحرب — وإن كانوا أقل من فلاحى أوروبا — والدولة تعنى بشئون الفلاح والفقير وهى التى تدير كل المصانع والمزارع والاعمال الرئيسية فكأن الأمة كلها مجموعة من موظفين ومأجورين تحت إشرافها ولا يمتلك أحد عقارا ولا شيئا من الآلات قط بل تلك كلها ملك للأمة وفى يد الدولة لكن الناس أحرار فى أن يوفروا من دخلهم ماشاءوا على أنهم كلما جنبوا مالا وفيرا زادت ضرائب الدخل جدا حتى كادت تسوى بين دخل الغنى والفقير إلا فى فوارق معقولة .

قامت الباخرة تشق قناة السويس فى بطء شديد خشية أن تحدث تيارات جانبية تقربها من القاع أو تحدث ضررا بجوانب القناة . ولقد حدثتنى سيدة سويسرية كانت ذاهبة إلى الهند عن منظر القناة وبورسعيد بأنه منفر ليس به ما يجتذب الأنظار ولا ما يحقق شيئا عما قرأت عن مصر وخصبها وجمالها وحتى بورسعيد بلدة بدت فى نظرها قذرة غير ذات جمال ولقد كان شعورها خيبة أمل عن مصر ، فقلت بأن تلك المنطقة بعيدة عن وادى النيل الخصيب فهى قطعة من الصحراء ، والبلاد التى فوقها أسست لأغراض الأشراف على القناة ووسائل الملاحة فيها فهى حقا لا تمثل بلاد مصر .

جزنا السويس بعد منتصف الليل (وكان قيامنا من بورسعيد العاشرة صباحا) وقد مرت بنا زهاء عشر بواخر — وهو متوسط ما يمر فى كل يوم طيلة العام — ودخلنا خليج السويس الذى يبلغ طوله ١٧٠ ميلا وعرضه



شكل (١) وسط ميدان رئيسى فى بمباى

بين ١٠ و ٢٥ وكنا نرى على جانبيه صخورا مشرفة متناثرة عريت عن كل نبت وبدت إلى يسارنا عيون موسى بنخيلها الوفير . وهنا الموقع الذى احتفل فيه موسى وبنو اسرائيل بنجاتهم من فرعون وآله يوم عبر البحر سالما وغرق أعداؤه ، وبعد ساعات بدت جبال سيناء المقدسة الشاهقة وأعلاها : جبل أم شومر (٨٠٠٠ قدم) وجبل كترينا بذروتيه : حورب (٨٦٣٠) وموسى (٧٤٥٠) وهنا كلم الله تعالى موسى تكليما ، ثم جبل سربال (٦٧٥٠) وقد رأينا سلسلة كاترينا فاترة على بعد لكن ذروة موسى لم تكن ظاهرة رغم تكاثر الأعين والمناظير عليها من جانب الباخرة وجماهيرها الغفيرة . مكان أثار من الذكريات أقدسها فلقد نشأت فى تلك الناحية ديانات ثلاث كبرى : الموسوية والمسيحية والمحمدية . رغم ماهى عليه من جدب منفر وتربة ماحلة . وفى أحد أخاديد جبل كترينا دير للنصارى أسسه جستنيان سنة ٥٢٧ م ولما يزل قائما ، وفى مكتبة الدير وجدت أقدم نسخة من التوراة منذ خمسين عاما .

انتهى الخليج ودخلنا متسعات البحر الأحمر نفسه الذى قد يبلغ عرضه عند أقصى حدوده ١٩٠ ميلا وهنا تفتحت أبواب الجحيم فلفظت من هجيرها طيلة الأيام الأربعة التى لبثناها فيه ماجعل الجميع ناقما على هذا البحر فكان الكل حيارى ماذا هم صانعون فى هذا الجو الممض الخانق ، لم يهنأ لنا نوم ولا جلوس لاصباح ولا مساء ولم تكن تنعشنى قليلا إلا ذكرى الأرض المقدسة : إلى يسارنا الحجاز مثوى الرسول صلى الله عليه وسلم وإلى يميننا الوطن العزيز المقدس مصر والسودان ، ولم يفز بهذا الشعور وتلك الغبطة من جماهير المسافرين سواى . ويالفرح القوم ساعة أن كانوا يلمحون باخرة قادمة على بعد منا أو حيوان الدرفيل (Dolphin) الذى كثرت جموعه عند نهاية البحر . ولم نلمح من شواطئه إلا عاتى الصخر ومجدبه إذ لا يكاد يصيبه من المطر شىء ولا يصب فيه من الأنهار جدول واحد لذلك كانت نسبة الأملاح فى مائه أكثر منها فى البحار الأخرى . وتحف بشواطئه سلاسل



شكل (٢) غابات شجر جارا فى غرب استراليا

معقدة ذات شعـاب عدة من صخور المرجان رغم عمق البحر العظيم ، وكانت تعكر مياهه الهادئة طفيليات محمرة غبراء من عشب الماء هى التى أكسبته اسمه . بحر حوى مجموعة من الذكريات الخالدة والظاهرات العجيبة رغم طبيعته التى لا تستهوى من الناس أحدا .

أخيرا انتهى بنا الأمر إلى مياه عدن فى السـابعة من صبيحة الأحد ١٤ يونية فظهرت رباها المجدبة المنفرة منثورة فى غير حصروفد من أهلها مختلفى السحن والأزياء والجنسـيات جمع كبير هنود وصومال وعرب وأوربيون وانجليز ، الخ .

حللنا أرض عدن وأقلتنا سيارة كبيرة ساعتين كاملتين مقابل أجر نصف

جنيه لكل واحد منا وطافت بنا شبه الجزيرة كلها وأوغلت قليلا فى لحج قرب حدود اليمن. ومنظرعدن من البحر منفر منثور الربى يوغل البحر فيها بألسن لاتحصى وكانت قطع الأسطول البريطانى تنثرها جميعاً ، وقد أضحت عدن من أكبر محاط الدنيا لتموين البواخر بزيت البترول وكانت تصف أمامنا خزاناته فى (فناطيس) هائلة وفى أعداد لاحصرلها وجلها لشركة البترول الانجليزية الأيرانية . وغالب السفن اليوم تعتمد على البترول بدل الفحم فى سيرها ، وفى متسعات البادية من وراء الصخور العاتية ميادين للطيران الحربى ومعسكرات ومحطات للبرق اللاسلكى كل ذلك يشعر بمكانة عدن الحربية وأنها من مفاتيح البحار المنيعة . تملكها الروم فى القرن الأول الميلادى ثم احتلها الترك سنة ١٥٣٨ وتنازعها البرتغال أياما ثم خضعت لحكام صغار واضمحلت حتى بلغ سكانها سنة ١٨٣٩ ٦٠٠ نفس . ولقد قاسى اسطول الانجليز التجارى من القرصنة التى كانت عدن مقرها ففاوض الانجليز القوم أن يبيعوهم البلدة ووافق سلطان لحج على تركها مقابل ٨٧٠٠ ريال تدفع سنويا لكنه نقض عهده وسلب سفينة انجليزية (فى سنة ١٨٣٩) فأخذها الانجليز عنوة .

سارت بنا السيارة تشق الميناء فى طرق رصفت رصفا بديعاً إلى جانب البحر ومن شرقها تقوم الربى وأعلاها جبل (شوم شوم أو شام شان) وعلوه ١٧٢٥ قدم واسمه مقتبس من الشمس وعليه تقوم أبراج السكون لطائفة البارسى عبدة النار ومنهم هناك عدد كبير وقد قامت جل حوانيت التجارة والمصارف أسفلها ثم مررنا بمحلة وطنية على البحر تسمى (المعلة) شهر أهلها منذ القدم ببناء السفن dhow التى غالبت البحار زمنا وكان الكثير منها يرسو هناك ، وبعد لبات عدة علونا إلى فوهة البركان الخامد التى تتوسطها مدينة عدن القديمة ولم يكن الوصول إليها ممكنا إلا بعد تسلق جوانب البركان . لكن الانجليز شقوا أخدودا لايكاد يتسع إلا لعربة واحدة وصلها



شكل (٣) غابات شجر السكارى

بالمتسعات السفلى عند الميناء ويسمونه (Main-pass) وفوقه مغارة كان يتعبد فيها هرون وقيل هابيل

والبلدة تقوم فى مدرجاته وجل أهلها من الهنود والعرب والصومال ، ويناهز عددهم ٥٦ ألفا واللهجة السائدة العربية المحرفة ولعل أعجب المناظر التى تسترعى النظر مشهد العربات على اختلاف أنواعها تجرها الجمال بعضها فى شكل براميل كبيرة لنقل الماء والبعض فى صناديق لحمل المتاع ، أخيرا صعدنا الجانب الأعلى من تلك الفوهة فبدت أحواض المياه القديمة(Tanks) فى ليات بعضها دون بعض وقد رصفت بالآجر والحجارة وقيل أن الذى بناها الفرس سنة ٦٠٠ م ويقال أنها أقدم من ذلك بكثير وتتسع لحمل ٢٠ مليون جالون من ماء المطر على أن المطر اليوم لا يكاد يسقط إلا مرة كل

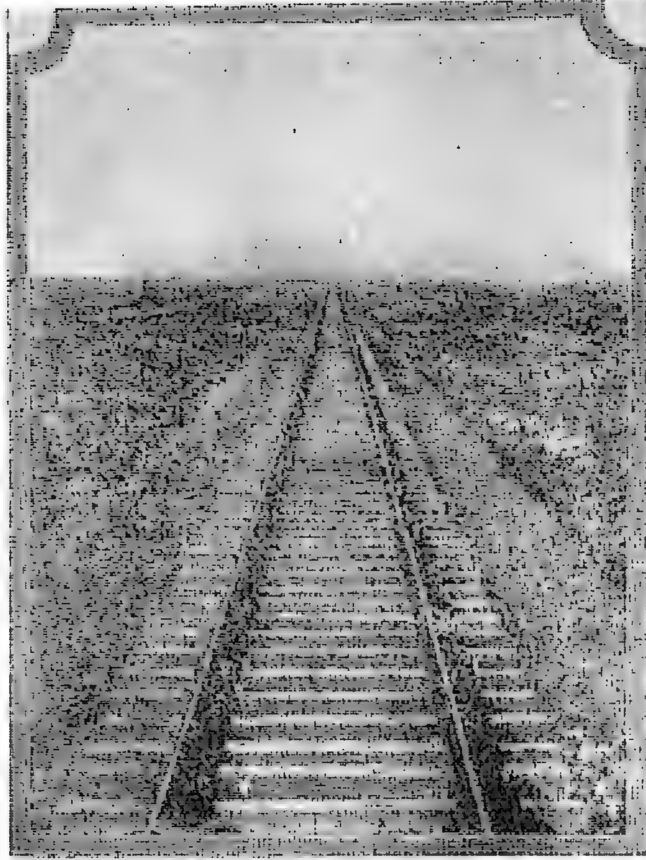
ثمان سنوات ويظهر أنه كان كثير التهطال فى الزمان الغابر وكانت تلك المياه المدخرة تسق البلاد جميعاً وعند سقوط الماء يباع بالمزاد جملة ويوزعه المتعهدون بالقرب والصفائح والعربات وكلما ملىء الخزان مرة أغرق نفرا من الناس وذلك فأل حسن فى زعمهم.

نزلنا ذلك الجبل وسرنا صوب بلاد العرب فمررنا بمتسعات من مناقع يجفف فيها ماء البحر لترسيب الملح وكانت تنتثر بأكوام الملح الأبيض وبطواحين الهواء التى تدار لنزح ما فاض من المياه وجل ذلك الملح يصدر إلى بلاد الهند ، وبعد زهاء ثلاثين ميلا أقبلنا على بلدة الشيخ عثمان وفيها آبار ارتوازية ركبت عليها الآلات ومدت الأنابيب الغليظة لنقل الماء إلى جميع أرجاء عدن فهى مصدر الماء الهام فى تلك البلاد ، وهناك زرعت متسعات من بساتين يانعة هى الظاهرة الوحيدة للخصب فى تلك البلاد الصحراوية وإلى جانبها بدت مبانى لحج التى تدخل تحت الحماية البريطانية وسلطانها صديق للانجليز حميم ومجموع سكان الحماية كلها ٨٠٠ ألف وتحكمها وزارة المستعمرات إلا بلدة عدن فهى تحت حاكم الهند ، لذلك كانت النقود المتداولة (الروبية والآنا) .

هنا توالت الذكريات خصوصاً عند ما حدثنا الرجل أن فى هذا المكان (بقرب المعلة) تدفن رفات قابيل قاتل هابيل وهنا فى متسعات تلك الأراضى كانت تفد ملكة سبأ لتلهو وتلعب فى الشتاء ، ولقد أبحرت من مياه عدن يوم قامت للقاء سيدنا سليمان عند خليج السويس .

وأظرف شىء فى عدن أن الناس لا يلقون عنتا من رجال الجمارك ولا تفتيشاً كما يحدث فى سائر الثغور فينغص على المسافر عيشه فهى ميناء حرة فيما عدا الأسلحة والكحول والأعطار .

قامت الباخرة تبرح عدن بعد أن رست فى مياهها ثلاث ساعات وما كدنا نبرح الميناء وتغيب عنا رباه حتى تبين لنا أن الباخرة تركت اثنين من المسافرين



شكل (٤) تشق سكة الحديد صحراء استراليا دون انحناء مسافة ٣٠٠ ميل

أحدهما هندى يقصد بمباى وهو شاب قصير القامة أسود اللون مرح ميال إلى اللهو واللعب وهو طالب فى جامعات انجلترا ، والآخر ألمانى طويل القامة غير جذاب السحنة ، نزلا يجوبان بعض أرجاء البلدة فتجاوزا الميعاد المضروب لقيام الباخرة فلم تعبأ لهما والعجيب أنهما مفلسان فلقد جاءنى الأسود بالأمس يقول بأن صاحبه الألمانى قد سقطت حقيبة نقوده وهو يتريض فى بورسعيد وأصبح لا يمتلك مليما وهو ذاهب الى استراليا معى فهل لى أن أقرضه جنيهات حتى إذا ما وصل استراليا ردها إلى ؟ فقلت ولم لا تقرضه أنت ؟ قال بأنى أفلس منه . فترددت وقلت لا أخال نقودى تكفى أن أقرض

أحداً ومع كل سأرى ما يمكن عمله فى الغداة ! ولبثت حائراً كلما ذكرت حرج موقفه وصممت أن أقرضه شيئاً على أنى كنت ألاحظ عليه أنه كثير الاختلاط بالفتيات يساهمهن الرقص ويشاطرهن الشراب ويسرف فى ذلك وفى شرب الدخان فى مظهر لا يدل على الحاجة أو العوز ولما أن تركته الباخرة فى عدن علمت عنه أنه شبه محتال فحمدت الله أنى لم أقرضه شيئاً وظل موضوعهما حديث المسافرين طيلة اليوم وأنهما سيلبثان فى هجير عدن اسبوعين كاملين حتى تفد الباخرة التالية ولا مال لديهما ولا متاع !

أوغلت الباخرة فى مياه خليج عدن ولبثت اليوم كله ولما ينقص الحر لا بل أخذ فى الزيادة إلى درجة كدنا نختنق معها وأصابنى صداع أنا وكثير من المسافرين من جرائه ، ولما حان ميعاد العشاء جلس إلى جانبى ضيف هندى جديد نحيل القامة أسمر اللون براق العينين تعلوهما نظارة أعادت إلى ذكراى شبح غاندى كاملا وكان كلما قدم الخادم إليه صنفا من الطعام تشكك فيه ورفضه فجاءه رئيس الموائد فعلم منه أنه نباتى لا يأكل اللحم وأمثال أولئك فى الهند كثيرون ، فأخذت أحدثه عن ذلك فقال بأنه لم يذق اللحم طوال حياته ، قلت ولماذا ، قال هى عقيدة أصبحت عادة متأصلة فلا أكاد أطيق حتى رؤية اللحم . قلت إذن فسأكون فى جوارك من أكبر المنغصات لأن جل غذائى أنا من اللحم فتظرف الرجل وقال كلا بل لا يضايقه ذلك ؛ على أنى لاحظت أنه لا يفد إلى المائدة إلا عندما أكاد أنتهى من طعامى ، وهو مدرس هندى فى مدارس عدن الحكومية الابتدائية ، وقد قال لى بأن جو عدن شديد الحرارة مدى ثلثى العام لكنه صحى جدا إذ قلما تنتشر الأمراض فى تلك البلدة لجفافها .

أصبحنا فى اليوم التالى والبحر مضطرب مائج والرياح شديدة بليلة وهى الموسمية التى انقصت من حرارة البحر الأحمر حتى اضطررنا أن نلبس المعاطف الخفيفة على ن اضطراب الماء قد أصاب الكثير منا بمرض البحر وقد أحسسته



شجر مبارکة فی جبال زرقاء بقرب سدنی



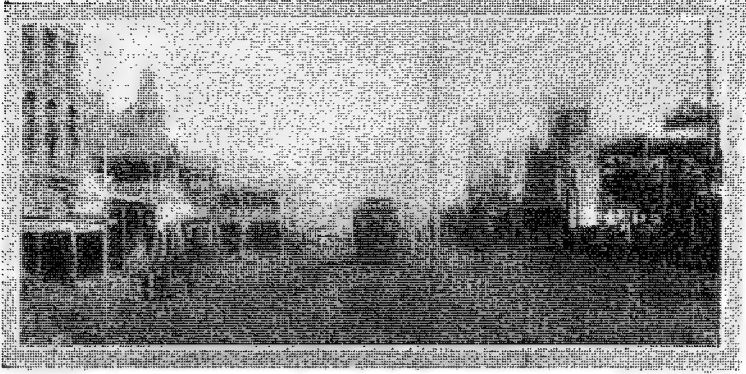
شكل (٥) لا تزال تلك الطريقة الساذجة مستعملة فى استخلاص الذهب من رمال استراليا الغربية

أنا وظل ينغصنى يومين كاملين والعجيب أنه انصرف عنى بعد ذلك مع أن البحر زاد شدة ويظهر أن الانسان إذا ما اعتاده قليلا خفت وطأته ، وظل زهاء نصف المسافرين لا يجلسون على موائد الطعام بل يستلقون على مقاعد فوق سطح الباخرة فى الهواء الطلق لأنه خير علاج لا يقاف شر ذلك المرض الممض ، وكم كان يدهشنى من جموع السيدات وجلهن من الاستراليات إدمانهن على التدخين فأنت لا تكاد ترى الواحدة إلا والسيجارة فى فمها وصندوق السجاير الكبير فى يدها إلى جانب كتابها وتلك ظاهرة لم أشهدها فى سيدات الشعوب الأخرى إلا على سبيل الاستثناء ، والاستراليون معروفون بالأباحة الشديدة فهم يطلقون حرية كبيرة للنساء ومما كان يثير

عجبى مظهرهن وهن يسرن عرايا إلا فى ستر العورة وكأن أزواجهن يستعرضن جمال جسومهن أمام أنظار الغير وإذا ما أقبل المساء أرتدين مهفهف ملابسهن فى أزياء عدة تتنوع بين ليلة وأخرى ويجلس الجميع رجالا ونساء حول حلقة الرقص ولا تكاد تعزف الموسيقى فى التاسعة مساء حتى يقبل الكل على المخاصرة والرقص إلى ساعة متأخرة من الليل ، وكانت تلك هى وسيلة التسلية الوحيدة تقام كل ليلة ، أما فى خلال النهار فهناك من الألعاب : تنس البواخر ، والبنج بنج ، والحمام ، ورمى الحلقات ، والأراجيح ، وكيف يمكن التغلب على سأم السفر الطويل إلا بتلك الوسائل المتعددة !

على أنى لاحظت أن مزاج الانجليز أبعد عن الموسيقى إذا قورنوا بغيرهم فلا تكاد تعزف إلا للرقص ، أما فى البواخر الالمانية فكانت الموسيقى تلعب أدوارها أربع مرات فى اليوم على الأقل وقد كانت معنا عائلة اسرائيلية المانية طريدة المانيا بسبب اضطهاد هتلر لها فهاجرت لترتزق فى أنحاء استراليا وكانت سيدتهم تشنف اسماعنا كل ليلة بعزفها الجميل على البيانو

لبثت اليومين السالفين أعرض عن تناول الطعام إلا فى قليل من الفاكهة الطازجة خشية أن يعاودنى مرض البحر وكان شعورى به يتردد على آنا فآنا وكانت رأسى أميل إلى الثقل ، وفى اليوم الثالث قمت من نومى عند الاصيل وأنا مكتئب مقطب الوجه وبينا أنا أسير فى جانب منعزل من السفينة وإذا باثنين من البحارة يحملان (نقالة) عليها جثة سيدة هى (Miss Love) وقد فتح جانب من (الدرابزين) ومدت لوحة مستطيلة من خشب وضعت الجثة عليها بعد أن حنطت ولفت فى قماش لا يخترقه الماء (Water Proof) وأثقلت بالعوارض المعدنية ثم أرخى عليها العلم الانجليزى ووضعت بحيث تواجه أرجلها الماء وعند رأسها أقيمت منضدة عليها مجموعة من الأناجيل فتحت ونكست عليها ثم جىء بأبنها وهو شاب نحيل وزوجها ولما يصل العقد الخامس وأجلسا على مقعدين إلى جوارها وما كاد يسمع خبرها الجميع حتى فزعو



شكل (٦) شارع حانان الرئيسى فى كالجورلى

وتكاثروا يطلون من هنا وهناك وكان نصف الجثه يشرف باللوحة الخشبية على المحيط وما كادت الشمس تغرب فى السادسة والنصف تماما حتى نفخت الباخرة فى صورها وأبطأت سيرها ثم وقفت فى عرض البحر وعنـد ذلك أمال البحار لوحة الخشب فزلقت الجثة عليها إلى اليم وغاصت إلى حيث لا يعلم إلا الله مستقرها . فعلا الكدر وجوهنا جميعاً وصاحت آنسة جميلة صيحة فزع ثم أغمى عليها فأسرع الآخرون بأنقاذها ، ثم أقبل الكل إلى الرجل وابنه يعزونهما فى فقدها ، وقد كانت مريضة وتقصد بلاد استراليا للاستشفاء فوافاها أجلها فى تلك البقعة التى لم تكن تخطر ببـــال أحد : « وما تدرى نفس ماذا تكسب غـداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت » صدق الله العظيم

ولقد عجبت لما رأيت الرجل وابنـه على مائدة الطعام بعدها بقليل يأكلان معنا عشاءهما مع أنا نحن لم نتناول من الطعـام إلا اليسير بسبب ما خلف ذاك الحادث عندنا من أسى ثم سرعان ما نسى القوم الموقف وبدا الكل فى مختلف ملابسهم الفـاخرة وزينتهم البراقة ومن بينهن الغادة التى أغمى عليها ، على أن الباخرة أعلنتهم بان الموسيق والرقص سيوقف عرضهما

الليلة حدادا على الفقيدة . وفى الحق ماذا يجدى الحزن بعد أن نفذ قضاء الله ولاراد لقضائه ؟ مظهر من مظاهر الايمان كان أجدر بنا نحن الشرقيين !

أعلن القوم عن سحب يانصيب هذه الليلة للمشتركين مقابل ½٢ شلن للنمرة وكذلك أقيمت حفلة (سباق الكلاب) وذلك من ستة كلاب خشبية يتصل كل بحبل يلف طرفه فى بكرة تمسك بها سيدة وعند ما تعطى الكلمة يحاول كل منهن طى الحبل ومن أسرعت سبق كلبها وفاز ولكل من النظارة أن يراهن على من شاء بشلن واحد وقد جربت حظى فى النوعين من المقامرة فلم أصب شيئا . وفى اليوم التالى وصلنا بمباى فى الساعة الرابعة والنصف مساء فبدا الخليج تحف به الربى الوطيئة من الجانب الأيمن وفى الأيسر تقوم المدينـــة على بسيط من الأرض وفى الصدر ظهرت بوابة الهند (Gateway of India) فى قوس مشرف وإلى مقربة منها فندق (تاج محل) أكبر فنادق البلدة وخشيت من انخفاض المد لو تأخرنا فى الدخول وعند ذلك ترسو بعيدا لكن كان وصولنا قبيل انسحاب المد ولقد تعكر ماء المحيط قبل ظهور بمباى بساعة من الزمان فكان يبدو وكأنه ماء النيل أيام الفيضان ، وبمباى يقع أغلبها على جزيرة مستطيلة تصلها بالهند قناطر عدة .

نزلنا البلدة بعد أن فحصت جوازاتنا وختمت بطاقات النزول الى البر وقد نزل من ركاب الباخرة زهاء ١٥٠ ولم يبق معنا من المسافرين إلا القليل، وبمباى تعد أهم الثغور التى ترسو عليها بواخر تلك الشركة . جبنا أرجاء البلدة المجانبة للميناء فكانت آية فى الفخامة والنظافة كلها قصور شاهقة وعلى أنماط من الهندسة متباينة وكثير منها يحكى القلاع . وما كدنا نوغل فى قلب المدينة حتى تجلت الاحياء الوطنية بشوارعها الضيقة وحركتها التى لا تحد ، فالناس خليط عجيب لا أول له ولا آخر بوجوههم الممطوطة وأجسامهم الهازلة وألوانهم السمراء القاتمة ، أما الأزياء فمدهشة فى تنوعها وألوانها وبخاصة معاطف السيدات إذا كن من الطبقة الممتازة فكلها من الحرير المهفهف ، هذا



شكل (٧) الميل الذهبي بحفائره ومناجمه فى كالجورلى

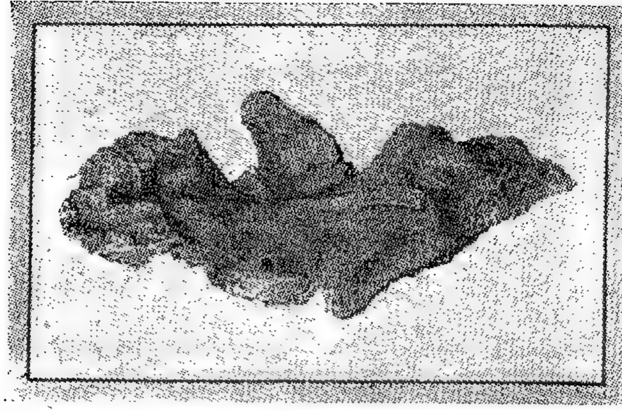
أحمر قان وذاك أخضر زاه والآخر أصفر فاقع والرابع أبيض ناصع ، وتلك أجمل ظاهرة تسترعى النظر فى بمباى أما السحن فلا تكاد تلمح فى إحداها مسحة من جمال قط . ومن أزياء الرجال كان يستلفت النظر جماعة البارسى فى كل مكان ويلبسون على رءوسهم قلانس سوداء وعلى أجسادهم معاطف سوداء طويلة (بلاطى) تكاد تصل إلى ما دون الركبتين وهم الطبقة التى بيدها أغلب رءوس الأموال والتى تدير الشئون التجارية فهم فى جمع المال والحرص عليه يشبهون اليهود وأكثر عدد منهم فى تلك البلدة . ومما شاهدناه لهم أبراج السكون الخمسة التى تعرض فيها موتاهم عارية حتى إذا ما نهشت العقبان البرية لحمها أخفيت العظام فى آبار هناك . ولقد كان يهولنى عدد الجماهير التى تموج بها الطرقات إذ تكاد الرءوس والاكتاف تتلاصق ولا يستطيع الواحد أن يشق طريقه بينهم إلا بجهد كبير ورغم كثرة عربات الترام والاتوبيس لا تجد مكانا خاليا أبدا وإذا نظرت الى البيوت من داخلها بدت كأنها خلايا النحل لضيقها وكثرة نزلائها . ورغم أن بمباى تعد أكثر بلاد الهند رقيا وتحضرا

فقد كنا نرى السواد الاعظم من السكان من أشباه العرايا الذين تعلو وجوههم علامات طوائفهم من نقط وخطوط فى اشكال عدة وجلهم يسير وافواههم مفتحة ينضح منها ذاك اللعاب الاحمر الذى يحكى الدم من أثر ما يمضغون من ورق شجر (البيتل) المنفر الشكل والمذاق وقد كنت أوجست خيفة المغالاة يوم أن تكلمت عن الهند فى جولتى فى ربوع آسيا ووصمتها بالتأخر المعيب لكنى ألفيتنى مصيبا فيما كتبت . لبثت أنا وزميل هندى من جزيرة سيلان نتجول فى انحاء عاصمة الهند التجارية زهاء أربع ساعات ، ومن العجيب أنه لم يستطع أن يفهم من لغات القوم العدة كلمة واحدة فلغته هو (تامل) ولغات بمباى هندوستانى — وهى اللغة التى يفهمها أكبر عدد من الهنود — وججوراتى وكثير غيرها والمثقفون يتفاهمون بالانجليزية .

قمنا نبرح بمباى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ولبثنا نسير أزاء الشاطىء وجبال الغات الغربيـة الوطيئة تبدو على بعد إلى يسارنا وكانت الرياح الموسمية الجنوبيـة الغربيـة حقا تهب فى شدة لا بأس بها وتحمل معها السحاب الذى أمطرنا كثيراً فى بمباى وكان يسح تارة ويمسك أخرى ونحن سائرون وسط اليم .

واليوم السبت (٢٠ يونية ٣٦) قمنا والجو غائم كثيف السحاب الذى بدا متصلا بماء المحيط حتى كان الجو قاتما مظلما وظل المطر هاتنا مدرارا طيلة النهار إلى الظهر ولقد فاجأتنا السفينة بالوقوف والصفير المتواصل فذعرنا ولما أن تساءلنا عن الأمر قيل إنها تسلمت رسالة باللاسلكى أن باخرة أخرى قادمة إلى الشمال وخشية أن تصطدم معها بسبب كثافة الجو وظلامه ظلت تصفر وتقف تارة وتهدىء السرعة أخرى حتى مرت بنا تلك السفينة فاستأنفنا سيرنا بالسرعة العادية وهى زهاء ١٨ عقدة فى الساعة .

وفى باكورة الصبـاح بدت بلاد جزيرة سرنديب وأقبلنا على ثغرها الرئيسى (كولمبو) — ومعناه بالسنهاليـة ورق المانجو (منجه Amba



شكل (٨) النسر الذهبي : أكبر كتلة من ذهب زنتها ١١٣٤ أوقية

ورق Cola) لكثرة ما كانت تنمو تلك الأشجار هناك ولقد كان ثمرها
يعرض فى كل مكان بقيم زهيدة جداً . تقدم بوليس الميناء وختم الجوازات
لمن يريد نزول البر ونقلتنا (لانشات) الشركة مجاناً إلى الشاطىء فكانت
شوارع البلدة ومبانيها آية فى الجمال وخفة الروح خصوصا الحى المجانب
للميناء ويسمى (The Fort) وحتى الأحياء الوطنية البحتة التى ركبنا لها
الترام تارة والأمنبوس أخرى إلى بعد زاد على ستة أميال . كل هذه بدت
جميلة تزينها الخضرة الرائعة فى كل الأرجاء فكأن البلاد قامت كلها وسط
غابات لا أول لها ولا آخر فلا تقع عيناك إلا على أشجار ومروج تتوسطها
المساكن كبيرها وصغيرها وكذلك الحوانيت . وتغريد الطيور على اختلاف
صنوفها يشجيك أينما سرت — اللهم إلا صيحات الغربان التى تتكاثر حولك
فى غير خوف ولا فزع فتزعجك دائما — ويلفت النظر نظافة البلدة حتى
فى أفقر نواحيها وكذلك دقة البوليس وحسن إشرافه على كل شىء غير أن
ذاك الجمال ينتقص منه مظهر الفقر الذى يسود الكثير من الناس . وكثرة
المتسولين الذين يضايقونك إلى درجة تفقدك الاستمتاع بتلك الجنة النادرة
وكم من مرة ذعرت على غرة حين ألفيت صبياً أو طفلة عارية قد أسرعت

بألقاء جسدها على الأرض تحت قدمى (وتمرغت) وهى تتمسكن ثم تمسكت بالحذاء تقبله فى منظر تستنكره النفوس وكم هاجمنا من سـائق (الركشا) وألحفوا فى الحديث معنا والأصرار على أن يقودونا إلى هنا وهناك ليطلعونا على (البازار ، والحدائق ، ودور الرقص والمجون) وما إلى ذلك ونحن نرفض كل أولئك لـكن أبى لنا أن نغلب ذاك اللجاج الذى ينغص على الانسان عيشه وقبل أن نتخلص من هؤلاء بعد النهى والزجر يداهمك غيرهم ، ولقد كنا نسير ومن ورائنا جيوش من سائق الركشا من المتسولين والسماسرة ويا ويلنا لو وقفنا ننظر إلى حانوت أو معبد هنا يهاجمنا أهله ويتمسكون بنا أن نزور حوانيتهم لاستعراض ما هنا لك فقط لا للشراء فأن فعلنـا ذلك تمسكوا أن نشترى هذا وذاك وإن حاولنا ذلك ضوعفت الأثمان واستخدمت الحيل حتى غير الشريفة لأرغامك على الشراء ، وأنت فى ذاك الحين تحاط بعدد ممن لا دخل لهم فى الأمر يزجون بنفوسهم فى الحديث وإذا فرغت من ذلك المكان طلبوا منك أجر تدخلهم هذا ! ظاهرة ما كان أجدر بالبوليس الدقيق هنالك أن يقاومها أشد المقاومة وهو إن فعل وفر على السائحين كثيراً من المضايقة وشجعهم أن يكثروا من زياراتهم لا أن يجتنبوها . ولقد حدثنى بعض ركاب الباخرة أنهم لاقوا من أمثال تلك المضايقة كثيراً فى بورسعيد فهلا عنى بوليسنا بالضرب على أيدى أولئك السماسرة والمتسولين والمتدخلين حتى لا يشعر السائحون بمثل ما شعرت أنا به مما كرهنى فى زيارة تلك البلاد. حان ميعاد الطعام فأردنا أن نجرب المطاعم القومية لنرى ما فيها فما كدنا ندخل واحداً منها حتى سرت بين أصحاب المطعم وخدمه شبه موجة حرنا فى تفسيرها وأخذوا يتهامسون ثم تقدم رئيسهم فطلبنا إليــه طعاما فقال أرزوكرى Rice & Curry فأى نوع منه ترغبون قلنا لا ندرى فهات ماعندك . فوضع أمامنا صحفـة ملئت أرزاً مسلوقا فى وسط المـائدة وأحاطها بأطباق صغيرة بها طائفة من سائل أصفر كثيف به قطع من مواد مختلفة علمنا أن



شكل (٩) شجرة السكارى ذات الخشب الصلب والقوام الذى يفوق خمسين مترا

أن بعضها من لحم : بقرى أو ضانى . أو دجاج أو سمك والبعض من خضر .
لم نعرف أغلبها سوى العدس والقرع وبكل طبق نوع واحد من هذه ومذاقها
كلها حريف جدا . فأخذنا نغترف الأرز فى أطباقنا ونلوثه بذاك (الكرى)
ولما طلبنا خبزا قال بأن ليس له وجود عندهم لكنه أحضر لنا مقاصيص من
رقاق منتفخ صنعوه من دقيق الحمص ، أما الفاكهة فالموز أو المانجو بالطبع .
فرغنا من الطعام وعند دفع الحساب تداولوا فى الأمر ثم طلبوا ثمنا فاحشا
غير معقول هو زهاء عشرين قرشا لكل منا مع أن ثمن ما أكلنا لا يكلف
الوطنيين أكثر من قرش واحد أو اثنين فثارت ثائرتى وقلت بأنى لن أدفع
ذلك وبعد مشادة قبلوا شلنين لكل منا وخرجنا ناقمين على أولئك اللصوص
الذين يحاولون استغلال الغريب بدرجة هى السرقة بعينها .

أما الأهلون فأعمق سوادا فى لونهم من الهنود وجلهم يرتدون الملابس.

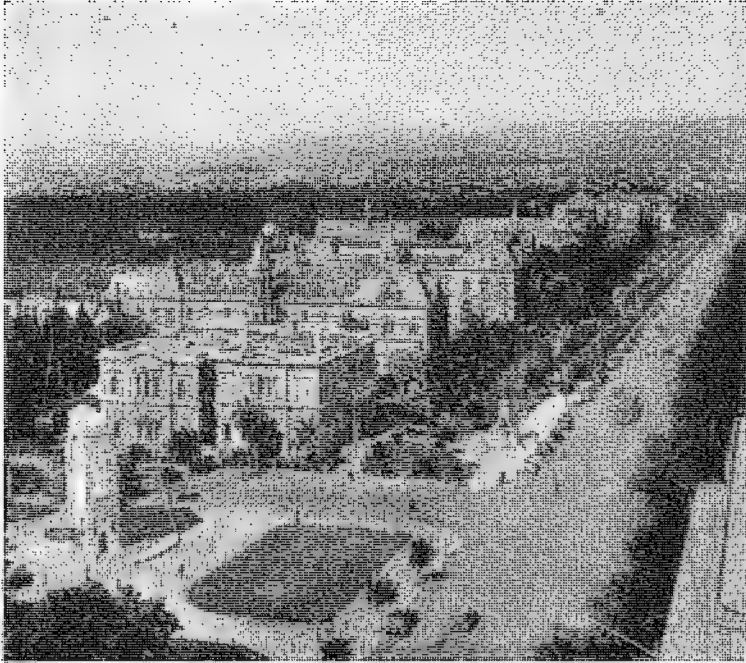
الوطنية فى لفافة حول الخصر يربطها حزام ثم تتدلى طياتها إلى القدمين وعلى النصف الأعلى قميص أو ، (جاكتة) والعجيب أن جل ذلك من الحرير حتى لأفقر الناس ، ومنسوجات الحرير النباتى هناك رخيصة جدا فالقميص يبدأ ثمنه بشلن واحد وبعضهم كان يبدو فى حرير ممتاز غالى الثمن والعجيب أن الجميع يسيرون حفاة مهما بلغ من نظافتهم ووجاهة هندامهم . أما النســـاء فسافرات جميعا إلا المسلمات — والمسلمون كثيرون جداً فى تلك الجزيرة ويلبس رجالهم الطرابيش والعجيب أن الكثير كان يعرف لمجرد النظر إلى بأنى مسلم فيقول (مسلمان) فأجيب نعم فيسر ويلاطفنى حتى يبرح الترام وكأنه لقى واحداً من أهله . هذا ولم ألمح فى نساء تلك البلاد كلها واحدة عليها مسحة من جمال قط فهن أمعن قبحا من الرجال فكأن الطبيعة بقدر ما أسرفت فى جمال نباتهـا وحيوانها اجتزأته من وجوه نسائها ، على أن تقدير الجمال نسبي على ما بدا لى لأن أحد رفقاء الباخرة من الهنود ألفت نظرى إلى سيدة قال بأنها آية فى الجمال فخلته هازلا لاجادا لأنها كانت على جانب كبير من القبح . ومن الديانات السائدة البوذية وكنا نرى قسس بوذا يسيرون حفاة وقد تدثروا بملاءات لونها فاقع — أصفر أو برتقالى أو أحمر — ورءوسهم عارية وقد حلقت شعورها فبدت الجمجمة براقة محمرة إلى ذلك ديانة الهندوس ، ولغات الكلام مختلفة تسودها اثنتان : التاملية ، والسنهالية .
ومن الجهات التى تروق السائح كثيرا حديقة النبات (Cinnamon Garden) وبها جل طوائف النبات الاستوائى . وكذلك قنطرة فكتوريا ونهر فكتوريا الذى يجرى إلى جانب البلدة . وجو البلدة تلطفه الرياح الموسمية فيصير منعشا جميلا إذا حجبت الشمس سحابة خفيفة وإلا كانت اشعة الشمس حارة محرقة ولقد فاجأنا المطر بعد الظهر فى غزارة عجيبة على أنه لم يجاوز ساعة من الزمان ثم عادت السماء تنقشها الغيوم المبعثرة حتى المساء حين أتينا إلى الباخرة وكانت حركة الشحن دائبة وجل البضاعة من شاى سيلان ذائع الصيت يرسل الى استراليا



شكل (١٠) أضحت أدليد من أفخر مدن الدنيا بعد أن كانت قرية ريفية منذ مائة عام

وزيلنده وسكانها من أكثر بلاد الأرض استهلاكا للشاى . وفى تمام الساعة العاشرة مساء اذنت الباخرة بالرحيل فدقت أجراسها ونفخت أبواقها وتنحت عن الميناء بأضوائها المنثورة يشرف عليهـــا جميعا اعلان عن شاى سيلان بالضوء الأزرق فى حروف كبيرة جدا . ظل الركاب يتحدثون عما بقى من الأيام إلى استراليا يستكثرونها لأن الباخرة لن ترسو على البر الا بعد تسعة أيام كاملة وزاد الأمر وحشة أن عدد المسافرين قد انضمر جدا لأن جلهم نزحوا الى بمباى وكولمبو على أن البحر أصبح فى اليوم التالى اكثر هدوء وفى

المساء أعلن الربان أن السفينة ستجتاز خط الاستواء الساعة السابعة والربع تماما من صباح الغد (الثلاثاء ٦/٢٣) فقمنا مبكرين لنلمح من هذا الخط قبسا يفصل مابين نصفى الكرة الأرضية والعجيب أن جل المسافرين قاموا مبكرين وأخذوا يشيرون الى نواح البحر وكأنهم رأوا وسط اليم خطا او فاصلا وكانوا مغتبطين لأنا بدأنا ندخل مياه النصف الجنوبى وهى لاشك أطهر شأناً وأراضيها أقل زحاماً وعبثا ، وكان البحر يومنا هذا أملس هادئا لم تكد تخدش أديمه موجة واحدة كأنه لجة من زيت براق ولقد أعلن الربان أن الساعات يجب تقديمها عشرين دقيقة كل يوم حتى نصل أستراليا لأن انتقالنا إلى الجنوب الشرقى سيظل فى زاوية واحدة لا تتغير وكلما قاربنا الشرق بكر شروق الشمس وجاء ظهر اليوم سابقا لظهر الأمس ولم تحفل الباخرة كثيراً بخط الاستواء كما فعل الألمان يوم عبرته ذاهبا إلى أمريكا الجنوبية ، والحق أن البواخر الألمانية أكثر مرحا وأدعى للترويح عن المسافرين ويظهر أن الصلف الانجليزى وبرودهم المعروف قد أثر حتى فى تلك المناسبات . ولقد كان الجو صافيا والنسيم عليلا طريا منعشا لم يحقق تلك المخاوف التى تزعجنا بها الجغرافيا عن خط الاستواء وهجير حره ووابل مطره ، على أن اتجاه الرياح قد تغير فبعد أن كانت بالأمس تهب وافدة من يميننا جهة الغرب أصبحت اليوم تفد من يسارنا وهو الشرق ، والأولى هى الموسمية الجنوبية الغربية والثانية هى التجارية الجنوبية الشرقية . حل المساء وزينت الأبهاء بالثريات الكهربائية الملونة والجوانب بالأعلام المختلفة وذلك احتفاء بعيد ميلاد ملك الانجليز إذ قد بلغ الثانية والأربعين وظل القوم يرقصون إلى ساعة متأخرة من الليل لكن عددهم القليل قد أنقص كثيراً من بهجة الاحتفال إذ كنا لا نعدو الخمسين مع أن الدرجة الثانية أعدت لأكثر من ستمائة ولا يفضل القوم السفر إلى أستراليا على بواخر .P. & O بل يؤثرون عليها Orient Line لا لشىء سوى أن الشركة الأولى تستخدم كثيرا من الهنود فى المطعم،



شكل (١١) تمتاز أدليد بشوارعها الفسيحة الممتدة

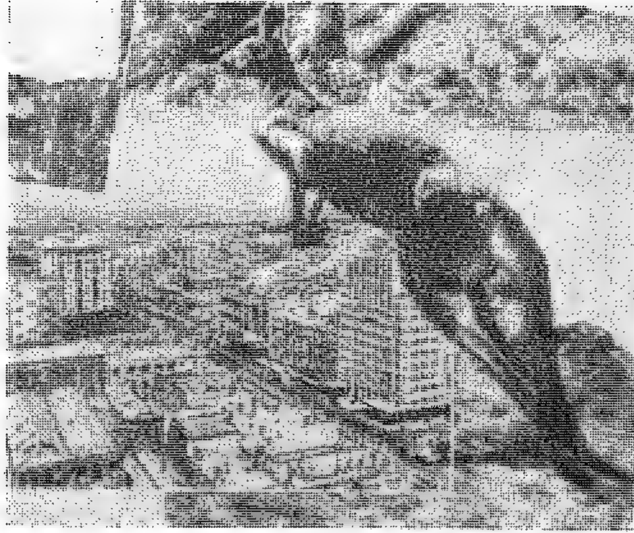
والحجرات أما الأخرى فكل خدامها من الانجليز وإنى لأعجب من عصبية القوم لألوانهم وجنسياتهم فبمجرد أن يلمحوا أحدا تشوب لونه السمرة ولو الخفيفة خالوه (Coloured) ونظروا اليه نظرة أخرى وتحرجوا معه فى الاختلاط والحديث كأنه وباء يوشك أن يصيبهم وتلك النزعة لا نلمحها تبدو ظاهرة إلا بعد اجتياز قناة السويس فعندئذ يبدأون التفرقة ويظهر أنهم يلقنون ذلك أبناءهم منذ الطفولة حتى أنا كنا نلاحظ صغارهم ينفرون من الهنود حتى ولو كانوا من ركاب الدرجة الأولى . وأعجب كيف لا يقابل الشرقيون ذلك بمثله أو يزيد بل يعترفون بتلك الذلة والمسكنة ويتحدثون عنها وكأنها أمر واقع قضى به الله عليهم فهلا تكاتفنا على مقاطعتهم وعدم التودد إليهم والترفع عنهم حتى يثوبوا إلى رشدهم ويقلعوا عن ذلك الصلف الأجوف؟ ولقد كنت ألمح ذلك فى معاملتى لهم إذ كنت أنبو عنهم ولا أكترث لهم

فكانوا هم يحاولون بعد ذلك مخالطتى وخطب ودى من نواح عدة .

بدأ البحر منذ عصر الخميس يضطرب والرياح تعصف وظل كذلك طوال الليل وأصبح أكثر عنفا إذ كان موج البحر يعلو جوانب الباخرة فلم يستطع أحد البقاء على السطح بل آووا إلى مضاجعهم وكانت أغلب مقاعد الطعام خالية وكان الجو رطبا والسماء محملة بكثيف الغيوم فكان ذلك فى ظنى تغييراً مستملحا إذ كنا قد بدأنا نسأم طول المسافة فى جو واحد وعمل متكرر.

ولقد كان حظى هذا اليوم خيرا من سابقه إذ ربحت ١٢,٥ شلنا فى سحب يانصيب يجريه القوم على الأرقام التسعة كل يوم مقابل شلن واحد للتذكرة. وكنت كلما طوحت ببصرى إلى آفاق الميـــاه المائجة المضطربة المخيفة ألمس عظمة الكون وضآلة الانسان أمام القدرة العلية . وكنت أكبر فى طلائع الكاشفين جرأتهم وجميل صبرهم يوم كانوا يقطعون ذلك بالسفن الشراعيـة الصغيرة ونحن على عظمة باخرتنا ومنعتها كنا نخشى أن يصيبها ضر أو أذى . ولقد عاكس هذا الاضطراب سرعة الباخرة فبعد أن كانت تقطع ٤٠٠ ميلا فى اليوم نزلت إلى ٣٣٠ ميلا وقد مررنا ليلة الأمس بمجموعة من جزائر تسمى (Cocos أو Keeling) على اسم انجليزى كشفها ســـنة ١٦٠٨ وأهملت إلى سنة ١٨٢٥ حين ذهب إليها الكابتن Ross وبهره اجمالها فرجع ليحضر عائلته وإذا به يجد أسرة أخرى قد احتلتها فتنازعتا وتغلب الأول وأضحى حاكما عرف بالحزم والعدل بين سكانها القليلين . ولا تزال أسرته تملك أغلب وسائل الانتاج هناك إلى اليوم مع أن الجزائر دخلت تحت وزارة المستعمرات يشرف عليها حاكم سنغافورة . وهى من محطات البرق الهامة فى المحيط إذ منها تمتد الأسلاك الى كولمبو وجزائر الهند وأستراليا وموريس ومدغشقر وجنوب أفريقية .

ما كنت أخال أنا فى أيام قليلة سننتقل من الصيف القائظ إلى القر الزمهرير فلقد هبطت الحرارة هبوطا فجائيا لما أن اجتزنا خط عرض ٢٠ ح وأخذت



شكل (١٢) يكثر الكانجارو حول أدليد

فى النقص فشعرنا ببرد الشتاء واضطررنا إلى لبس الصوف والتحافه وسرعان ما تغيرت الأزياء وغطيت جوانب السفينة وانزوى غالب المسافرين إلى حجراتهم ، وكانت السحب تحجب الشمس غالب الساعات ، وإن تكشف عنها قليلا فرح القوم وماجوا ولا يكاد يستوى بهم الجلوس تحت أشعتها المحبوبة الدفيئة حتى تختفى ويعودوا من حيث أتوا . وشتان مابين نيران البحر الأحمر وهجيره وبين قر تلك البحار المجانبة لأستراليا وفى كليهما كان الامتعاض يسود أوجه القوم فلا الصيف أرضاهم ولا الشتاء أقنعهم ، ومتى كان الانسان لربه شكورا ؟

ولقد أخذ الكثير يعد عدته للنزول إلى أرض أستراليا فى الغداة ، ونشط البحارة فى تجهيز روافعهم وفتح مخازنهم استعدادا لتفريغ بضاعتهم فى فريمانتل أول مرسى أسترالى وكم هالتنا كثرة البريد الذى كدس فى آلاف الأكياس فبدا كأنه التل الشاهق وذلك كله لجهات غرب أستراليا .

بكر الخادم ينادينا منذ الساعة السادسة والنصف صباحا كى نسرع بالصعود

للكشف الطبي . وقد علمت منذ الأمس أنه شديد ومن الغريب أني أصبت بمجموعة من (دمامل) شوهت من وجهي كثيرا وقد كان ظاهرا منها فى يوم واحد عشرة ولعل ذلك من شدة الحرارة فى الجهات الشمالية وخصوصا البحر الأحمر ، وكذلك بسبب الغذاء المحفوظ المثلوج مدى العشرين يوما السالفة ذاك الذى أثر فى شهيتنا فقلت شيئا فشيئا فخشيت أن يكون ذلك سببا فى منعى من الدخول فتتكرر حادثة جنوب أفريقية ، ولكن شتان بين رقة الاستراليين وظرفهم وخشونة أهل نانال وغلظهم فلقد أقبل رجال (الكرنتينا) ومررنا أمامهم ونظروا إلى أيدينا وأذرعنا ثم أجازوا لنا الدخول حيث تفحص جوازاتنا . هنا داخلنى الخوف أن يكون المصريون من غير المرغوب فيهم كما هى حال جنوب أفريقية خصوصا وأنهم سلموا جميع الرعايا البريطانيين جوازاتهم إلا فريقا قليلا من الأجانب أمثالى استمهلونا حتى يفحص جوازاتنا رجل آخر لكنه كان غاية فى رقة الحاشية ولين الجانب وقد ختم الجواز لى وتمنى لى رحلة سعيدة . فكان ذلك لاشك مطمئنا لى ومزيلا للوساوس التى ساورتنى طويلا قبل وصولى إلى تلك البـــلاد . أسرعت لأستقبل : فريمانتل Fremantle مرسى السفن الوافدة إلى أستراليا من الغرب عند مصب نهر سوان ذاك الذى أوفدت اليه من سدنى سنة ١٨٢٦ طائفة من المنفيين لاستغلاله وكان قائد السفينة التى حملت تلك البعثة يسمى (فريمانتل) فأطلق اسمه عليها ومنذ سنة ١٨٥٠ أصبحت فريمانتل أكبر مرسى لوفود المنفيين وهم أول نزلاء أستراليا . بدت الميناء عظيمة الامتداد تحدها حواجز الأمواج ، وتقف السفن العدة الى مراسيها ومن حولها الروافع المرصوصة الى مد البصر والبلدة تقوم على مجموعة من ربى صغيرة فى ڤيلات بديعة سقوفها منحدرة حمراء وجلها بالآجر الأحمر أو الخشب ، وشوارعها تعلو وتهبط الى مد البصر . أقلتنا سيارة وسارت بنا تشق شوارع البلدة بعد أن عبرت قنطرة نهر سوان ثم سلكت سبيلها الى پرث عاصمة غرب أستراليا وتبعد عنها بمسافة ما بين

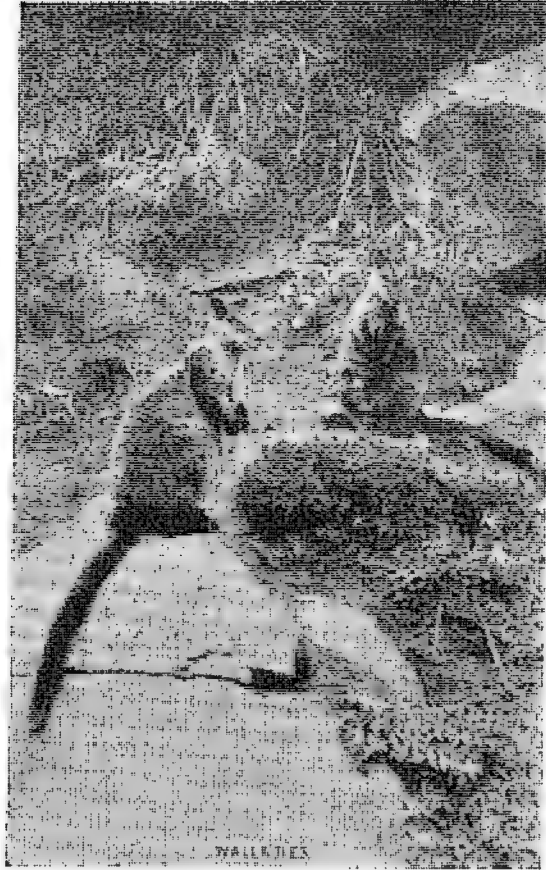


(شكل ١٣) الكانجارو يسابق السيارة

الأهرام والقاهرة وكانت جل الطريق تشق وسط مروج طبيعية خضراء تغص بالأحراش ويتخللها الشجر وقد اتخذ منها القوم ضواحى كادت تملأ الفراغ ما بين البلدين وكلها فى (ڤلات) أنيقة صغيرة متجاورة حول كل منها حديقة صغيرة أرضها خضراء بطبيعتها .

ظهرت پرث على الضفة الشمالية لنهر سوان الذى يتسع عندها اتساعا هائلا وقد طغى على مائه ملح المحيط فأضحى أجاجا . هنا اتسعت الشوارع واكتظت بالمبانى الفاخرة إلا أن جلها لا يتعدى الدور أو الاثنين إلا القليل من دور الحكومة والبريد والبنوك ، ويشق الترام والأمنبوس أهم طرقها .

أما عن السيارات الخاصة والتاكسى فحدث كثرة تفوق كل وصف حتى قيل لى أن كل الناس من ملاك السيارات وأظرف ظاهرة فى شوارعها أن الأطارين عريضان جداً تظلهما ظلة ممدودة من زجاج أو خزف أو قيشانى بديع ومظهر المساكن وأهل البلدة يدل على جانب كبير من الغنى والرفاهية ولم نكد نجد ناحية قذرة أو بيوتا قديمة متهدمة فالجميع يسيرون فى هندام نظيف ووجوه جميلة وبخاصة النساء ولم ألاحظ كثيراً من الدخلاء بينهم كما لاحظت فى أهل أمريكا الجنوبية وجنوب أفريقية مثلا والبلدة هى وفريمانتل وضواحيها تؤوى ٢١٥ ألف نفس ، وليس ذلك الغنى بعجيب فهى أكبر مصدر الذهب فى أستراليا حتى أطلق عليها (The golden west) وكذلك كان لغلو الأجور دخل فى ذلك فالعامل الذى يصلح الطريق يتقاضى خمسين قرشاً فى اليوم . ولن أنسى منظر المدينة فى تقوسها الجميل وتغضنها الجذاب من ربوة فى (King's park) أكبر متنزهاتها الذى تبلغ مساحته ١٢٠٠ فدان وقد نسق نصفه وترك الباقى بحالته الأولى الفطيره (Bush) ، وعلى جانب منه تطل الجامعة وهى فى بناء فاخر على نمط قريب من الأندلسى بيوائكه التى يعلو بعضها البعض وبرجها الذى حاكى مآذن بلاد المغرب وهى منحة من هبات كبار الخيرين الأستراليين وتنتشر حولها الكليات فى أبنية مختلفة ولقد هالنى ما علمته من أن التعليم بجميع درجاته مجانى حتى الجامعة نفسها ، لذلك لم أعجب لما علمت أن الدولة تنفق على التعليم فى أستراليا فوق ثمانية ملايين من الجنيهات مع أن سكان القارة كلهم ٦ ½ مليوناً أعنى أقل من نصف سكان القطر المصرى ومستوى الثقافة فى البلاد مرتفع جداً . ولقد تفقدنا حالة الأسواق لأنا كنا نسمع أن الأسعار عالية فى تلك البلاد وإذا بنا نجدها رخيصة فالحلة الأفرنجية بثلاثة جنيهات والحذاء بأربعين قرشاً ولقد هالتنا معروضات اللحوم على اختلاف صنوفها وقد كتب على كل نوع ثمنه فكان يكتب على الرطل الضانى ٦ بنس — والبنس الاسترالى أقل من البنس الانجليزى



(شكل ١٤) حيوان الولابى شبيه الكانجارو

فهو يوازى نحو ثلاثة مليمات (الجنيه الانجليزى كان يساوى ٢٥ شلنا أستراليا) أى أن الرطل دون القرشين وذلك فى المدن الكبيرة وهو لاشك فى الريف أرخص فالشاة هناك تشترى بخمسة شلنات أو أقل من ذلك .

لبثت اليوم كله أتجول والجو ماطر والسحب تسد الآفاق وكم أمطرت من بَرَد كثيف ووابل غزير هذا إلى شدة البَرْد وعصف الرياح ، وكان القوم يستبشرون لذاك المطر لأنه المنقذ لأغنامهم وغلالهم ، وقد تخلف عنهم فى السنتين الخاليتين فاضطر الكثير أن يتركوا مزارعهم ويبحثوا عن عمل

آخر ولما تأخر هذا العام خالوه أسوأ وكادوا أن ييأسوا من انتاج المراعى ومحصول القمح لكنهم بدأوا يستعيدون أملهم وقد داهمهم المطر وابلا منذ أول هذا الشهر (يونيه) وهو موسم الشتاء عندهم ومطرهم لا يسقط إلا فى هذا الفصل — كما هو الحال فى الاسكندرية وبلاد البحر الأبيض عندنا فى الشمال .

وكنت فى تلك الجولة أزامل جماعة من الألمان الذين هاجروا من بلادهم زهدا فى هتلر وتجافيا به لأنه يسومهم سوء العذاب فمثلا أضحى لا يباح لهم البيع ولا الشراء ولا دخول المطاعم وقد كتب جميع الحوانيت على الأبواب (ممنوع دخول اليهود) وأولادهم يطردون من المدارس ويضطهدون ويلقون بالوحل كلما ساروا فى الطريق ، والعجيب أنهم إن أرادوا النزوح تركوا أموالهم فى ألمانيا ولا يباح للواحد أكثر من عشرة ماركات أى أقل من جنيه أما عقاره وأملاكه فتبقى باسمه لكنه لا يأخذ منها فائدة فى الخارج وإن باعها دفع النصف ضرائب والنصف الباقى ظل فى بنوك ألمانيا ، لذلك أحتالوا على اخراج أموالهم فبعضهم يشترى سلعا وتحفا ألمانية غالية ثم يبيعها إذا خرج بنصف ثمنها ويحصل بذلك على بعض ماله ، وقد هاجر منهم زهاء مائة ألف الآن وهم يزيدون على ثلث المليون . وكم راقنى من هؤلاء القوم ديمقراطيتهم فقد كان معهم سيدة قال لى بأنها (الطباخة) وكان يقدمها عليه فى كل شىء كأنها إحدى نسائه وكانوا يجلسون معها فى الطعام والسمر لا فرق بينها وبينهم ولذلك عدت نفسها واحدة منهم تحس احساسهم فأنى لنا نحن تلك المعاملة واكرام الخدم حتى يخلصوا لنا ويحسوا إحساسنا.

أما عن رفيق النوم فى الباخرة فيونانى اسمه (باسليوس) يقوم على مزرعة للرعى فى قرية وراء فريمانتل هو وأخ له وقد زار عائلته فى سلونيك ورجع يستأنف عمله وقد خبرنى بأن الأرض هناك رخيصة فالفدان بشلن واحد وتسقى المزارع إما بالأمطار وإما بالآبار الهوائية يدقونها وتكلفهم



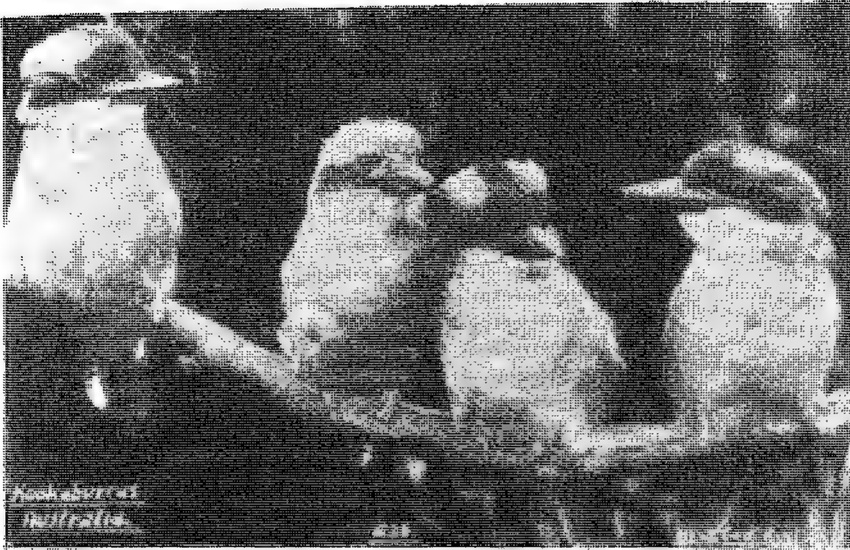
(شكل ١٥) الكوالا دب أستراليا العجيب

جنيهين للقدم الواحدة عمقاً فى الأرض . ويدهشنى فى أولئك القوم جلدهم على المكاره وإقدامهم على طلب العيش فى أقصى الأرض وقد بدا لى أنه هو وأخوه يعيشان عيشة تقشف شديد ويجمعان المال للمستقبل ويكاد الرجل يكون أمياً ليس لديه من المعلومات الا النذر القليل وهو أقل تهذيباً من سائر الطوائف الأوروبية التى كانت معنا وتعوزه النظافة فلم يكد يغير ملابسه الداخلية المدة كلها وكان يتجشى ويتمخط فى غير تورع مع أن ذلك ينافى الآداب الأوروبية كلها ولكن ما ذنبه وقد قضت عليه بذلك أمة فقيرة

وشعب منحل وحكومة مرتبكة ، ألا قاتل الله الفقر والضعف فهما سبب كل ذلة وتدهور .

كنت أزمع أن أترك الباخرة هنا وأستقل سكة الحديد (.TheTrans. Cont) لكن حذرني خبير بها كان فى الباخرة فقال بأنك ستصرف ثلاثة أيام كاملة وأنت تسير وسط صحارى مجدبة مملة ليس بها الا قرى ضئيلة ليست بذات شأن وفوق ذلك فان شدة البرد وبخاصة أثناء الليل لا تحتمل ولم تزود العربات بالمدافىء والمعدات الواقية ولن تفقد الا كالجورلى مقر مناجم الذهب الشهيرة فترددت طويلا ثم رجحت البقاء فى الباخرة بعد زيارة كالجورلى خلال اليومين الذين وقفتهما الباخرة فى فريمانتل . أقلنى القطار وبدأنا نسير فى نجاد جرانيتية يكسى كثير من جهاتها بالغابات وجلها من أشجار الكافور (اليوكالبتس) الذى يسمونه (Gum Tree) والذى لا تكاد ترى غيره فى غالب جهات استراليا الخضراء ولما كان شكله العام غير جذاب كانت كثرته سببا فى افتقار القارة الاسترالية الى جمال الغابات وكنا نرى بعض أشجاره تفوق عشرين متراً فى العلو . وكنا نرى قليلا من شجر الصندل وشجر جارا وكارى (Jarrah, Karri) وهما أهم مصدر للأخشاب القيمة فى استراليا واغنى جهات القارة بهما الركن الجنوبى الغربى وتصل شجرة الجارا ١٣٠ قدماً ويزيد قطرها على المتر وخشبها متين عظيم النفع فى القناطر وعوارض سكة الحديد (sleepers) والرصف وهو يقاوم الحشرات كلها .

أما شجرة كارى فتصل ٢٧٨ قدماً وقطرها متران ونصف وتمتاز بمتانة الخشب وطول كتله ولا يكاد يفرق عن خشب الجارا الا اذا حرق لأنه يتفحم ويسود أما الكارى فيخلف رماداً أبيض وكلاهما يقاوم الاحتراق طويلا أما خشب الكافور فشديد المقاومة خصوصاً للآفات لأن رائحته تطرد كل الآفات إلا أنه لا يستخدم فى الأثاث والأبنية بسبب رائحته .

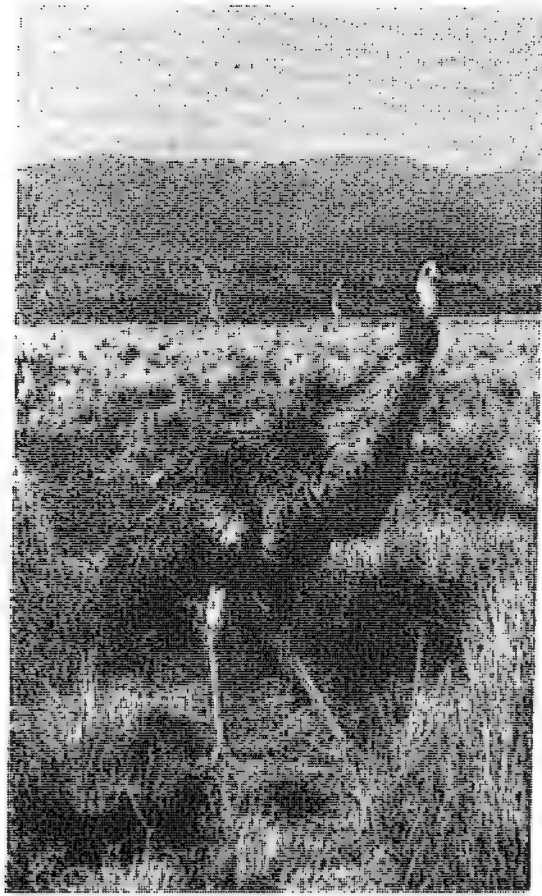


(شكل ١٦) الطائر الضاحك ويسمى (كوكابورا)

ظل الشجر سائدا الطريق زهاء ثلاث ساعات ثم اختفى فجأة ودخلنا فى سهول مموجة لانهائية يسمونها (نالاربور Nallarbor Plains جيرية) وهى التربة يكسوها غشاء رقيق من ثرى أحمر ينمو به عشب قصير قاتم يسمونه (saltbush ، bluebush) مذاقه مالح منفر وأعجب مافى ذاك العشب أنه يظل أخضر طوال العام ويغالب قيظ الصيف وقر الشتاء وله خاصية عجيبة فى تشرب الرطوبة سواء من المطر أو الندى الكثير هناك و تلك السهول تجرى ٤٥٠ ميلا إلى الشرق ويسير خط سكة الحديد فوقها مستقيما ومنه جزء طوله ٣٠٠ ميل لاينحنى درجة واحدة والمنطقة موحشة لايقطنها من الناس أحد وإلى شمالها كثير من البقاع التى لم تستكشف إلى اليوم والمنطقة جافة جفافاً مطلقاً حتى كانت المياه من أكبر الصعاب التى اعترضت مد سكة الحديد ولقد أعدوا آبارا تمد الخط على جانبيه من مسافة ٣٠٠ ميل .

أخيراً بعد عشر ساعات دخلنا بلدة كالجورلى التى يطلقون عليها اسم (بلدة هانان Hannan) وهو الذى أسسها لذلك كنا نرى اسمه يكتب على

شارعها الرئيسى ويحمله كثير من الأندية بها ولقد قصوا على بأن الرجل نزل المكان باحثاً عن المعادن وحدث أن حصانه كان يجرى وسط العشب حين ضرب حافره حجراً تدحرج وبدا براقا وأذابه من ذهب خالص فانتشر نبأه وسارع النـاس إلى المكان من بقـــاع الأرض المختلفة رغم جدب المنطقة وجفافها الشديد ولقد قيل بأن الماء كان يباع بثمن أغلى من ثمن الخمر هناك . أزاح القوم الأحراش ونصبوا خيامهم ثم أخذت البلدة تمتد والمبـانى تقام حتى بلغت امتدادها الحالى الذى حاكى فى نظرى بلاد المراكز الصغيرة عندنا الا فى كثرة مداخنها وأكداس رمالها وتلال الثرى الذى أزيح ليفسح مجالا لحفائر المناجم وتمتد منطقة المناجم ميلا كاملا يطلقون عليه اسم (الميل الذهبى The Goldin Mile) لكثرة ما أغل من ذهب . ركبت الترام الذى يشق البلدة ووصلت إلى فتحة منجم عاد القوم إلى استغلاله بعد أن أوقف العمل لما أن انخفض ثمن الذهب ولما انحطت قيمة الجنيه الاسترالى اليوم علت قيمة الذهب فعاد القوم إلى العمل . ولم تشعرنى المنطقة بالغنى المفرط الذى كنت أتخيله اذ قد رسمت لى الكتب التى طالعتها عن ذهب الأقليم صورة مكان كادت أن ترصف أرضه بالذهب الخالص على أنى ألفيته متربا قذراً لا يبدو على أهله شىء من هذا الغنى الخيـالى الذى سمعت عنه . نزلت إلى سراديب ممدودة فى شعاب عدة يجرى فيها (الترلى) وقد ملىء رمالا لسد الحفائر خشية انهيار جوانب المناجم وأخيراً وقفنا الى جوار عمود براق أمسكنا به وزلقنا الى أسفل المنجم ورأينا قليلا من العمال يكسرون حجارة الكورتز وفيها بعض تبر الذهب . ولقد انحطت قيمة تلك المناجم اليوم عما كانت عليه فى بدء كشفها حتى أنها لا تكاد تسد نفقاتها لذلك لم تبد حركة العمل فيها ناشطة كما خلتها . ولقد فاق مجموع ما استغل من مناجم كالجورلى وحدها عشرين مليون أوقية قيمتها تزيد على ثمانين مليون جنيه أما ما أخرجته استراليا كلها فيزيد على مليار جنيه .

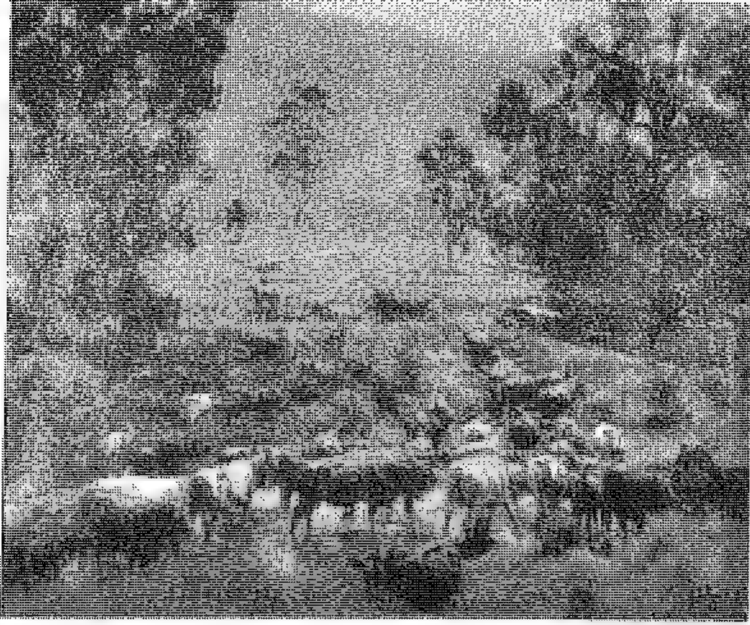


(شكل ١٧) الايميو نعام أستراليا

بت ليلتى وعدت بقطار الصباح الى برث ولم يمكنى ضيق الوقت من زيارة منطقة البحيرات الملحة التى تقع الى شمال منطقة الذهب والتى يوجد حولها قوم من السكان الأصليين فى حالتهم الفطرية . وتحمل بعض تلك البحيرات أسماء بلغتهم لا يكاد الواحد منا يستطيع النطق بها لتنافرها وتعدد حروفها أذكر من بينها اسم بحيرة (كاديبراويرا كانا) الذى يحتوى على تسعة عشر حرفا (Cadibarrawirracanna) . رجعت استقل الباخرة وقد خاب أملى فى الميل الذهبي وثروته الخيالية .

قامت بنا الباخرة تسير جنوباً ثم تطوف حول الركن الجنوبى الغربى لاستراليا فى تقوسه وكثرة جزائره ، وقد أخذ القوم جميعاً ينذروننا بالويل الشديد الثلاثة الأيام التالية التى فيها نشق ميــــاه الخليج الاسترالى العظيم The Great Bight فقد عرف بينهم بشدة الموج واضطراب الماء فى عنف مخيف فبدأت البـاخرة تضطرب وعلا الموج ولعب بها ذات اليمين وذات الشمال ثم جزنا رأس Leeuin (بالبرتغالية أنثى الأسد) وهو أبعد نتوء فى هذا الركن من استراليا وبعده اتجهنا شرقا نوغل فى الخليج المرهوب على أن الله قد خيب فأل أولئك المتشائمين فلم يزد البحر شدة بل على النقيض من ذلك خفت وطأته وتلطف بنا كثيراً عن ذى قبل ولم نلحظ من جديد سوى شدة الرياح الغربية (العكسية) وزيادة فى البرد - على أنا بعد أن أمضينا يوماً كاملا فى هذا الهدوء النسبى عاد البحر إلى ما عهده القوم فيه وغضب غضبة لم تهدأ ثورتهـا الا بعد وصولنـا أدليد أى يومين كاملين أو يزيد حين ألزم المسافرين مضاجعهم وصرفهم عن الطعام واللهو ، وكانت السفينة على ضخامتها تقفز قفزات مروعة يخيـل اليك اذا كنت واقفـاً أن الأرض قد هجرت قدميك فصرت معلقاً فى الفضاء وتسمع لتلك الرجات ضجيجا يصم الآذان ويوقظك فزعاً مرعوباً ، هذا الى شـدة البرد وهزيم الريح ووابل المطر . وللقوم الحق ان شبهوه بخليج بسكاى غرب فرنسا فهو فى ظنى يفوق ذاك شدة وعنفاً وخليق به أن يسمى (Great Bite) لأن قرصته السيئة لا تمحى من الذاكرة أبداً .

ساقنى الحديث مع استرالى كان عائداً مع زوجته من انجلترا الى الموازنة بين الانجليزى والاسـترالى فقال الرجل بأنه يعود من انجلترا بكلمة واحدة هى (disappointment) قلت وكيف قال انى ألفيت الانجليز ليسوا رجال العصر الحاضر بل هم يعيشون على تقاليدهم وماضيهم They live on tradition وهم طائفتان : قوم يترفعون عن كل شىء ويضعون أنوفهم فى السماء ويصعرون



شكل (٢٧) أحد مروج الماشية فى استراليا

خدودهم فى شيء من الصلف والغطرسة الجوفاء ، وفريق وضيع ليس من مرتبتك أن تخالطه أما الطبقة الوسطى المستنيرة فمعدومة هناك .

لقد ذهبت إلى انجلترا يحدونى أمل كبير أنى سألقى خير مرشد ومعلم وأحسن مثل يحتذى وإذا بى أراهم فى مجموعهم دون المتوسط بكثير وإنى لأترفع من أن أضع نفسى ندا لهم لا تلميذا أتلقى منهم التهذيب . ولقد لمس الاستراليون ذلك منذ الحرب الكبرى فقد كانوا يخالون انجلترا كل شيء وإذا بالجنود الاستراليين يفوقون الجنود الانجليز كفاءة وخلقا ، فمنذ ذاك الحين عاد الاستراليون يحترمون أنفسهم ولا يخالون الانجليز كبراءهم وقادتهم ونحن نرى فى الأمريكان خير قدوة فهم لا يزالون فى نخوة الشباب لا يركنون إلى الماضى البائد ولا يداخلهم الغرور الذى يسود الخلق الانجليزى لذلك كان المزاج الاسترالى أقرب ما يكون إلى الأمريكى وأبعد ما يكون من

الانجليزى . والحق أنى كدت ألمس ذلك من مقارنة النفر القليل الذى كان معى على الباخرة فهم قوم مرحون غير مترفعين يســـارعون إلى المعاشرة ويخالطون الجميع فى شيء كبير من التواضع الجميل والحاشية الرقيقة .

أخيرا أقبلنا فى صبيحة يوم (٣٦/٧/٣) على جزيرة كبيرة عند مدخل خليج سبنسر يسمونها جزيرة كانجارو ولبثنا نسير أزاءها ساعات عدة ، وفى الرابعة بعد الظهر بدت أرض الشواطىء عند أدليد وطيئة ولم يدل المكان على شيء من الجمال فهو مرسى حقير على رصيفه أربعة مخازن ليس غيرومن ورائه أرض عشبية مهملة لا يسكنها أحد وهذه هى الميناء الخارجية للسفن الكبيرة .

هنا أقلنا قطار مدى ساعة كاملة ١٢ ½ ميلا مررنا خلالها على عدة قرى صغيرة من بينها Port Adelaide وهى الميناء الداخلية الصغيرة . خرجنا من محطة أدليد الفاخرة وإذا بالمدينـــة آية فى الجمال قسمت رقعتها على النمط الأمريكى فى مربعات وخطوط متعامدة بدون استثناء والأبنية غاية فى الجمال والشوارع فسيحة جداً ونظافتها تسترعى الأنظار والمتاجر على أحدث طراز فهى حقا جديرة بلقبها The City Beautiful ويقوم الى جوانبها جميعاً مجموعة من متنزهات نسقت أيما تنسيق ومساحة بعضها ألفان من الأفدنة ويشرف من ورائها جبل Mount Lofty وأعلى ذراه ٢٣٣٤ قدم يبدو من أى مكان نظرت ، ومنظر المدينة من مرتفعاته التى نصلها بالسيارات أو بالقطار فى أقل من ساعة يسحر اللب ويزيد المدينة قيمة ورواء وبهجة وهى عاصمة استراليا الجنوبية وثالثة مدن استراليا يقطنها زهاء ثلث المليون من مجموعة سكان المقاطعة وهم ٦٠٠ ألفا أعنى نحو نصف مجموع الناس هناك أو يزيد — حل المساء وكنت مع بعض الرفقاء الانجليز وكان الجوع والبرد قد أخذامنا كثيراً فآوينا الى مطعم فى أحد الشوارع الرئيسية وقلنـا له هات لنا أكلة قوميـة فقال هاهى Three Course Meal أعنى من ثلاثة أصناف — الأول (broth) شربة ثقيلة كأنها (الكشك) يدخلها دهن ذنب الكانجارو المحبب لديهم وأعقبها



(شكل ١٩) طريقتهم فى جنى الكروم فى أستراليا الجنوبية

باللحم (Mutton) مع القنبيط والكرنب المسلوق والبطاطس المشوى بقشره ثم تلا ذلك بنوع من الحلوى (Pudding) الساخنة من خليط الفاكهة والقرنفل والعجين والكريمة وبعد ذلك القهوة مع اللبن وإلى جانب هذا أكداس من الزبد ثم شرائح الخبز الأسمر والأبيض ، كل ذلك الطعام الشهى دفعنا له شلنا واحداً استراليا أعنى أربعة قروش مصرية فأدهشنا ذلك الرخاء والرخص الذى ما كنا نعهده هناك . أما دور السينما فلا حصر لها اذ هى التسلية الرئيسية وجل الأشرطة أمريكية والبلدة تتأهب للاحتفال باليوبيل الذهبى Golden Jubilee لمرور مائة عام على تأسيس حكومة ولاية جنوب استراليا اذ أسست سنة ١٨٣٦ وقد أسرفوا فى الاعلان عن Centenary Celebration والاعداد له ، ويظهر أنه سيكون بالغ الأبهة لأنه سيبدأ فى أول سبتمبر ويظل مستمراً إلى آخر العام وسيشمل المهرجان جانبا عظيما من الألعاب والاذاعات وتزيين البلدة كلها وخصوصا الشوارع

الرئيسـية ومن بينها أسـبوع الزهور وفيه يزين كل بيت وحانوت واجهته بالزهور على اختلافها وللمتفوق جوائز كبيرة وقد زرعوا من الزهور مساحات كبرى خاصة بذلك وعنـد حلول سبتمبر يكون الربيع عنـدهم وهو موسم الزهور الجميل وليس للقوم حديث اليوم إلا هذا الحفل والدعاية له .

قمنا نسير شرقا جنوب ملبورن فظل الشاطىء الجيرى مشرفا من بلاد جنوب استراليا الجنوبية فكان البحر مضطرباً والجو مظلماً ماطراً طيلة الليل ونهار اليوم التالى، وفى صباح الاثنين انعرجنا شمالا لنوغل فى جون ملبورن الذى يسمى (بورت فيليب) فاذا به بالغ الامتداد كثير الليات والشعاب وعند مدخله وقفنا نلتقط الدليل (Pilot) وظلت الباخرة تسير فيه فوق ثلاث ساعات ونصف مدى أربعين ميلا أو يزيد وفى نهايته بدت مداخن المدينة ومراسيها ممدودة فى ثنيات وشعاب عدة ولقد استرعى نظرى ما زودت به تلك المراسى (Piers) من أحدث وسائل الشحن والتفريغ فما أن وقفنا حتى بدأت شباك الحديد تجرى هنا وهناك تحمل (السقايل) التى نسير عليها إلى البلدة ثم أخذت الروافع (Cranes) تجرى وتدور ومن تحتها إلى جوار السفينة عربات سكة الحديد ، أخذنا الترام إلى المدينة فبدا لى عجيبا لم أر مثيله من قبل — القاطرة مكشوفة وبها مقعدان جانبيان للركاب بينهما فجوة يقف فيها السائق وبيده الفرامل يحركها ليسير الترام أو يوقفه وتلك الفرامل تتصل بسلسلة تحت الأرض تتحرك دائماً وتحدث جلبة فى الشوارع دائماً فان أراد الرجل تحريك الترام أنزل تروس الفرملة فاتصلت بالسلسلة فجرى الترام وإن شاء أن يوقفه رفعهـا فانفصلت عن تلك السلسلة ، ويكاد ذلك الترام يعد أثريا لأنه أقدم ما أسس هناك ويسمونه (cable car) ، اخترقنا من الأبنية ما هو فاخر ضخم شاهق ونزلنا وسط البلدة فهالنا ما كان لشدة الحركة ووجاهة الأبنية وحسن تنسيق العرض فى المتاجر وجمال إضاءتها وهم يقفون أثر نيويورك فى نظـــام الأبنية فهى فى كتل (Blocks) متعادلة



(شكل ٢٠) مهرجان الزهور فى العيد الذهبي لتأسيس أدليد

تفصل بينها شوارع متعامدة وحركة المرور فيها هائلة إذ تكاد العربات تسد الطرق سدا وقد ألفت نظرى من بينها عربات النقل (الكرو) بخيولها الضخمة ذوات الأرجل الهائلة التى تسمع وقع سنابكها فى جلبة صاخبة وترى شعورها الهادلة التى تكسبها مظهرا بريا وأنت لن تستطيع اختراق الطرق إلا عند زواياها ولما أن يسمح البوليس بذلك عندئذ ترى المارة تتلاصق أكتافهم وهم مسرعون لاجتياز تلك الطرق . وبين فترة وأخرى ترى حنفية أقيمت وسط طبق أبيض يشرب الناس منها واستغربت تلك الظاهرة البدوية فى هذا الوسط المتحضر أما الناس فغاية فى الرقة وحسن الاستعداد للارشاد فلا أكاد اسأل احدهم امراً حتى يرغب فى أن يدلنى اليه بنفسه وإذا شكرته قال (Welcome) ولقد لاقانى أحدهم ممن تعرفت اليهم فى الباخرة أسير فى الطريق وهو يركب التكس فأصر أن أركب معه وظل يطوف بى هو وزوجته أطراف المدينة طويلا ولما أن فرغنا من الرحلة حاولت عبثا أن أقوم بنصيبى من الأجر مع أنى أعتقد أنه ضاعف الرحلة لأجلى ودفع للسائق زهاء ستين قرشا — وكثير

من المبانى يفوق الدور العاشر علوا ومنها ناطحات تعلو الى الدور السادس عشر ، علوته فاذا منظر المدينة والمياه المحيطة بها والمتنزهات وأرض السباق التى تحفها آية فى الابداع والجمال ولو أن رداءة الجو وكثافة سحبه ورذاذ مطره قد أخفى من جماله الكثير وكان القوم يعتذرون لى عن رداءة هذا الجو لانى جئت فى (Off Season) اذ أن هذا الشهر أردأ أوقات السنة عندهم على أنهم قالوا بأنى محظوظ فالاسبوع الماضى لم يكن يطـاق لأنه كان قارس البرد ولم تنقطع سيول المطر أبدا — خرجنا الى متنزهات المدينة وما أكثرها وأبدع تنسيقها فهى تزيد على ربع مساحة المدينة كلها وفى جانب منها (Fitzroy Gardens) زرت مأوى الكابتن كوك وهو بيت ريفى صغير بالآجر الأحمر كان مسكن أبويه فى انجلترا فنقل بشكله واقيم حيث حل كوك من بلاد فكتوريا (ملبورن) وبدوره الأرضى غرفتـــان صغيرتان الى جوارهما مجموعة من مداخل ، وأثاثه من خشب مصمت والمدفأة من شباك الحديد الغليظ ودخان الفحم قد لوث جوانبها وهناك خريطة الدنيا فى دائرتين عليها خط سيره وبالدور الأعلى غرفة وشرفة . وفى وسطه قطعة حجر كسرت من الصخرة التى رسا عليها أول يوم وصل استراليـا فى خليج بوتانى قبيل سدنى وذاك البيت كعبة الجميع يزورونه اعترافا بفضل كوك على الاستراليين اذ هو الذى أوجد لهم ذاك النعيم المقيم . ثم طفنا بأرجاء حديقة النبات الهائلة التى نسقت ايما تنسيق وحوت من مختلف نبات استراليا ما لا يحصيه الا أولو العلم والمختصون فى ذلك الفرع وقد أعجبنى كثيرا منظر السرخس (Ferns) الذى أذكرنى بالعصر الفحمى وما كان به من نبات كثيف . قامت بنا السيارة على طريق سنت كلدا الشهير الذى يحدثك عنه كل ملبورنى بشىء من الفخر والزهو واذا به حقا طريق فاخر اعد وسطه للعربات الثقيلة ويمينه ويساره للعربات الخفيفة والافاريز للمارة والأشجار تحد كل أولئك الى مد البصر وعلى جانبيه تقوم أفخر مساكن القوم Residential Quarters وفى متنزه



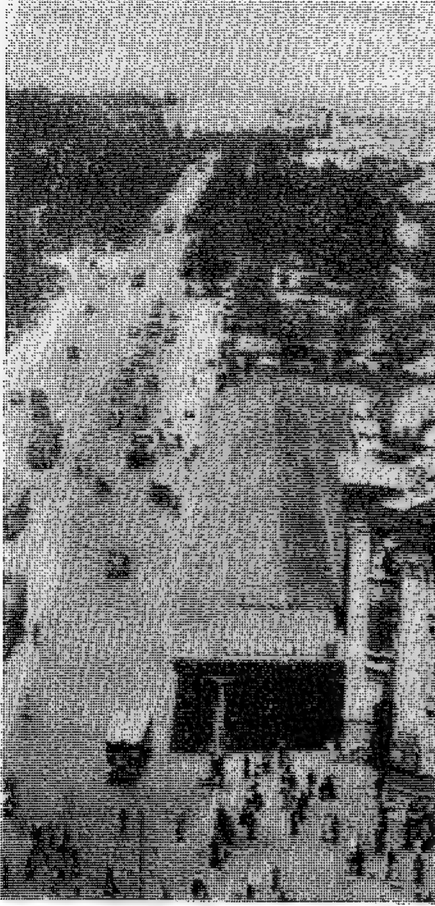


شكل (٢٢) ملبورن ترى من الطيارة بقصورها وناطحاتها

منه بدا مشرفا كالطود بنــــاء الجندى المجهول ويسمونه The Shrine of Remembrance بنوه لاحياء ذكرى من ماتوا من أبناء فكتوريا فى الحرب العظمى وكلفهم فوق مائتى الف جنيه وهو مدرج هائل يؤدى بدرجة فى أربع جهاته الى بهو من أعمدة داخله قبة مجوفة وسطها المدفن وحوله الاسماء بالذهب وعليها النياشين والأعلام وقد شق منور فى جانب من سماء القبة ينبثق منه شعاع للشمس يسقط على الضريح الساعة الحادية عشرة من اليوم الحادى عشر من نوفمبر فيثير من الذكريات أجلها وفى أثناء الليل تلقى عليه الاضواء الكهربائية من جميع الأركان فى قوة يجعله يبــدو بهيجا براقا بما

حوى من زخرف ومرمر ثقيل . ثم واصلنا سيرنا الى نهاية الطريق فبدا شط البحر رمليا ناعما مدرجا أقيمت عليه الجواسق والحمامات وتلك احب الجهات لهم صيفا وفى جانب منها مدينة للألعاب ويسمونها Coney Melbourne تشبيها لها بجزيرة كونى عند نيويورك . ثم كانت جولتى فى المدينة اثناء الليل فلم يسترع نظرى سوى أضواء الشوارع والمتاجر بألوانها العدة ولم يكن رواد الطريق ليلا كثيرين الا عند دور السينما وهى أحب ملاهيهم ولعل للجو العكر الماطر دخلا فى ذلك . ويا لهول ما ترى أن وقفت هنيهة عند محطة سكة الحديد هناك ترى سيولا من الناس دافقة ذاك مسافر وهذا آيب صباح مساء وبناء المحطة فاخر جدا وعلى أبوابها الرئيسية ساعات كثيرة بعدد الأرصفة والخطوط المختلفة وتبين ساعة قيام كل قطار . ويشق البلدة نهر يارا Yarra الصغير ويسير وهو يتلوى بينها وتعبره قناطر فاخرة عدة أجملها Prince's Bridge الى جوار المحطة وقد نسقت جوانب ذاك النهر وصفت عليها اللنشات الأنيقة للنزهة والمسابقة أما عن الألعاب (Sports) وغرام القوم بها على اختلاف صنوفها فذاك أمر قد جاوز بالاستراليين الحد المعقول وأخشى أن يكون قد أضحى ضربا من الجنون فاذا لم تتكلم عن الرياضة والألعاب وتكون عليما بدقائقها واسماء ابطالها فأنت رجل متأخر فى زعمهم وكم كانوا يتحدثون معى عن حوادث اللعب المختلفة وهم موقنون بأنى بما يقولون فهيم والحق انى لم أكن أفقه منها شيئا بل كنت أدعيه خشية أن أرمى بالتاخر وأينما سرت بدت أمامك أرض السباق ووسائل الرياضة فى كثرة عجيبة ولعل احبها لديهم سباق الخيل التى لا تفتأ حتى دور الحكومة وسكة الحديد تعلن عنه فى اسراف كثير وكذلك الهوكى والكركت والسباحة وسباق الدراجات ولقد كان يفد معى على الباخرة شاب لم يجاوز الرابعة عشرة وهو بطل فرنسا فى سباق الدراجات وقد دعى الى أستراليا ودفعت له تكاليف باهظة لينازل بطلها الشاب الذى لم يجاوز السادسة عشرة وقد

استقبلوه استقبالا عظيما ونشرت الصحافة صورته وتحدثت عنه طويلا، والمباريات الرياضية بين المقاطعات الاسترالية قائمة لا تنقطع أسبوعا وتكاد تملأ اخبارها نصف فراغ الجرائد كلها على كبرها. وأعجب الجرائد التى لاتحصى والتى تظهر فى حجم كبير فمثلا Time Herald تبدو فى أربع وعشرين صفحة يوميا ولها عدة طبعات الأولى والثانية والثالثة لليوم الواحد وأنت تقرأ فيها فلا تكاد تجد شيئا عن العالم الخارجى أبدا اللهم الا ما تعلق باللعب والأعلان والمعروف عن الاستراليين أنهم لا يعبأون بأخبار العالم كثيرا



شكل (٢٣) طريق كلدا الشهير فى ملبورن

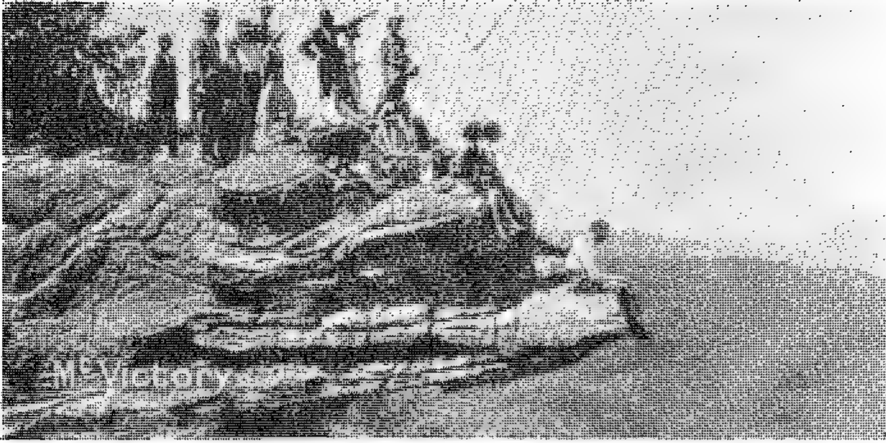
لأنهم فى معزل عنه لا تهمهم شئونه ولكل جريدة عمارة فاخرة قد تزيد على عشرة أدوار ويكاد يخصص الدور الأسفل كله على كبره لسيارات النقل التى توزع الجريدة بمجرد ظهورها فى انحاء المدينة وأغلب الناس من قراء الجرائد. وقد رأيت أحدهم ابتاع (الهرالد) بينس ونصف (خمسة مليم) ونظر فيها نظرة وهو واقف على ناحية من الطريق ثم اطبقها ووضعها فى سلة المهملات.

وفى المساء كان بعض الفقراء يمرون ليلتقطوا منها ما راقهم وتلك شبيهة

بما رأيته فى بلاد أمريكا يوم أن زرتها ويظهر أنهم يتخذون نيويورك وأهلها مثلا وينأون عن لندن ويتقدونها دائما . والجرائد حرة إلى حد كبير وقد تنشر أخبار فاضحة مبالغة فى الصراحة ، فما قرأت مثلا الخبر الآتى : —

قالت المس روز عن نفسها — كنت أخرج لأمرح مع شاب ينفق على ثلاثين شلنا فى الأسبوع ولما لم يزد على ذلك هجرته إلى غيره ولكن سرعان ماهجرنى ونأى عنى فهلا عاد الى حبيبى الأول ! ! والنساء فى استراليا أميل إلى الاباحة والانقياد وراء الحرية المطلقة حتى قيل إن حرمة المنازل هناك ضعيفة ولا تحرص الزوجة كثيراً على حقوق زوجها حتى قال بعض القضاة فى حكمه مرة (يسود البلاد أزواج منحلون وزوجات بعيدات عن الوفاء) وقضايا الطلاق هناك لا تدخل تحت حصر .

آوينا فى المساء إلى مقهى لنستريح فتقدمت منا الآنسة تسألنا ماذا نشرب فقال صديقى الألمانى بيرة والفرنسى شمبانيا والانجليزى براندى وأنا قهوة باللبن فابتسمت وقالت يظهر أنكم لم تمروا بتلك البلاد من قبل الستم تعلمون أن الخمور محظور بيعها بعد الساعة السادسة من كل يوم فدهشنا لذلك وشرب الكل قهوة معى . وقد علمنا بعد أن ذاك هو القانون فى فكتوريا كلها ولذلك ترى العمال بعد الخروج من العمل الساعة الخامسة تماما مسرعين إلى المقاصف ليشربوا ما راقهم من الخمر قبل حلول السادسة . وكذلك احترامهم ليوم الأحد مكفول بالقانون فلا يباح للجرائد أن تصدر يوم الأحد قط ولا يجرى الترام ساعة الصلاة ولا تفتح صالات اللعب والتنس ، على أن سائر بلاد استراليا تسخر من فكتوريا وملبورن وترميها بالشعوذة وسلب الناس مسراتهم بلا مبرر وتسمى عملها هذا (kill-joys) ويظهر أن البوليس هناك شديد جداً فمثلا دخل بنا سائق التاكس طريقا لا يباح دخول السيارات فيه فاستوقفه على الفور وأخذ نمرته ليلزمه الغرامة المفروضة فقال السائق ولكن كيف أعرف ذلك ولم تقم اشارة هنا تدل على ذلك فقال حقا ذلك واجب



شكل (٢٤) فوق جبل النصر وراء ملبورن

على الدولة ولكنى أقوم أنا بالواجب على فتلك هى الأوامر ولك أن تدفع أمام القضاء بذلك كى توضع الاشارة اللازمة . كذلك فانك إذا القيت بأية ورقة فى الطريق فللبوليس أن يلزمك بما يقرب من العشرين شلنا غرامة والحق يقال ان شوارع البلدة بالغة النظافة وقد حاولت أن أعثر على بعض الأحياء القديمة القذرة (slum) فلم أجد قط . والقوم بعيدون عن التدين لا يكادون يؤمون الكنائس ولا تكاد ترى من الكنائس الا النادر .

أدهشنى ذاك العمران الهائل والرقى العجيب الذى ما كنت أخاله فى تلك القارة المنبوذة النائية والتى لا نكاد نعلم من حقيقتها شيئا وحتى الأنجليز أنفسهم يخطئونها ويخاطبون ابناءها قائلين (You colonials) انتم لا تعرفون هذا ولم تتعلموا ذاك مع أنهم على جانب عظم من العلم والرقى . حدثنى استرالى عائد هو وزوجته من انجلترا عن جهل الأنجليز فقال بأنهم دعوا الى بيت وقدم الشاى والسكر المكنة (Loaves) فقالت لها ربة البيت هذا سكر ياسيدتى أظنك لم ترينه فى هذا الشكل من قبل ؟ قالت وكيف ؟ نحن الذين نصنعه ونرسله اليكم وكانت تسألها هل عندكم دور للسينما ؟ اليست استراليا

موطنا للسود ومصادا للكنجارو والأيمو ؟ تلك كل معلومات بعض الأنجليز عن استراليا ولذلك فهم ينظرون اليهم نظرة السيد للسود وقد أحس الأستراليون ذلك وتبرموا بموقفهم من أولئك السادة وللناس بعض الحق أن جهلوا الكثير عن تلك القارة فهى نائية عن العالم كله وأقرب الى أمريكا منها الى اوروبا . وملبورن فى نظرى خير من أغلب مدن اوروبا وأكاد أفضلها على لندن نفسها فأنك لاتجد فى أحيائها ما يعادل (Covent Garden & Liverpool Str.) قذارة واهمالا وان كانت دونها حجما . وهل كان يعتقد (John Batman) يوم أن وقف وسط رهط من (الابرجينيز) على ضفة نهر صغير كانوا يسمونه (Yarra Yarra) لأول مرة سنة ١٨٣٥ وقال ذاك مكان صالح لأقامة قرية صغيرة هل كان يخال ذلك الرجل أنها ستصبح بهذه الفخامة فى مدى مائة عام فلقد بدأت فى تلك السنة بأربعة عشر نفسا واليوم فاقت المليون من مجموع سكان فكتوريا

وهى ثانية بلاد استراليا بعد سدنى وخير البلاد الصناعية هنالك فيها ماينوف على خمسة الآف مصنع رأس مالها فوق خمسين مليون جنيه وتنتج من السلع ما يقدر بمائة مليون جنيه فى كل عام ولقد بدأت نغمة التفاخر بالسلع الأسترالية (Home Made) تكثر فى المتاجر المختلفة .

قمنا الى سدنى وبلاد ويلز وأخذ يسيربنا البيلوت المسافات الممدودة وسط ليات جون پورت فيليب الجميل ثم تركنا بعد ثلاث ساعات وأوغلنا فى المحيط نسير شرقا وكان الشاطىء يبدو الى يسارنا فى ربى وطيئة وجزائر عدة ثم اخترقنا مضيق بأس بين تسمانيا واستراليا ودخلنا المحيط الهادى الذى حقق لنا تسميته هذه ، فلقد ظل ماؤه هادئا ونسيمه عليلا وسماؤه مشمسة بعد أن سادنا ذاك الجو العكر فى نواحى جنوب استراليا وظل طيلة يوم الأربعاء فى هدوئه فاستبشر الجميع أنهم مقبلون على أيام هى خير مما سلف وجلهم سيغادر الباخرة فى سدنى باكورة صباح الخميس ٩ يوليو .



شكل (٢٥) اشتهر انسات فكتوريا بالرشاقة والجمال

سدنى — بدأت طلائع سدنى حوالى الساعة السادسة صباحا ووقفت بنا الباخرة تنتظر البيلوت ساعة ولما أن أقبل أخذت تشق طريقها مقبلة على (خليج جاكسون) بلياته العدة التى يوغل بها فى البر فى غير حصر وسط ربى وطيئة لانهائية تكسوها الخضرة من الأشجار الكثيفة والدغل الثقيل فى رواء يفوق كل وصف ، وقفنا نستجلى من آيات الطبيعة الرائعة ما أذهلنا واذا بنا ندخل تحت قنطرة دونها كل مارأيت فى بلاد العالم الأخرى حتى قناطر نيويورك ، تصل ما بين طرفى الميناء فى امتداد هائل وضخامة لا تحد وهى من معجزات فن الهندسة المعمارية فعلى الرغم من ضخامتها تراها معلقة ويمر بها من فوقها قطار سكة الحديد والترام والعربات والمارة كل فى جانب خاص ذات اليمين وذات الشمال ومن تحتها تمخر جميع البواخر مهما بلغ حجمها كى تدخل الميناء أو تخرج منها وهى مفخرة لأهل سدنى يباهون بها العالم أجمع فلا يكاد يكلمك أحدهم عن بلده حتى يقول هل رأيت (Sydney Bridge) وقد كلفهم بناؤه فوق عشرة ملايين من الجنيهات ، أخذنا نمر من جون الى آخر حتى رست بنا الباخرة وحللنا المدينة واذا بها تفوق فى نظرى جميع بلاد

أوروبا بل وأمريكا فى كل شيء فأحياؤها التجارية تمتد فى شوارع فسيحة متوازية طويلة من الميناء الى محطة سكة الحديد ثم تقطعها أخرى عرضية وجلها يسير به الترام الفاخر والاتوبيس وأغلبه من طابقين وتكاد حركة المرور تسد الطرق سدا ويظل الاطارين غشاء عريض من زجاج أو خزف بديع تحته أبواب المتاجر وقد مد أمام كل باب منها الاسم فى حروف كبيرة من نور يكون اغلبه أحمر أو أزرق يتلألأ صباح مساء، وعرض السلع فى نوافذ الأمكنة يدل على شيء كبير من حسن الذوق وجمال الفن، وذاك الحى الغاص يشبه ملبورن تماما الا فى أن شوارعه تعلو وتهبط فوق الربى والوهاد ومن المبانى كثير يفوق الدور الخامس عشر وحتى الفندق الذى حللته (Morris Hotel) فى شارع Pit به أربعة عشر دورا أما ضخامة الابنية ووجاهتها فحدث عنها وبخاصة دور البنوك والشركات الكبرى وهم لا يعرفون تلك الأبنية بنمرها بل كل عمارة تحمل اسما خاصا مثل Sydney House و Union House . أودعت حقائبى ذلك النزل الجميل وأجره ستة شلنات فى اليوم أعنى أربعة وعشرين قرشا وبعد أن تفقدت خريطة المدينة وتسلمت عددا لا يحصى من المطبوعات المصورة عن نواحى الجمال فيها قصدت توا الى دار السياحة : Govern. Tourist Bureau وتلك ادارة حكومية نافعة لها فروعها فى جميع بلاد استراليا وتؤدى خدمات عظيمة للسائحين من جهة أخرى فلا يكاد قطار أو سفينة تصل بلدا من بلادهم حتى ترى مندوبى ذاك المكتب يقدمون لك أكداسا من المطبوعات والخرائط التى تتجلى بها بدائع بلادهم ويرشدك الدليل الى كل شيء طلبت بدون مقابل وهم يرتبون سياحات داخلية مختلفة لها أسعارها الثابتة وفى مواعيد مقررة كل يوم بعضها بالسكة الحديدية والبعض بالبواخر والغالب بالسيارات الفاخرة البديعة. وجل وسائل النقل هناك ملك للدولة (سكة الحديد والاتوبيس والترام وقطر تحت الأرض والسابحات الصغيرة وحتى جانب كبير من عربات التاكسى).

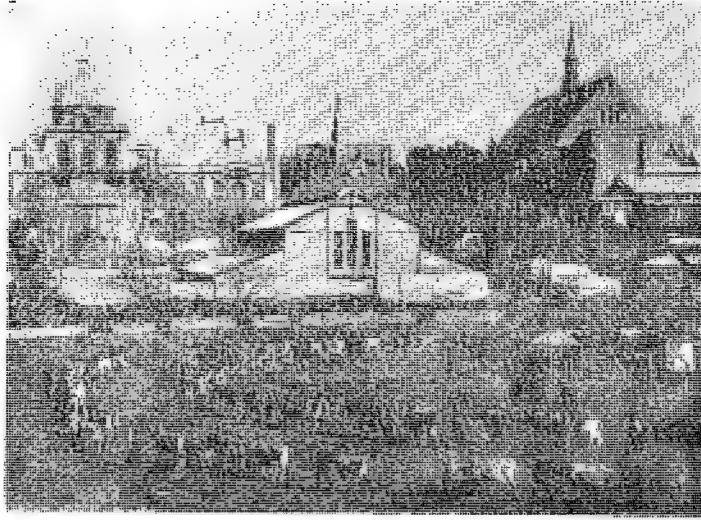


شكل (٢٦) بيت الـكابتن كوك يتخذ متحفا لمخلفاته فى ملبورن

والحكومة هناك تنزع إلى الاشتراكية لأنها تكاد تملك كل شىء وتساهم فى أغلب العمار والأراضى والغابات وجل المنشآت الكبيرة لها وبخاصة البيوت المالية والتعليم والمواصلات وكثيراً من النزل والمطاعم. ساهمت فى كثير من السياحات التى يقومون بها مقابل قيم معقولة وبدأت بالسياحة فى المدينة وما جاورها فطافت بنا السيارات زهاء ثلاث ساعات مقابل خمسة وعشرين قرشاً والدليل يلفت أنظارنا إلى الجهات الهامة ويشرح ما خفى عنا من أمرها وسدنى بحكم توغل البحر فيها بزوائده العديدة لم تكن

محصورة فى رقعة واحدة بل ترى نواحيها مبعثرة هنا وهناك وشوارعها تعلو وتهبط وتتلوى كثيراً وقد يبلغ من انحدار الطرق أن تزيد الزاوية على خمس وأربعين درجة وذاك فى نظرى زاد المدينة جمالا ، أما فى مبلورن فالبلدة مسطحة محصورة فى حيز محدود ويقولون بأن ملبورن أكثر وجاهة وتمثيلا للأرستقراطية من سدنى وكذلك أهلها أكثر تمسكا بقواعد الاتيكيت واللياقة إلى أقصى حد فهل تستطيع أن تجتاز الشارع من وسطه أو تسير فى هندام غير منسجم أو تخلع عنك القبعة وتسير عارى الرأس ؟ ان فعلت ذلك تعرضت للنقد الشديد ، والبلدان يتنافسان وتدعى كل منهما حق الأولوية فى أن تكون عاصمة استراليا . وهل تستطيع وأنت فى سدنى أن تتكلم عن ملبورن أو العكس فهم لا يحبون الا الاطناب كل فى بلده وسرعان ما يسألك أحدهم كيف رأيت ملبورن أهى خير من سدنى فان قلت نعم آلمته كثيراً . وتلك المنافسة الحادة بين البلدين هى التى حدت بهم إلى تخير العاصمة فى بلد انشىء بينهما هو (كانبيرا) رغم عدم لياقته لذلك مطلقا . استرعى نظرى روعة الشوارع وضخامة المبانى والاسراف فى تجميلها بالمرمر البراق والعلو الشامخ فى قلب المدينة أما فى أطرافها حيث مساكن القوم فالبيوت فيلات من طابق واحد أو اثنين على الأكثر ولا تكاد ترى بيتين متشابهين فى الهندسة وحول كل منها متسع للحديقة التى تعوزها المزروعات والزهور والأشجار فجلهم يتركونها أرضاً يكسوها الكلأ المشذب ويكاد كل واحد هناك يمتلك بيته ولا تكاد تجد واحد الا يمتلك سيارته لذلك كان تزاحمها فى الطرق كثيفاً جداً . طفت بتلك الأحياء التى تقوم بيوتها الأنيقة فوق الربى وتنحدر إلى البحر ويحوطها بين هذا وذاك شجر الصمغ (اليوكالبتس) الذى لا يكاد يخلو منه مكان فى البلاد كلها من سهل وجبل وكم راقتنى نواحيها الرملية (Beaches) خصوصاً Bondi و Manly و Coogee

وتقوم عليها حمامات السباحة البديعة ومن الشواطىء ما هو صخرى



(شكل ٢٧) معرض الابقار فى أدليد .

مشرف فى علو شاهق وتغضن مخيف تضرب فيه موجات المحيط الهادى فى شدة ساعة أن تقذف بها الرياح الغربية فيعلو رشاشها الى عنان السماء ومن تلك الشواطىء القاسية ما أحاطته الدولة بأسوار عالية لأن كثيرا منها كان يتخذ مقذفا لراغبى الانتحار وهؤلاء فى البلاد كثيرون فلا يكاد يمر يوم لا تسمع فيه بحادثة انتحار وحتى (قنطرة سدنى) الجديدة بعد أن تم بناؤها أخذ المنتحرون يفضلونها على غيرها فاضطرت الدولة الى رفع الجوانب وتزويدها بالشباك الشائكة ، ونزعة الانتحار هذه يرجع بعضها الى المرض والأغلب للفقر فالبلاد مستوى العيش فيها مرتفع وجل الناس يبدو عليهم الغنى واليسار وحاجياتهم عدة لا تقف عند حد وحتى الأجراء يتقاضون رواتب كبيرة فلا ينقص دخل العامل عن نصف جنيه فى اليوم ولذلك عرفت استراليا بأن الأجور فيها مرهقة تفوق حتى تلك التى فى أمريكا لذلك سارع القوم بالانتحار اذا أمضتهم طول البطالة . جلست الى مائدة الطعام فى النزل الى جوار شباب خفيف الروح أخذ يتحدث الى واذا به سورى

حل هو وأخوته منذ خمس سنين وهو يشتغل بالتجارة وقد قال لى بأن مجيئه الى استراليا كان حظا سعيداً إذ شتان بين دخله هو وعائلته فى بلاد الشام وبين ما يكسب هنا فالمال فى استراليا متوفر جدا للرجل المجد النشيط وهم يعيشون فى قريةداخل سدنى وهو يتردد على العاصمة كل أسبوع ، وللسوريين والأغريق أندية كثيرة فى سدنى دعانى الى أحدها وتناولت الطعام الشرقى البديع وقد لازمنى اليومين الأولين واستفدت من خبرته هناك كثيرا ولم كانت دهشتى من جرأته وبخاصة فى أمر مخاطبة النساء ومسامرتهن ، ونساء استراليا أعطين نصيبا من الحرية لا يحد فليس للأبوين على الفتاة سلطان قط وهن على جانب كبير من الجمـــال والرشاقة وخفة الروح يسرعن بالاختلاط والمعاشرة فى غير تحرج الا أن فيهن شيئا كثيرا من الخجل ولا يبدو عليهن شيء من الفجور الذى تلمسه فى نساء أوروبا مثلا . وأنت لا ترى الكثير منهن يقف على نواصى الطرق متسكعا فى الكثرة المزرية التى كنت أراها فى البلاد الأوربية فالمتبذلات هناك قليلات جدا وليس فى البلاد دور للفجور وما الداعى لذلك والبلاد معروفة بمجاوزة الحد فى الحرية يأتى الواحد ما يريد فى غير رقيب اللهم الا اذا صحب ذلك اعتداء على كائن من كان . وأول ما يسترعى نظر الزائرين المتسعات الهائلة من الارض التى يخصص بعضها للمتنزهات والبعض للملاعب الرياضية . ولعل الاستراليين أكثر أهل الأرض ولوعا بالرياضة على اختلاف أنواعها فأنديتها لا تكاد تغيب عن العين حتى فى الريف وكل استرالى عضو فى واحد أو اثنين منها على الأقل والبعض يساهم فى الاشتراك فى ثمانية نواد معا ، وأحب الألعاب لديهم جميعا الجلف ثم التنس ، وإن لعبوا (كرة القدم والهوكى) كثيرا وهل هناك استرالى واحد لا يلعبها ؛ أما المساهمة فى سباق الخيل فأمر قد جاوز بهم الحد فهم يقامرون عليها بكل شيء ، والاستراليون من أكثر أهل الأرض ميلا للمغامرة على اختلافها . ومن المتنزهات التى تتوسط المدينة (Hyde Park)

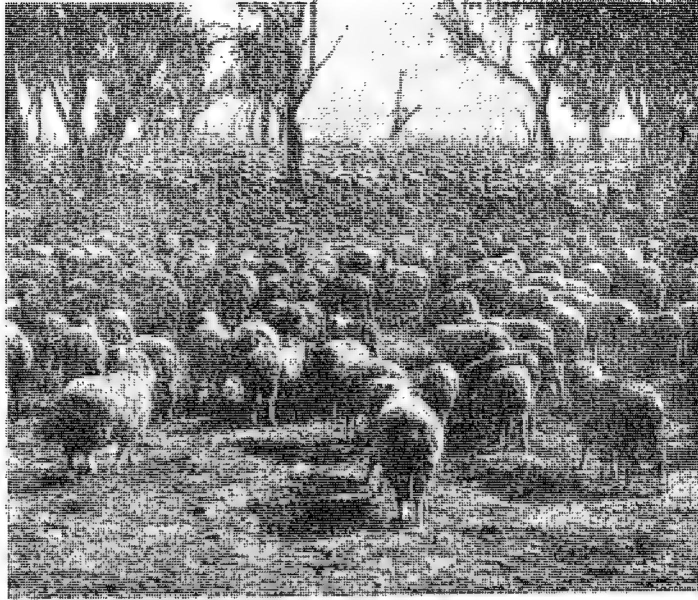


شكل (٢٨) الاغنام عند حظائر الجز فى استراليا

نسق خير تنسيق فهو يفوق جمالا (هايد بارك لندن) لكنه أصغر وأقل شجرا . وتقوم وسطه النافورات البديعة والتماثيل ومن بينها تمثال للكابتن كوك كاشف استراليا وفى جانب منه ذكرى الحرب (War Memorial) فى مدرج رباعى عليه شبه قبة مربعة هرمية تطل من دائرة وسطها على تمثال لجندى قتيل عارى الجسد استلق على عمود تحته السنة لنيران مندلعة وقد كتب حولهم اسماء البلاد التى ساهموا فيها بأرواحهم .

ساهمت فى رحلة المغارات والجبل الأزرق The Blue Montains & Jenolan Caves وقد استغرقت يومين وتكلفت زهاء ثلاثة جنيهات . قامت بنا السيارات تشق ضواحى سدنى وكلها نظيف جميل البنيان ثم أوغلنا فى سهل يسمونه .Emu Plain لكثرة ما كان يؤمه من نعام استراليا قديما ويقسم جلها الى (زرابى) للأغنام أو الماشية ويسورها أهلها بأسلاك تصلها قوائم

خشبية وحيث تكثر الفيران والأرانب تسد بشباك السلك سدا محكما — ولا تزال الأرانب تتلف جانبا كبيرا من المزارع هناك — ثم أخذنا نعلو جوانب الجبال الزرقاء فزادت كثافة الشجر وكله من أشجار الأوكالبتس المختلفة وبعضها (Wattle) وكان كثير منها يغص بحيوان الكنجارو يقفز هنا وهناك فى كثرة هائلة ومنه أنواع أخرى أضعف ذنبا وأقصر قامة وأغبر لونا بعضها يسمى Wallabies والبعض Wallaries وفوق الشجر كنا نرى جموع حيوان الدب الاسترالى Native Bear أو Koalas فى وجهه العريض ووبره الناعم وجسده السمين يقرض طوال الوقت ورق شجر الكافور فى شهية تسترعى الانظار وذلك غذاؤه الوحيد ، وهو من ذوات الجيب كاغلب حيوانات استراليا . ولبثنا نمر فى الوهاد بالقرى البديعة تسيل حولها مجارى الماء ويحفها الشجر الكثيف حتى مررنا بأكبرها (Katoomba) وهناك تناولنا الغذاء فى مطعم فاخر للسكة الحديدية ثم واصلنا سيرنا ونحن نعلو تدريجا فى تلك الطرق الملتوية البديعة حتى وصلنا أعلى بقعة (٤٢٠٠ قدم) واينما نظرت الى الجبال وجوانبها بدت زرقاء يفوق لونها لون السماء زرقة وذلك ناشىء من بخار أو شبه دخان خفيف يعم أرجاءها ويكسبها ذاك اللون الذى من أجله سميت Blue Mounts . أخيرا بعد أن قطعنا زهاء ١٣٥ ميلا دخلنا مناطق المغارات عنـــد الغروب . هناك آوينا الى فندق حكومى (Chateau) وسط الجبال الشاهقة فأذكرنى ببلاد سويسرا فى كل شىء إلا أن ذرى الجبال هنا لا تكسوها الثلوج . وبعد العشاء دخلنا احدى المغارات (وتسمى Left Imperial) يتقدمنا دليل سار بنا فى سراديب الصخر مسافات طويلة ثم بدأت المغارة نفسها فلبثنا نسير داخلها زهاء ساعتين نتنقل من تجويف هائل فى الصخر الى غيره تتدلى من سقوفه زوائد الصخر المتبلور فى أشكال مدهشة وألوان عدة (Stalagtites) وكان يزيدها روعة نظام تسليط الضوء الكهربائى عليها من جهات عدة فى اسراف كبير ومن الارض كانت



شكل (٢٩) أغنام المرينو ذات الاصواف الناعمة

تقوم الصاعدات (Stalagmites) العجيبة ومن تلك الظواهر ماكان يبدو أبرا مدببة أو كتلا مجزعة أو شرفات لها أهداب كأنها الشيلان يسمونها (Shawls) فى بلورات صافية البياض أو مزركشة بالحمرة التى أكسبها اياها اكسيد الحديد والبعض كان يرى كأنة شعاب المرجان وبين هذا كنا نرى بحيرات يملؤها الماء وبعضها كان يتصل بنهيرات باطنية كنا نسمع دوى الماء الدافق فيها . وفى صباح اليوم الثانى دخلنا مغارة أخرى يسمونها (Orient) عدد درجاتها ١٦٠٠ سلما بعضها يعلو بنا الى السماء والبعض يهوى الى الأعماق وقد لبثنا داخلها ثلاث ساعات نستجلى بدائعها ومعجزات القدرة الالهية فيها وقد حملت هذا الأسم لأن بها ثلاث حجرات Persian, Egyptian, Indian Chambers. ففى الهندية تبدو مجموعة الصاعدات والداليات كأنها باجودا بودا أو معابد الهندوس وفى الفارسية قبة هائلة حولها بعض المآذن والنقوش

التى بدت فارسية وفى المصرية تبدو الصاعدات كأنها الجثث الفرعونية المحنطة خصوصا اذا ما أطفئت أغلب الاضواء ، وهم يتقاضون أجورا كبيرة على دخول تلك المغارات ومتوسط أجر الواحدة خمسة شلنات أعنى عشرين قرشا وعددها أحدى عشرة مغارة لكل منها اسم خاص . وتلك المغارات تحمل اسما استراليا قديما abriginal معناه مغارات الجبال العالية وقد كشفها Charles Whalan سنة ١٨٣٨ وهو يتعقب لصوصا سرقوا بعض الماشية فوجدهم يأوون الى تلك المغارات وكثيرا ماكان يهاجم أولئك اللصوص قوافل الذهب وقطعان الماشية والأغنام فى تلك الجبال وهى سائرة من الشرق الى الغرب والعكس .

ولقد أوقفت الحكومة خمسة أميال حول تلك المنطقة حرم فيها الصيد أو البناء أو الملك (A Reserve) لذلك زادت فيها كثافة الغابات وأضحت مأوى آمنا لمختلف الحيوان وكنا نرى طوال الطريق جحور الكنجارو والولابى والولارى والكوالا وبعض الولابى كان يفد الينا من جوار المغارات آمنا وديعا ومن الطيور شىء لا يدخل تحت حصر وأجملها فى نظرى الببغاء الاسترالى بألوانه البديعة وكنا نطعمه الخبز والزبد من نوافذ المطعم فى النزل . أخذنا نسير حول المغارات بعد استيعاب اثنين منها صعودا فوق الربى كثيفة الشجر وعرة المسالك وكان البرد قارسا حتى أن الصقيع كان يكسو المقاعد ويعم ورق النبات فى أغشية رقيقة بيضاء محببة وقد راقنى من النبات شجر السرخس الكبير بورقه الذى يحكى زغب الريش وكان معى رهط من النساء والرجال وفدوا من بلاد ملبورن وأدليد وپرث وكانوا على جانب كبير من كرم الطبع وحب المعاشرة والأدب الجم حتى أنى أصبحت واحدا منهم ، وقد أعطونى عناوينهم وأصروا أن أزورهم فى بلادهم وكم راقهم حديث عن بلاد استراليا وما وصلت اليه من رقى وكمال يفوق كثيرا من بلاد العالم المتمدين .



شكل (٣٠) يجز الصوف بالآلات لكثرته

عدت الى المنزل واذا بأشارة تليفونية تطلبنى أتكلم مع المستر (Ward) وزوجته فى بيته وذلك أحد رفقاء الباخرة كان فى رحلة حول العالم وعاد عن طريق قناة السويس وهو مندوب عن مصنع كبير فى سدنى اسمه (David Jones) وجل مهمته أن يتفقد نظام (تفصيل أردية الرجال) فى جميع البلاد ولما أن حادثته فى التليفون قال بأنه سيجىء بعربته ليطوف بى أرجاء سدنى ثم نتناول العشاء فى منزله وحاولت أن أعتذر فلم أفلح ولقد لبث ينتقل بى من ناحية الى أخرى ثم قصدنا الدار واذا بجمع من أقربائه يرحبون بى وقد أصروا أن ارافقهم غدا الأحد فى تمضية بحابة النهار خارج المنزل وقد كنت ضيفهم طوال اليوم وموضع رعايتهم وكرمهم ، ولما ودعتهم قالوا بأنهم سيرونني قبل سفرى وفى مساء الثلاثاء ، دعونى لتناول العشاء للمرة الثانية فأدهشنى ذاك الكرم والظرف النادر الذى يلاحظه الانسان ملموسا فى جميع سكان استراليا ، وحب المعاشرة والافراط فى الكرم من ألزم صفاتهم .

ثم كانت زيارتى لحديقة الحيوانات فى حى (Taronga Park) ركبت

لها سابحة مائية (Ferry) والسابحات عديدة تصل ما بين أطراف الميناء العـــديدة فى بواخر صغيرة فاخرة تقوم كل نصف ساعة وبأجر ثلاثة بنسات أى (قرش صاغ) تلق بالقطعة فى الصندوق فيدوربك المدخل الى السابحة . صعدت تلك الربى ودخلت الحديقة فراقنى حسن تنسيقها من ربوة لأخرى وهم يلاحظون فى حظائر الحيوان أن تكون ملائمة لبيئة الحيوان وأن يحمل المدخل اليها بعض هندسة البلاد التى تفد منها وهم يكتبون لوحة تفسر كثيرا من صفات الحيوان وبيئته ويشفعونها بخريطة يظلل فيها الجزء الذى يقطنه الحيوان . والحديقة غنية بالطيور وذوات الجيب ومما راقنى بها القرد الأشقر (Alibnoe) ناصع البيــاض جيء به من الملايو ، والحصان البرى قصير القـــامة هادل الشعر كبير الرأس جدا والدب الاسترالى (Native Bear أو Koala) فى جسده السمين ولونه الأغبر وجمجمته الكبيرة يعلق بأطراف الشجر ويأكل ورق الكافور . وبيت السباع هناك شـــبه مغارات عميقة يقوم حولها سور قصير من حديد وهى ليست مسقوفة فيخيل اليك بأنها طليقة . ومنظر الميناء بزوائده العـدة يبدو رائعا من أية بقعة فى الحديقة نظرت ، على أن الحديقـة فى مجموعها صغيرة فقيرة فى طوائف الحيوان وحديقة القاهرة فى نظرى تفوقها كثيرا .

قصدت زيارة خليج بتانى (Botany Bay) أول مكان رسا به (Captain Cook) فى تلك البلاد فركبت له الترام أربعين دقيقـة وجزء كبير من الأرض التى قطعناها برى مهمل (bush) وأخيرا وصلنا الى محطة يسمونها (لابروز Laperouse) على اسم الفرنسى الذى احتلها كأول انسان ابيض عقب كوك مباشرة وكان يعتزم ضمها لفرنسا ، ولقـد رأينا مقبرة قسيس لابروز مشرفة على الماء هناك وهو أول أبيض دفن فى استراليا كلها ، وركبنا سابحة مائية الى الشاطىء المقـابل الذى نزل به الكابتن كوك وقد أقاموا له هناك نصبا تذكاريا يحج إليـه الجميع معترفين بفضله عليهم إذ أمدهم بتلك

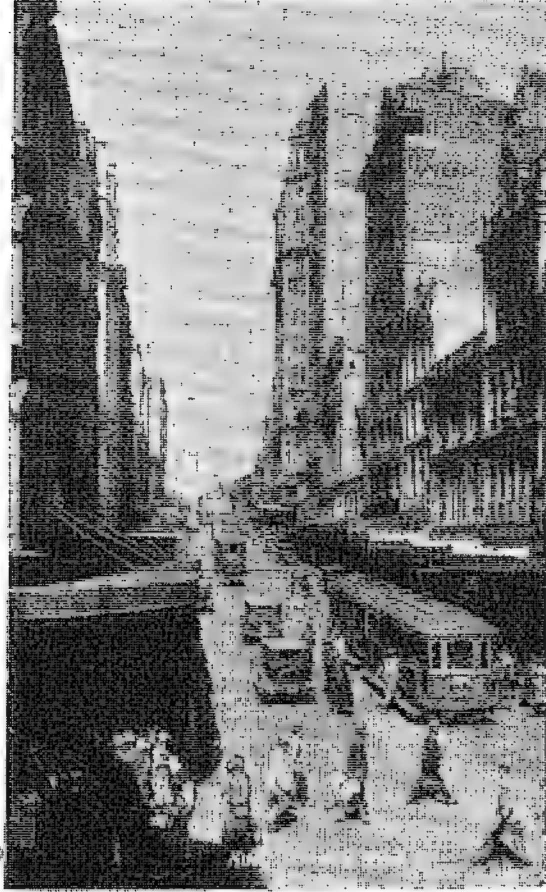


شكل (٣١) الخبراء يفرزون صنوف الصوف للتصدير

القارة الفتية الغنية ولقد استرعى نظرى فى تلك الناحية كثير من الوجوه السمراء والسحن الهمجية الغريبة وهم بقية من سكان استراليا الأصليين (Aboriginals) لا يزال منهم زهاء ستين نفسا قد نسوا لغتهم الأصلية ويتكلمون لهجة إنجليزية رديئة جدا ويشتغل جلهم بصناعة الأسلحة القديمة وبخاصة (البوميرانج boomerang) الذى يعرضونه للسائحين ولم دهشت لما رأيت كل واحد ينتحى جانبا من الأرض ويلقى (بالبوميرانج) أمام الناس وهو قطعة خشب معوجة مسطحة من جانب مقببة من الآخر والعجيب أنه يقذف بها إلى الجو فى غير شدة فتخرج كالسهم النفاذ يدور فى السماء دورة أو اثنتين ثم يعود فيسقط عند قدمى الرجل الذى ألقاه ، ولقد حاولت أن أتعلم طريقة رميه ولبث الرجل يرشدنى إليها زهاء نصف ساعة وقد كدت أنجح وشريت منه واحدا بشلن . وذلك السلاح لصيد الطيور والحيوانات الصغيرة ومنه نوع كبير للقتل (Dead boomerang) من خشب ثقيل جدا إذا أصاب قتل ، وأعجب ما فى (البوميرانج) أنه إن أصاب لم يرجع إلى صاحبه وإن خاب

عاد تحت قدميه تماما ، وكان لمنظر أولئك الناس وهم يلقون بأسلحتهم أمامنا لذة كبيرة وتقدير الكفاية الانسان حتى فى أحط اطوار همجيته .

ومن السكان الاصليين عدد يقارب ستين ألفاً يتفرق جلهم فى الصحارى الداخلية وغابات الشمال ولا تزال منهم بقية من أكلة لحوم البشر ويعيشون إلى اليوم فى عصر لا يزيد على سكان العصر الحجرى وكانوا يعيشون بحالتهم هذه منذ مائتى ألف عام . وهم أحط أجناس البشر عقولا وسحنهم منفرة وليسوا على استعداد للتقدم أبداً فهم يعيشون على صيد الحيوان وجمع بيض الطيور من أوكارها فوق الشجر ومن أحب الأطعمة لديهم النمل ولكى يربوه يقتلون عدواً لهم ويدفنونه فيجتمع النمل حول جثته وعندئذ يجمعون النمل ليأكلوه ويعدون طعاما محبوبا من أعشاش الطير يكسرونها وينقعونها فى الماء بأوساخها ونملها ثم يسحق ذلك فى الماء فيكون شراباً حمضى المذاق لذيذاً عندهم . ويتزوج الرجل منهم من أى عدد شاء من النساء ما دام قادراً هو وأصدقاؤه على تقديم الهدايا ولما كان ذلك يستطيعه الطاعنون فى السن من الرجال دون الشبان لم يبق من الفتيات من يكفى لزواج الشباب وذلك قد أضعف النسل وأنقصه . إلى ذلك فأنهم يئدون البنات غالباً لذلك إنحدر جنسهم إلى طريق الفناء رغم محاولة الدولة الابقاء عليهم وتحسين مستواهم . والغابات التى يحلونها لا تكاد تخترق لما يحفها من أخطار الحيوان وبخاصة الأفاعى وحتى الشجر نفسه قاتل مميت فهناك تسود الشجرة اللادغة (Stinging tree) فمن لمس ورقها العريض تسمم وظل يقاسى آلاماً شديدة . وهناك من الفراش الكهربائى ما إذا لمسته شعرت بهزة عنيفة خطيرة لذلك لا يزال كثير من جهاتها مجهولا بمن فيه من وحوش وإنسان وتشكل الدولة لجاناً وبعوثاً تقوم ببحث حال أولئك وأعداد الوسائل التى بها يبقون على ذاك الجنس الذى ظل منحطاً بسبب طول عزلته حتى أن البحث لم يكشف عن أى أثر لمدنية قديمة فى أستراليا كلها وهو



شكل(٣٢) شارع كنج فى سدنى

فى جمجمته وعظام أطرافه يشبه إنسان أوروبا أبان عصر الجليد . وهم نصف عرايا شعرهم كث على لحاهم كثيف فوق جسومهم يحبون الوشم ويعتقدون فى السحر ومحاربوهم ينقشون أجسادهم ويخرقون آذانهم وأنوفهم بالأسلحة ويشعلون النار بحك قطع الخشب بعضها ببعض ويجدلون من شعورهم حبالا لربط سلاحهم من البوميرانج والقسى والحراب . وقد يصل طول الواحد منهم ست أقدام والذين يقطنون منهم بكوينزلند واستراليا الوسطى بدأوا يتصلون بالجنس الأبيض ويأنسون إليه وقد حارب منهم

كثير إلى جانب الحلفاء فى الحرب العظمى فى ميادين فرنسا .

وتعد استراليا بسببهم متحف الأجناس القديمة إذ فيهم يجد العلماء مجالا كبيراً للبحث عن أصول الآدميين ومن أشهر قبائلهم : Arunta و Warramunga و Binbinga و Kamilioi . ولغتهم تحكى أصوات الحيوان يكررونها مئات المرات بنغمة موحدة مملة . واذا خالف أحدهم أوامر السحرة كأن يأكل طعاما شهيا حرم عليه كشحم الأيمو ولحم الكانجارو غذاء الزعماء عوقب بفقء عيونه وبعدم أطلاق لحيته — واطلاق اللحى شعار الاحترام عندهم . ومن أعجب عاداتهم الحداد والنحيب على المتوفى فتراهم يصيحون صيحات منكرة عالية وبيد كل منهم مضرب أو حربة يضربون بها أجساد بعضهم ضربا مبرحا ولا يتألم لذلك أو يحاول تجنب تلك الصدمات ثم تشعل نار وهم حولها يهرولون ودماؤهم تسيل من أجسادهم ثم تحمل الجثة فوق شجرة وينزع اللحم عنها ويكسر أخ الفقيد العظام ثم تدفن فى جحر تحت الأرض .

ومن أقسى عاداتهم أن الغلام اذا شب خضع لصنوف من التعذيب أربعة عشر أسبوعا وفى نهايتها يرمى فوق نار يزاد لهيبها تدريجا والغلام يتلوى فوقها بسرعة لكى يتجنب خطرها فاذا استقر فوقها عشر دقائق عد رجلا وزين باشرطة من جلود الكانجارو . والموت عندهم نتيجة لتأثير سحر صدر من شخص آخر لا يزالون يبحثون عنه لينتقموا منه

عدت إلى قلب المدينة أسير بين جدرانها الفاخرة وحركتها الصاخبة أدخل ذاك البناء وأصعد غيره واختلف إلى بعض متاجرها البديعة ومصارفها الغنية فكان يذهلنى ميلهم الى الوجاهة وشديد اسرافهم فى تموين أبنيتهم بأحدث الوسائل وأجملها ، ترى البناء براقا بولغ فى نقشه وتجميله حتى بدا بناء بنك مصر على وجاهته لا يذكر إلى جانب تلك المبانى فعجبت لمظاهر الغنى واليسار البادية فى كل شىء . ولقد سألت عن الأحياء الفقيرة (Slum)



شكل (٣٣) فى أرض جامعة سدنى

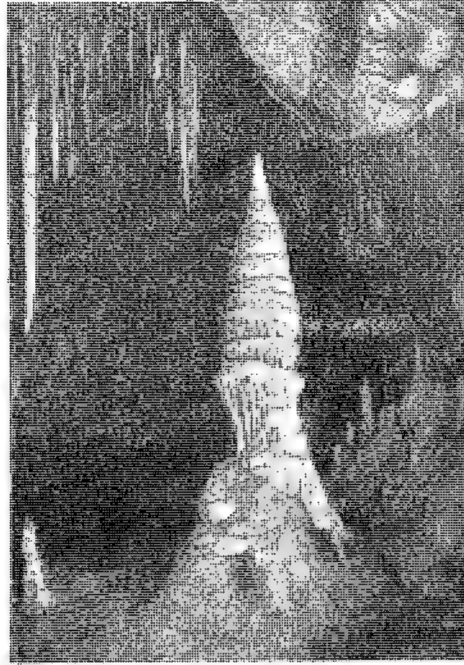
فأرشدونى إلى بعضها وإذا بها بيوت صغيرة نظيفة جدا هى أقدم الأحياء ليس غير ولا توحى بالفقر أو القذارة أبدا ، على أنه رغم ذلك تجد فى المدينة زهاء أربعين ألفا من العاطلين يمهرون معاشا هو شلن كل يوم على أن نقابة العمال تحاول توظيف الجميع كل بدوره ولو إلى حين ، والعمال هناك متمتعون بحقوق كثيرة يندر وجودها فى الخارج فلايجوز لرب المصنع أن يطرد أحدهم إلا بأذن من النقابة ولا يستطيع توظيف أحد فهو يطلب النوع الذى يريد والنقابة ترسله وتفرض له الأجر. والمصنع أو المتجر يمهد للعمال شراء منتوجاته بنفقات الانتاج ليس غير ويخولهم متسعاً من الوقت لتناول شاى الصباح (العاشرة صباحاً ربع ساعة) والغداء (ساعة) ولا يصح لعامل أن يشتغل بعد الساعة الخامسة إلا بأجر مضاعف . لذلك كان كل الناس متيسرين وساهم فى بنوك التوفير ٤٫٧٤٨٫٤٠٠ من مجموع السكان البالغ ٦½ مليوناً وقد دل الاحصاء أن لكل فرد فى استراليا ودائع

فى البنك تبلغ ٤٤ جنيها على الأقل . ولا عجب فالبلاد فتية وغنية الموارد وأهلها قليلون والطلب الخارجى على خاماتهم الكثيرة يتزايد كل يوم . على أنها رغم ذلك لم تخل من المتسولين، وجلهم من مدمنى الخمر أو العاطلين وبعضهم يسير فى الطرق عازفا على مزماره أو (كما نجته) مستجديا ، لكن عدد أولئك قليل جدا وفوارق الطبقــــات غير موجودة رغم ميل الكثير منهم للوجاهة والظهور فانت تعامل الخادم أو الخادمة وكأنه من عائلتك فترى العامل يغنى ويلهو أمام سيده وقد يشاطره السيد ذلك السمر واللهو ، وكم لاحظت من العمال فى هندامهم غير النظيف يركب الترام إلى جوار سيدات ممن بدا عليهن اليسار فيفسحن لهم المكان ويبتسمن لهم ويكلمنهم على قدم المساواة وفى غير تأفف أو اشمئزاز . وسرعان ما يجاذبك الناس أطراف الحديث حيث كنت ويسألونك كيف رأيت بلادهم . ثم يقولون هل لاحظت مدى الحرية التى يتمتع بها الناس هنا جميعا . تلك (Free Country) ليس لأحد قبل الغير سلطان قط فنحن أحرار تتصرف كيفما شئنا دون أن يتدخل فى أمرنا أحد . ومن المظاهر العجيبة التى استرعت نظرى طائفة المبشرين الذين يسيرون بعربات كبيرة زودت بمكبرات الصوت وديناموالكهرباء والأضواء ويقفون على نواصى الطرق يبشرون بالمسيح والمسيحية وكنت أرى الناس وقوفا حول المبشر بعضهم منصت والبعض ساخر والرجل يقول : المسيح الذى ضحى بنفسه من أجلنا كيف لا نؤمن به (Lose faith in kim) فصاح رجل من المستمعين قائلا : ولم لم يرفع عنا الخطايا دون أن يلجأ إلى تعذيب نفسه ؟ وكيف يموت وهو Supreme being أنا لا أعتقد فى وجوده ،وآخر قال : هل تعلم ما كان لون آدم وحواء (Adam & Eve) وثالث قال قبل أن يولد المسيح هل لم يكن هناك عالم موجود ؟ وكيف خلق المسيح هذا الكون ومتى ؟ فكان المبشر يتهرب من الأسئلة ويقول هاكم الانجيل يقول لقد خلقت العالم وقلت له كن فكان ! وكان جلهم يبدو متبرما غير مصدق ،



والعجب أنهم لا يتعرضون لبعضهم فكل منهم يبدى رأيه فى حرية دون اعتراض وقد تناقش عجوزان فى الأمر واحتدم الجدال بينهما وأخيرا مد أحدهما يده للآخر قائلا: Well Shake hands friend والقوم غير متعصبين ولا يؤمون الكنائس إلا نادرا ويخيل إلى أن تلك النزعة التى تباعد بينهم وبين الدين هى التى حدت بالقسس وأرباب الكنائس أن يخشوا على مستقبلهم فنشطوا بتلك الدعاية وشجعوا طائفة من الناس أسموهم جيش الخلاص (Salvation Army) من الشبان والفتيات يلبسون أردية خاصة ويطوفون بالشوارع وقد شاهدت حلقة منهم نصفها من البنات والنصف من الشبان يغنون ويطبلون بالدفوف ويلعبن ويدرن على تلك الأنغام ثم يقفن ويتقدم واحد ويقف على كرسى ويحدث المستمعين حديثا أساسه الايمان ووجوب التمسك به Faith in Jesus ومظهر الديموقراطية يبدو فى كل شىء حتى فى المطاعم فترى المطعم الرخيص إلى جانب الارستقراطى كثير النفقات وإذا دخلت الأول رأيت به العامل بملابسه القذرة إلى جوار المتأنق الوجيه من الناس وتعجب لرخص الطعام فى تلك المطاعم فبعضها يعطى الوجبة ذات الصنفين (Two Course Meal) بقرشين، وذات الثلاثة Three Course Meal بسبعة بنسات أى أربعة وعشرين مليما ويتبع ذلك الخبز والزبد والشاى غالبا أو القهوة ، كذلك النزل ترى الفندق يعلن عن الغرفة بشلن ونصف وإلى جواره آخر يعلن عنها بثمانية شلنات أو يزيد ولا تكاد تعرف الفقير إلا بلهجته الغامضة وهو يستخدم كثيرا من الكلمات الدارجة (Slang) ويمعن فى الحديث عن طريق الأنف ويزيد الكلمات لفاً وعوجا حتى لا يكاد يفهم . ومما استرى نظرى بعض الكلمات العربية مثل ما فيش وامشى (Mafeesh و Imshee) بمعنى (لا شىء واذهب) وكثير منها يرجع إلى السكان الأصليين ولا تزال أسماء البـــلاد والأنهار وما إليها تشعر بذلك مثل : بلدة Katumba ، وناحية Wallamaloo و Tarra Murra ومن الجهات الجديرة بالزيارة : المتحف

الذى زرته — والدخول إليه مباح بغير أجر للجميع — فكانت معروضاته حيوانات محنطة ، وهيا كل عظيمة لحيوانات العصر الحاضر والبائد وبخاصة



(شكل ٣٥) الداليات والصاعدات فى مغارات جنولان فى الجبال الزرقاء

الأسماك ثم قسم جيولوجى به جل المعادن والصخور .

ويقتصر القسم التاريخى على مجاميع من أسلحة سكان جزائر المحيط الهادى وأدواتهم وكذلك مخلفات الاستراليين الأقدمين (aboriginals) وقد استرعى نظرى فى هذا القسم شعار الحزن من حزمة من نثير جذع بعض الشجر يلبسه رجل أخرس ثم يأ كل قطعة من الجثة لتهديه إلى تعرف المتسبب فى الموت ويدل هذا الرجل عليه ثم نعش القتيل وهو اسطوانة أصلها شجرة منقورة قطرها قدم تحشر بها عظام الفقيد بعد أن ينزعوا عنها اللحم كله ويطبخ هذا اللحم ويقدم للزائرين والمقربين ليأ كلوه أما أقرباؤه فلا يقربونه ،

وكان بعض تلك النعوش يعرض بعد كسره واظهار العظام منه . ثم قسم صغير جداً مصرى به جثتان ملفوفتان فى كفنهما وداخل توابيتهما يرجع زمنهما إلى ما بين ٦٠٠ و ٣٠٠ ق.م . ثم عدة رءوس محنطة من الأسرة الخامسة . ثم قليل من الواح بابل الطينية . وفى ناحية مخلفات الكبتن كوك وبعضها من أجهزته ومتاعه والبعض مما جمع من مخلفات أهل جزائر المحيط الهادى . وقد راقنى فى قسم الحيوان المحنط كانجارو عملاق يفوق الزرافة طولا وكان يعيش هناك وانقرض اليوم ثم أنواع لاحصر لها من ذوات الجيب وحيوان البلاتبوس (ذو المنقار البطى) ثم الطائر القيثارى (lyre) وهو أسود فى حجم الدجاجة الكبيرة وله ذنب ريشه طويل وله زغب خفيف كريش النعام ومن وراء هذا ريشتان منقوشتان كبيرتان فى رسم القيثارة تماما ، ثم الطائر القسورى (Cassowary) وهو مثل الأيمو إلا أنه أسود الريش كالنعام وله عرف طويل . والطائر الضاحك الذى يسمونه (kookaburra كوكابورا) الذى يرى فى سائر استراليا ويعيش على الافاعى التى ينقض عليها ثم يرفعها فى الجو ويرمى بها إلى الأرض حتى تضعف ثم يجرحها ويلتهمها وصياحه ضحك مستمر يسترعى النظر وهو قريب شبه بالغراب الأسود الكبير إلا أنه أضخم جسما وأقصر رقبة وأطول منقاراً وضحكته هكذا (كاكاكاهو Ka Ka Ka hoo) ومن السمك : الراى يحكى الترس المستدير فى لون أغبر وله ذنب قصير رفيع تخرج من أعلاه شوكة مسننة سامة قتالة وجلده متين خشن تتخذ منه بعض المبارد . وفى ناحية قرب الميناء متحف الفن (Art Gallary) وهو صغير وغالب معروضاته من الصور الأجنبية ، أما انتاج الاستراليين فقليل وان كانت بعض صورهم آية فى الابداع ثم كانت زيارتى لحديقة النبات (Botanical Garden) وهم يعنون بهذا النوع من الحدائق فى كل بلادهم فاذا ماتحدثت إلى أحدهم عن أى بلد من بلادهم سارع بسؤالك : هل رأيت حديقة النبات ؟ .



(شكل ٣٦) · همج أستراليا أحط الفصائل البشرية عقولا

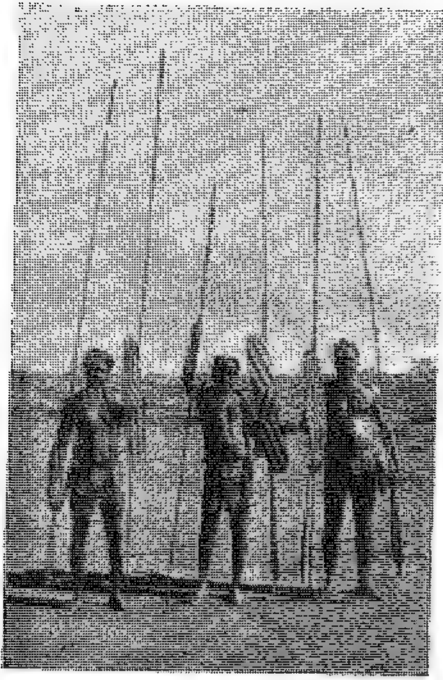
والحديقة بها مجموعة لا بأس بها من النبات خصوصا الاستوائى (Tropical) وأروع ما بها (Giant Ferns) وفى جانب من مدخل الحديقة دار الموسيقى Conservatorium of Music وبه مدرسة هائلة لتخريج الموسيقيين المحترفين ومتحف صغير لآلات الموسيقى وغالبها الهمج المحيط الهادى .

ومن الأحياء العامرة ناحية من المدنية تسمى King's Cross هى أكثر جهات البلدة حركة وجلبة فى المساء وتصف على جوانبها دور الملاهى خصوصا السينما والمقاهى بديعة التنسيق والمطاعم الفاخرة وتظل أضواؤها ساطعة إلى ساعة متأخرة من الليل وهى على ربوة تنحدر منها الطرق فى صعود وهبوط الى مد البصر ولن أنسى منظر أحياء المدينة وأنا فوق تلك الجهات العالية إذ كانت تنتثر بالثريات المتلألئة إلى مد البصر وبعضها يسطع ويخبو فى ألوان مختلفة وأينما نظرت رأيت جانبا من الميناء وأجوانها النحيلة وقد فرشت منحدراتها بتلك النجوم الساطعة فى جمال لا يحد .

مر الأسبوع الذى أقمته فى سدنى وكأنه سويعات قصيرة — رغم أن الجو فى الثلاثة أيام الأخيرة كان قاتما غائما مطيرا وهذا الشهر أسوأ وقت

لزيارة البلدة ، وقمت أودع استراليا تلك البلاد التى تعد أكبر الجزائر وأصغر القارات وأحدث بلاد الدنيا مدنية وأقدمها من الوجهة الجيولوجية فلقد طالت عزلتها عن سائر القارات فخمد تطور الانسان فيها وظل الاسترالى الاصلى إلى اليوم يعيش فى طور البداوة الاولى ولا يزيد مستواه على مستوى انسان العصر الحجرى . ولقد تأخر كشفها بسبب بعدها وامتداد صحاريها وقسوة جبالها وقد ساعد هذا على قيام أمة تستند على أصول الحرية والديمقراطية إذ لم تتأثر برجعية القرون الأولى وتقاليدها حتى أنى كلما حدثت نفرا منهم قالوا نحن نعيش فى بلاد حرة

ولقد بلغت تلك البلاد من التقدم والثراء حداً كبيراً فمستواهم الثقافى عظيم بفضل جهود الدولة فى التعليم الذى تنفق عليه فوق ثمانية ملايين من الجنيهات هذا خلاف مجهود المدارس الأهلية وحتى النســاء يساهمن فى الشهادات العالية وغالبهم يؤثر جانب التربية فجل المدرسات فى المدارس الابتدائية والصناعية والثانوية منهن وكثير من المحاضرات فى الجامعات من النساء ولهن حق الانتخاب منذ سنة ١٨٩٤ ومنهن كثير من البوليس وبيدهن سلطة كبيرة . وليس الفقر بحائل دون التعليم لذلك وجدت كل الكفاءات مجالا للظهور وللسينما فضل ثقافى كبير ودور السينما متعددة فى كل مكان حتى فى القرى وقد دل الاحصاء على أن فى استراليا فوق ١٥٠٠ دار للسينما أى بمعدل دار لكل أربعة آلاف نفس وتلك النســبة تفوق حتى الولايات المتحدة ومن تلك الدور تسعون فى سدنى وثمانون فى ملبورن ويزيد ما يعرض سنويا من الأفلام على ٢٥ مليون قدم أى نحو ألفى فلم ونحو ٨٥ ٪ منها أمريكى لذلك كانت جل الثقـافة أمريكية لا أوروبيـة وإذا ذهب الأمريكى إلى اسـتراليا لم يلحظ فرقاً كبيراً بينها وبين بلاده ففى الحقول يرى الزراعة بالآلات الحديثـة وفى المدن يرى دور الملاهى الامريكية وحتى الجرائد والمجلات تتبع أمريكا فى نظامها وضخامتها. والاستراليون رواد مدن



(شكل ٣٧)

همج استراليا كافون بالقتال بحرابهم الطويلة وتروسهم

ويندر من يعيش منهم فى القرى وقد دل الاحصاء على أن ٨٥ ٪ منهم يحلون المدن ولا يهمهم من أمر العالم الخارجى شىء فقلما تشير الجرائد إلى البلاد الاخرى وتميل الصحافة إلى مداهنة الشعور القومى دائما لأن النـاس يغضبون لأى نقد يوجه لهم وهم يفاخرون بأنهم أكثر الأمم حرية وهم على جانب كبير من حب المعاشرة والكرم فمهما بلغ بهم الضيق المالى لا يغفلون كرمهم والاسترالى أكثر اعتماداً على نفسه حتى من الانجليزى يبدأ عمله فى الحيـاة مبكراً فى حداثة سنه ويجرى وراء المادة بجد فان خسر فى حياته لم يفزعه ذلك بل تراه يجدد مجهوده بأمل صادق فى المستقبل وتفاؤل مبشر وهو فى صبره واحتماله وأريحيته وكرمه قريب شبه بساكن الصحراء فبمجرد التعارف يكاشفك بكل شىء ويتخذك صديقا ويدعوك إلى منزله ويصحبك ليطوف بك بالعربة وهو فى كل ذلك مرح ضحوك وليس لفوارق الطبقات وجود لديه فقد يكون الوزير من أبوين وضيعين وقد يكون حفيد العظيم عاملا بسيطا ولا ضير فى ذلك قط . وبقدر كده وراء الرزق تراه مبالغا فى لهوه ولعبه .

ومستوى المعيشة بينهم مرتفع جدا فالمنزل الصغير يتطلب خمسة عشر

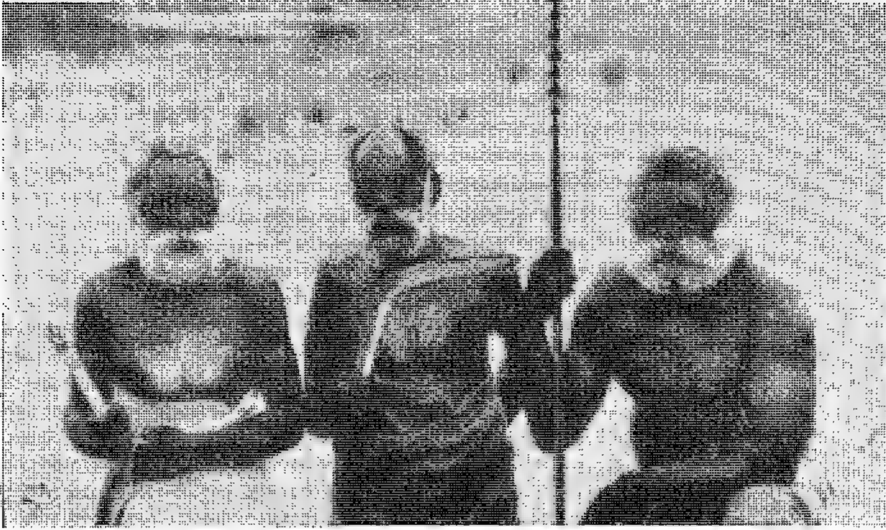
جنيها نفقات شهرية على الأقل وأجر الطباخ الماهر جنيهان فى الأسبوع وأجر الخادمة أربعة جنيهات فى الشهر . ويرى الأستراليون بأنهم يفتقرون إلى الحياة المنزلية ولعل ذلك راجع الى جوهم المشمس الصافى الجميل الذى يشجع الحياة خارج المنزل ، والى أنهم جميعا موسرون ينفقون كثيرا من المال فى الخارج ، لذلك كثرت الأندية التى قد يشترك الواحد منهم فى عشرة منها فى آن واحد ، إلى ذلك حياة الخلاء والشواطئ والمراقص التى أغرم بها الجميع فلا تكاد تكلم أحدهم عن بلاده حتى يسألك قائلا : هل رأيت شواطئنا beaches وإذا دعا أحدهم صديقا له أضافه فى فندق لأن المنازل يعوزها الاستعداد والخدم ولقد خلف فيهم ذلك حب الديمقراطية والرياضة التى ولعوا بها إلى حد الجنون .

وهم متفائلون مستبشرون دائما فترى الواحد يقول : ذاك الضنك سيزول فى غير رجعة . ولم لا ! أليست بلادنا غنية وفيرة الخيرات والموارد ؟ ويعزى ذاك التفاؤل الجميل إلى جوهم المشمس الباسم ، إلى ذلك فهم نزاعون إلى التساهل والتسامح وتيسير الأمور وأنت تسمع على ألسنتهم دائما عبارة Give it a go أى (خليها ماشية) وهم فى ذلك يشبهون المصريين ويعزو البعض تلك البساطة الى عزلتهم عن العالم والى المساحات الشاسعة التى يقطنها عددهم القليل ومثل ذلك لا يساعد على إنتاج العقول الراجحة وبعد النظر فى تصريف الأمور .

ومظهر الغنى واليسار غالب على كل فرد فيكاد كل واحد يمتلك سيارته ومسكنه الذى يتراوح ثمنه بين ٣٠٠ و ٣٠٠٠ جنيه وأجور العمال عالية باهظة تكفلها لهم الدولة نفسها وتدفع لهم المرتبات والمعاشات السخية فى حالة البطالة فالقانون يمنع العامل أن يشتغل بأقل من ٦ بنس و ٧ شلن و ٣ جنيه فى الاسبوع أى نحو خمسين قرشا فى اليوم والفقراء تتعهدهم الدولة ولا تتركهم لتبرعات المحسنين كما هى حال أوروبا لأنها تعد ذلك من الواجبات



شُرف على هيئة صخور في حديقة حيوان



(شكل ٣٨)   لايزال الاسترالى الأصلى يعيش فى العصر الحجرى

العامة . وتكاد الدولة تشرف على كل شىء من بينهـــا التعليم والمصارف وطرق المواصلات وبخاصة سكة الحديد وأهمها الخط القارى ويسمونه (The Trans) ويمر بين العواصم كلها من پرث الى برسبين وطوله ٣٤٧٤ ميلا تقطعه القاطرات فى ستة أيام .

وأهم موارد البلاد المراعى فأول الصادرات الصوف بنحو ٥٥ مليون جنيه فى العام ثم القمح والدقيق بنحو ٢٠½ مليون جنيه فالجلود ٨½ فالزبد ٧ فاللحم ٦ فالفاكهة ٣½. والصادر من الصوف آخذ فى الزيادة لجودته لكن اللحوم آخذة فى النقص لان اغنام المرينو رديئة اللحم جيدة الصوف والصوف هنا ثلاث درجات المرينو الصافى للنسيج الممتاز ثم المختلط للنسيج العادى ثم الخشن لصنع الطنافس والاغطية (البطاطين) . ولقد صدرت استراليا ربع صوف العالم ونصف نوع المرينو المطلوب فى الأسواق وبلغ الانتاج فيها ٩٥٦ مليون رطل وقد بلغ ثمن الرطل ٢٨ بنسا لكنه نزل هذا العام إلى تسعة بنسات لذلك كان الفلاح يشكو الضائقة المالية ويخشون اليوم مزاحمة الصوف الصناعى .

وعدد الاغنام فى البلاد ١١٠½ مليوناً فهى أولى بلاد صوف المرينو وقد يبلغ ثمن الخروف الأصيل الواحد ٥٠٠٠ جنيه. أما الماشية فتنتشر فى كل مكان وبخاصة كوينزلند لكنها تسد الحاجة المحلية فقط.

ويلى ذلك القمح الذى بلغ محصوله ٢٠٠ مليون بوشل أى نحو ٤٠ مليون أردب يصدر نحو خمسها. ومن الانتاج الهام هناك السكر لكن زرعه يتكلف كثيراً بسبب علو أجور العمال فهى ١٧ شلناً فى اليوم (مع أنها فى الهند خمسة بنسات وفى جاوة عشرة) لذلك كان ثمنه غالياً. ومجموع صادرات استراليا بلغت ١٣٤½ مليون جنيه.

والصناعة آخذة فى النشاط اذ يوظف فيها اليوم ٢٠٠ مليون جنيه وتنتج المصانع ما قيمته ٤٠٠ مليون جنيه كل عام خصوصاً فى ويلز وفكتوريا وبسبب علو الأجور زادت فى البلاد قوة الشراء فأضحت استراليا من أغنى الأسواق على أن نفقات الانتاج الصناعى تزيد ٥٠٪ عنها فى انجلترا لذلك كانت السلع غالية ومستوى المعيشة مرتفعا وتحاول الدولة علاج ذلك بالضرائب الجمركية الحامية لكن حالة استراليا المالية ستظل فى ضيق حتى تعالج المشكلتان: علو الاجور وعلو الضرائب الحامية أما الضرائب العامة فعالية جدا وعبؤها ثقيل على الناس أذ تزيد على ٣٠٪ من الدخل وأكبر سببه لذلك كثرة ديونهم فالدين العام ١٢٠٠ مليون جنيه منها ٨٠٠ مليونا نفقات الحرب العظمى وكثير من مرافق البلاد معطل بسبب قلة السكان وعلو الاجور لكنهم يخشون إن هم فتحوا باب المهاجرة أن تطغى عليهم الاجناس الدخيلة ولا تزال البلاد ناشئة وتثق فى مستقبلها ثقه كبيرة وكثيرا ما كنت اسمع تلك العبارة تجرى على السنتهم مجرى المثل وهى: تعيش أوروبا على ماضيها وأمريكا على حاضرها أما استراليا فعلى مستقبلها. ويشبهها البعض بحسناء لما تستيقظ من نومها بعد فيقولون She is a sleeping beauty

كان لابد لى أن أبرح البلاد الخميس ١٦ يولية والا اضطررت لانتظار



شكل (٣٠) شارع من أوكلند

الباخرة التالية شهرا كاملا ولم يكن لدى من الزمن أقضيه فى (زيلنده الجديدة) سوى أسبوع واحد فآثرت أن استشير دار السياحة الزيلندية New Zealand Government Tourist Bureau فقام بتنظيم رحلة تشغل السبعة أيام ودفعت لها (٨ بنس و ١٦ شلن و ١٢ جنيه استرالى) أعنى زهاء عشرة جنيهات مصرية وقد زودت بمجاميع من المطبوعات عن زيلندة بعضها مصور بالألوان البديعة والبعض وافر الشرح مزود بالخرائط وكل ذلك يصرف مجانا لمن أراد وتلك طريقتهم الناجحة فى الدعاية لبلادهم . ولقد ذلل لى ذاك المكتب صعاب الجمارك وأعفانى من التأمين الذى يدفعه كل من حل زيلنده (وقدره عشرة جنيهات). وتلك المكاتب تجدها فى أمهات مدنهم جميعا وتسير فى دقة واخلاص عجيب وكلها حكومية .

قمت أبرح استراليا تلك البلاد التى لم نكن نعرف عنها إلا ما يتعلق بالذهب وسبكه والصوف وتصـــديره والهمج الاصليين وسلاحهم من البوميرانج ، فكان يخيل إلى أنى سأرى قوما من الرعاة يعيشون عيشة بدوية وإذا بى أرى شعبا راقيا فاق سائر الشعوب حضارة وحتى رعاتهم فى الريف على جانب كبير من التهذيب .ونظافة الهندام وجمال المساكن . حقا كانت

تسترعى نظرى أينما سرت حوانيت عرض اللحوم ومنتجاتها فكنت أقف إلى جوارها طويلا وأنا مدهوش لرخص المعروضات أولا وللتأنق الشديد فى عرضها فى (ڤيترينات) كبيرة غاية فى النظافة والوجاهة ، ولم أعجب لهذا الرخص . فقد بلغ بهم انخفاض الأسعار أنهم كانوا يبيعون الشاة بشلن واحد فى السنوات الأخيرة حتى هجر الكثير منهم مزارعهم وتخلص من قطعانه وبحث عن عمل آخر غير أن الحال قد تحسنت قليلا الآن بفضل ما تقوم به البنوك من الخدمات للفلاح ، وقد كانت تدهشنى كثرة المصارف فلا يكاد يخلو منها شارع واحد وهى متعددة وفى أبنية رائعة .

حللت الباخرة (نياجرا) من بواخر شركة Union Line التى تصل ما بين استراليا وزيلنده وأمريكا وحمولتها ١٣٤١٥ طن لكنها من طراز قديم وقد كان فى وداعى على الميناء المسس وورد وبعض أقربائها ، والحق لقد غمرنى أولئك القوم بكرمهم فالكرم والظرف وحب المعاشرة سجية فيهم فلا تكاد تتعرف إلى نفر منهم حتى يأخذوا عنوانك ويصروا على الكتابة اليك كأنك صرت منهم . وخرجنا نتنحى عن الميناء وقد كان تزاحم المودعين كثيفا ومع كل منهم أشرطة ملونة من ورق فى طيات يلقون بها إلى المسافرين فيستطيل الشريط كلما بعدت الباخرة عن المرسى لتظل الصلة بين الصديقين طويلا فكانت شباك تلك الأشرطة تسد الجو ولا تسمح بالمرور على الرصيف مطلقا . وكلما بعدنا تكشفت روائع ميناء سدنى وقد مررنا تحت (القنطرة الفاخرة) التى ليس لها نظير فى العالم أجمع . ولبثنا نشق مياه المحيط الهادى المارد العظيم ولم تكن موجاته عالية ولكن السفينة كانت تتمايل وترتعد كأنها ترهب ذاك المارد الخضم على أن ما نعرفه عنه من الهدوء بالنسبة لغيره كان مطمئنا لنا بعض الشىء . ولكن القوم جميعا كانوا يوجسون خيفة من بحر طسمان وهو ما بين استراليا وزيلنده وبعضهم يقول بأنه من أشد بحار الدنيا اضطرابا ويظهر أن حظنا كان جميلا لأن الأيام كلها قد انقضت



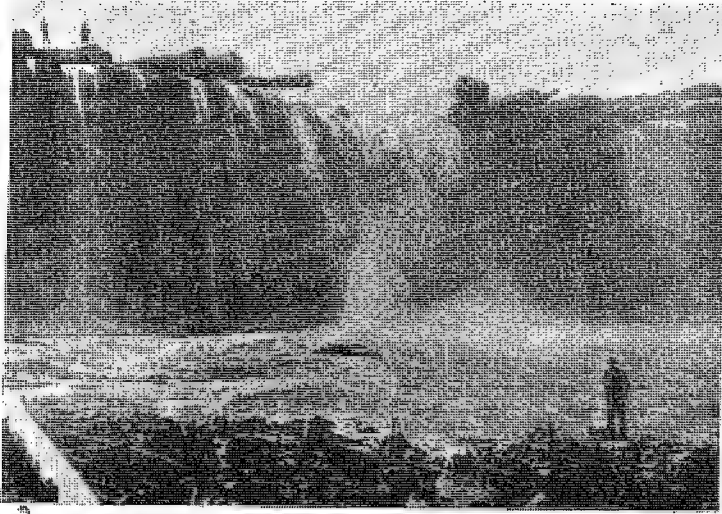
شكل (٣٩) شارع رئيسى فى أوكلند وترى البوليس مشرفا على الحركة من ذاك الصندوق المرتفع

فى هدوء وجو مشمس جميل يحكى شتاء مصر تماما .

واليوم (الأحد ١٩ يوليه) قبيل الظهر رأينا أول قبس من أرض نيوزيلند فى ثلاثة مخاريط شبه مجدبة يسمونها The Three Kings ثم أخذت الجوانب الصخرية المشرفة للجزيرة الشمالية تبدو إلى يميننا وسنظل بجانبها الليل كله . ولقد كان جمهور المسافرين أكثر ظرفا وأميل الى المعاشرة من رفقاء الباخرة الأولى (مالويا) لأن الجنس الانجليزى لم يكن يوجد بينهم بل كان الجميع من أهل زيلنده واستراليا وأمريكا وكلهم أميل إلى المرح وأبعد عن الترفع والكبرياء والصلف ، وكم كانوا يكثرون من التحدث إلى فى شئون مختلفة وبخاصة عن مصر ولما أن عرفوا أنى مصرى وعلموا بسياحاتى وأطلعتهم على بعض الصور الفوتوغرافية انهال الجميع يطلبون عنوانى

ويعدون بزيارة مصر ويقدمون إلى عناوينهم كى أكتب إليهم ، ودهشوا كيف أستطيع القيام بتلك الرحلات الجسيمة وكانوا يقولون : ان نفقاتها لاشك تدفعها لك حكومتك خصوصا وأنت فى وزارة المعارف فكنت أتردد فى الجواب وأقول لا بل أقوم بها لحسابى الخاص وإن كانت الوزارة تساعدنى مساعدة أدبية فقط ، وقد لبثوا يتحدثون معى إلى ما بعد منتصف الليل ، وفى الصباح تهافتوا على يأخذون صورتى وكأنهم لاقوا شخصا عظيما فانظر كيف يقدرون الرحلات ويرون القائمين بها أهلا للاجلال والتكريم. وصلنا أوكلند قبيل شروق الشمس بعد ثلاثة أيام ونصف وأقبلنا على الطبيب وضابط الجمارك ومررنا أمامهم وتسلمنا ترخيص النزول إلى بلادهم فى غير شدة ولا تعطيل ومررنا من الجمرك بدون تفتيش بفضل رجال مكتب السياحة الحكومى . وقد بدت ميناء أوكلند عظيمة حديثة البنيان والأثاث والمعدات وترى الأرصفة متوازية وفى صف منتظم ومن خلفها البلدة تقوم على منخفضات من ورائها ربى وطيئة وقد اخترقت الشارع الرئيسى (Queen St.) الى نزل (أوكلند) الفاخر والشارع شبيه أخواته فى سدنى وملبورن تماما الا أن مظهر الناس والمبانى والمعروضات أقل وجاهة وثراء .

وكثير من الناس يبدو عليهم مظهر الفقر وكان يسير بعض الصبية حفاة وفى ثياب مرقعة . أقلنى الترام الى المتحف فوق ربوة نسقت حولها المتنزهات والبناء حديث وعلى جانب كبير من الفخامة ، والدخول اليه مجانا للجميع على أنك تجد صندوقا الى يمينك كتب عليه : (نرجو التبرع بشىء للقيام بنفقات المتحف) ومحتويات المتحف قيمة فيما يختص بمخلفات (الماورى) من زوارق فى أحجام عدة وطول أكبرها ٨٥ قدماً وعرضه ٧ ثم أسلحة حجرية وطبول ومراسى (هلب) من حجر مخروط كالرحى وسلال لصيد السمك وإبر من عظام الطيور وأردية من ليف النرجيل وحرابهم من أسنان السمك خصوصاً Sword fish . ويسترعى النظر بنوع خاص نقشهم على الخشب



(شكل ٤٠) شلالات وايروا الرائعة شمال أوكلند

وحفرهم فيه فقد بلغ حداً كبيراً من الذوق الفنى والمقدرة ويرصعون بعضها بالصدف البراق .

وكانوا ينسجون أقمشتهم الرقيقة من ألياف قشور بعض الشجر (Bark cloth) فتبدو بيضاء كأنها الكتان والفتل فى سمك جدائل (الخيش) .

وهناك بعض بيوت للماورى كاملة من الخشب المحفور واللون الأحمر وتملأ بين القوائم بأعواد الغاب تربطها شرائح رقيقة ملونة منه (كشغل الكراسى الخزران) فى نقوش وألوان فنية بديعة والسقف مثلث (جمالون) وأمام الدار شبه (فراندة) والأعمدة كلها تنقر فى أشباح بشعة مخيفة والبيت مظلم من داخله عديم النوافذ وتلصق بجميع جدرانه أصداف كبيرة تعكس قبس الضوء الذى يدخل من الباب فينير المكان ، والخشب جله من شجر Kauri المتين أشهر أشجار نيوزيلند . وهناك دار للاستقبال كان يقيمها زعيمهم وسط البلدة للحفلات واستقبال الضيفان وعرض الرقص الذى

يولعون به جداً ويسمون دار الضيافة Hotunui ومعاطفهم يكسى بعضها بريش الطاووس ومن معروضاتهم بعض توابيت موتاهم من خشب (كالبرامى الكبيره) نقرت فى صورة أشباح مخيفة .

وشعوب المحيط الهادى فى جزائره العدة ثلاثة :

أهل ميلانيزيا وهم سود أفريقيون بهم مميزات الزنوج فى كل شىء ويمتدون شرقا إلى فيجى ونيو كالدونيا وهم أقدم نزلاء جزائر المحيط الهادى ثم أهل بولنيزيا وهم قوقازيون وفدوا حديثاً من الهند على الراجح واخترقوا ميلانيزيا وانتشروا بعيداً فى المحيط واختلطوا بغيرهم لكنهم لا يزالون يحتفظون بمميزات الجنس الأبيض — ومنهم الماورى — ثم أهل ميكرونيزيا تلك الجزر الصغيرة المرجانية شمال خط الاستواء ولا يزال أصلهم مجهولا لكنهم أميل الى المغول .

ولعل الماورى أهل زيلندة القدماء أكثرهم استعداداً للرقى ومن عاداتهم مضغ جذور نبات السرخس Ferns وذلك بسبب سرعة انحلال أضراسهم وتآكلها وكان هذا يبدو فى الجماجم المعروضة بالمتحف . وهناك بعض آثار ابورجنيز استراليا وقليل من بابل والروم ومصر (جثثان وأوان وخرز) ويلى ذلك فى الأهمية قسم الطيور والحيوانات المحنطة عرضت وسط بيئتها الطبيعية ، وأعجبها طير زيلندة العجيب الكيوى Kiwi ولعله أغرب طيور العالم فليس له أجنحة قط ولا ذنب وخياشيمه على حافة منقاره الطويل النحيل وريشه يبدو كالشعر تماما والبيض لا يتناسب مع الحيوان فالطائر لا يزيد على الدجاجة الرومية المتوسطة بينما تجد بيضها يحكى بيض النعام حجما وهو جبان نفور لا يبدو إلا ليلا وكاد أن ينقرض تقريباً .

وثم قسم جيولوجى لا بأس به وآخر نباتى وقد استرعى نظرى به كتل الصمغ الكبيرة وزنة القطعة منها ٧٦ رطلا ويستمد من جذور شجر (الكاورى Kauri) وبعض كتله صفراء رائعة جميلة كأنها الكهرمان تماما

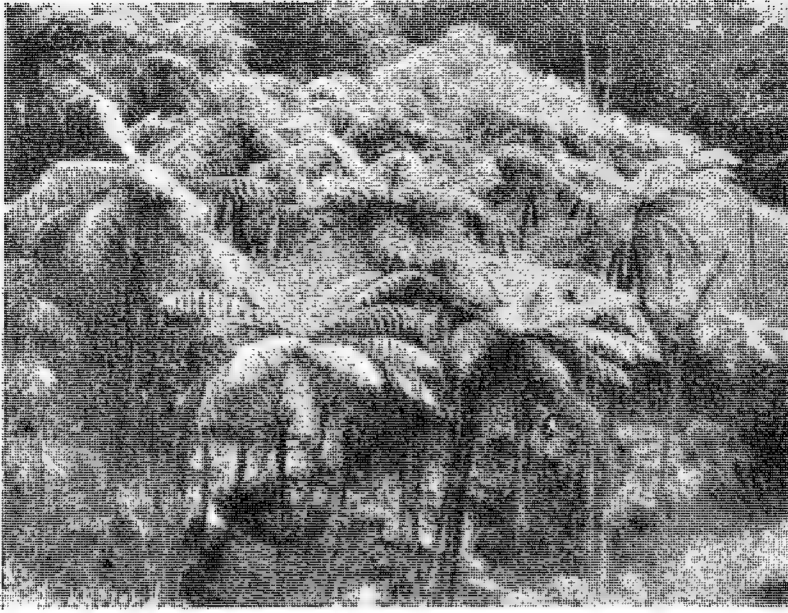


شكل (٤١) مشاهد الطبيعة رائعة فى زيلنده

وقد ترى بعض الحشرات داخله وتصنع منه العقود. متحف فاخر كلفهم ربع مليون جنيه ويقع على أعلى ربوة تشرف على المدينة ويوضع فى الدور العلوى منه قبر الجندى المجهول وحوله اسماء ٦٣٠٠ جندى ماتوا من مقاطعة أوكلند فى الحرب العظمى. وقد رأيت المكتبة التى أهداها جورج جراى لها وبها ١٤ الف مجلد.

قمنا بعد الظهر نطوف بالمدينة وضواحيها فى عربات السياحة (Sightseeing cars) فاخترقنا أهم أحياء البلدة وأروعها شارع Queen الفسيح كثير الحركة ثم أخذنا نعلو إلى الربى المجاورة وعلى مدرجاتها تقوم المساكن الصغيرة الجميلة ويندر أن نرى فى المدينة كلها بيتا يعلو أكثر من طبقتين وجل البيوت من الخشب ويندر أن تبنى بالحجارة أو الآجر وتلك لكثرة غابات الكورى حولهم ولمتانة خشبه وقد زرنا ساحة سباق الخيل فى متسع

هائل نسق تنسيقا يفوق الوصف ومساحته ٥٨٠ فدان وهبها أحد الأثرياء
ويعد أجمل ساحة للسباق فى نصف الكرة الجنوبى ويتهافت القوم على المقامرة
فى تلك الحفلات الأسبوعية بشكل يسترعى النظر وسباق الخيل أحب
الملاهى وأكبر طرق المقامرة عندهم . لبثنا نسير وسط تلك المخاريط وكلها
بقايا لبراكين خامدة وقد تجمع منها فى دائرة قطرها خمسة أميال ٦٢ مخروطا
مما يدل على أن المنطقة كانت نهبا لتلك القوى الباطنية المخيفة أزمانا لكنك
تعجب إذ لا تجد فى زيلندة إلا بركانا واحدا ثائراً اليوم هو Ngauruhoe
وسط الجزيرة الشمالية وعلوه ٧٥١٠ قدم ، لذلك كانت جميع الأراضى من
تربة سوداء بركانية غاية فى الخصب حتى أننا لم نكد نرى شبراً لا تعلوه
الخضرة وحتى شقوق أسفلت الطريق كان ينمو بها العشب كثيفا . أخيراً
وصلنا طرف البلدة الشمالى وعنده تكاد تتصل مياه البحرين الشرقى وهو المحيط
الهادى والغربى وهو بحر طسمان ولا تعدو مسافة الفصل بينهما ميلا ونصف
وفى تلك البقعة الضيقة المنعرجة أقيمت أوكلند لكن خير مراسيها فى الشرق
لذلك اضطرت البواخر من استراليا أن تطوف بشمال الجزيرة مدة يوم
كامل حتى تصلها ومن ثم فكروا فى حفر قناة تصل الشرق بالغرب وتقرب
زيلنده يوما كاملا من استراليا ويطلقون على أوكلند Gateway of N. Zealand
وكنا نبصر بالأطفال والصبية والفتيات فى غدواتهم من المدارس وسط
الأمطار الهاطلة وهم يلبسون المعاطف من الجلد البراق (والطراطير)
وأحذية الكوتش طويلة العنق فى شكل جذاب مضحك وكثير من الأطفال
يسيرون حفاة وفى ثياب رثة بعض الشىء مما لم نلاحظه فى استراليا قط .
عدنا الساعة الخامسة بعد ذاك الطواف الطويل لكن الجو كان مكفهرا
عبوسا ماطرا والبرد قارسا ورغم ذلك استمتعنا بمناظر تلك الربى تكسوها
الخضرة وتنثرها البيوت الخشبية حمراء السقوف ولن أنسى منظر الميناء بدت
من فوق الربى فى جمال فاتن وتنسيق بديع . وهى التى حدت بالحاكم Hobson



شكل (٤٢) نبات السرخس الكثيف ينمو فى جميع أنحاء زيلنده الجديدة

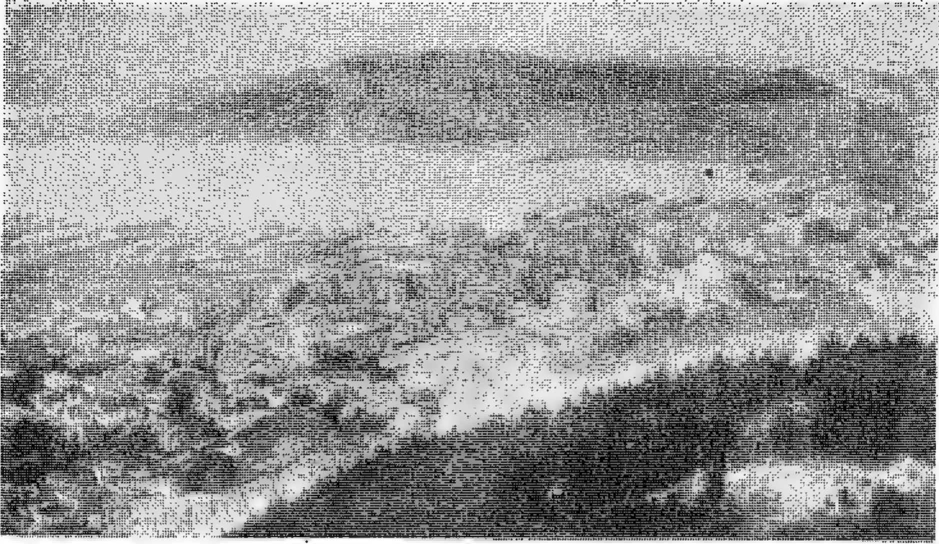
سنة ١٨٤٠ أن يتخيرها مكانا لعاصمة جديدة لزيلندة ، إلى ذلك فأنها أسهل اتصالا بالداخل وأكثر أشجارا وأخصب تربة أسسها منذ ٩٦ سنة وأسماها على اسم الملكة فكتوريا لذلك يطلق عليها اسم The Queen city وأظرف ما يذكر أن تلك المساحة البالغة ثلاثة آلاف فدان شراها من الماورى بالثمن الآتى : خمسين جنيها من النقود وخمسين بطانية وعشرين بنطلونا وعشرين قميصا وعشرة أصدار وعشر قبعات وأربعة صناديق من الطباق وصندوق من الغلايين pipes ومائة ياردة من القماش وعشر أوان حديدية وكيس من السكر وآخر من الدقيق وعشرين بلطة . وقد وفق الرجل فى اختياره وأقبل القوم عليها فأضحت أكثر البلاد تجارة وسكانا (٢٢٣ ألفا) ومقاطعة أوكلند من أغنى جهات الدنيا بمنتجات الألبان والمراعى وقد ساعدها جوها المعتدل عن جو ولنجتون فأضحت العاصمة التجارية للبلاد .

قمت بقطار المساء إلى الجنوب صوب ولنجتون فى أقصى جنوب الجزيرة

الشمالية وظل القطار يسير بنا زهاء خمس عشرة ساعة (٥٠٠ ميل) أى فوق ما بين مصر والأقصر — وسط أراض مموجة تكسوها خضرة قصيرة وتسور بالاسلاك الشائكة قطعا كبيرة هى المزارع Sheep farms التى تربى عليها المراعى وكانت تطلق فيها ألوف الخراف فى صوفها الأبيض الكث الكثيف ووجهها الذى يبدو مغضنا فى طيات دائرية بعضها خارج بعض وسحنتها جميلة جدا . وقليل من الأرض يخصص للأبقار وبين آن وآخر كنا نمر بغابة من شجر الكورى والصنوبر ولما أن قاربنا ولنجتون زاد تعقيد الجبال وكثرت المسايل المائية والمساقط العالية وبعض الجداول كان يتلوى ليات ثعبانية متعاقبة ، والقرى كانت تقوم بيوتها فى بطون تلك الوديان لكن عددها قليل وبيوتها نادرة ثم أوغلنا فى مجموعة من أنفاق لا حصر لها . وأخيراً وصلنا العاصمة وسط جو مكفهر قمطرير وسيل للمطر لا ينقطع واضطراب للريح شديد وبرد قارس زمهرير والبلدة معروفة بتقلب مناخها وكثرة أنوائها دائما وبخاصة فى هذا الفصل فصل الشتاء إذ تسود رياح جنوبية قارسة البرد وتزجى السحاب فيجعل الجو رطبا لا يطاق وقد ظل كذلك اليومين اللذين أقمتهما بها فلم أستطع التجوال إلا راكبا .

حللت نزل Barrats من الفنادق الفاخرة ثم جاءت سيارة السياحة وطافت بنا البلد وضواحيه فكان القسم التجارى والحكومى فى المنخفضات المجانبة للبحر وجلها أرض طمروها على حساب البحر وأقاموا عليها أكبر المبانى من الاسمنت والحجارة على أن عددها محدود وارتفاعها لا يعلو كثيراً وقانون زيلنده لا يبيح العلو أكثر من ١٠٢ قدم (مع أن نيويورك قد علت ببيوتها ١٠٢ دورا) .

ومن المبانى الفاخرة دار البريد والبرلمان والبلدية Town Hall وبعض البنوك والشوارع لا تتبع نظاما خاصا بل تتعرج وتحكى أخواتها فى استراليا وأوكلند .



(شكل ٤٣) ولنجتون عاصمة نيوزيلند

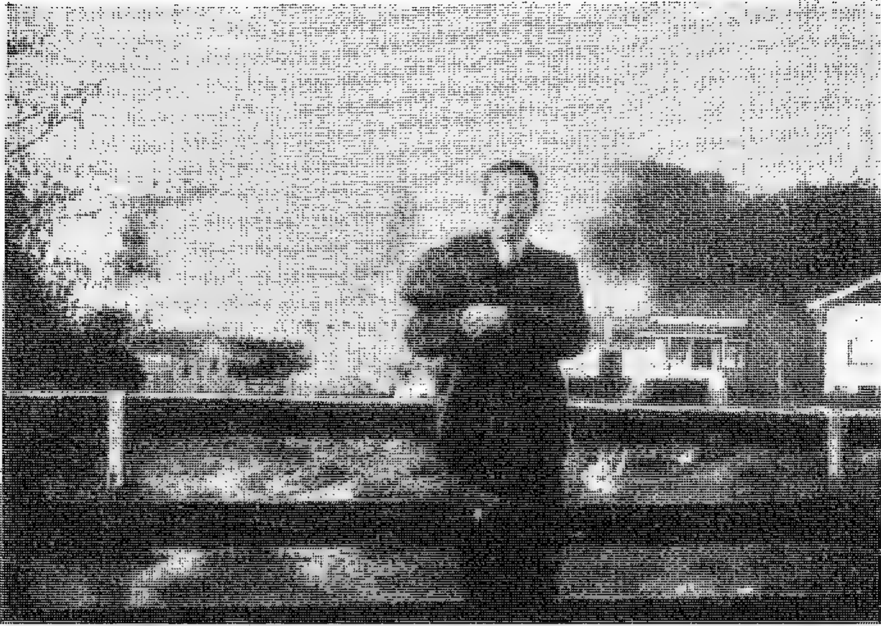
أما أحياء السكنى فالربى المعقدة التى يعلو بعضها فوق ٦٥٠ قدم وتقوم عليها البيوت الخشبية البديعة فى ڤلات من دور واحد وكانت الصخور تبدو بركانية فى الغالب ومشققة وملتوية لشدة تعرض تلك البلاد لفعل الزلازل فلا يكاد يمر أسبوع دون أن يحدث زلزال يضطرب له القوم وذلك من الأسباب التى دعت إلى إقامة المساكن من الخشب فأنه أكثر مقاومة لهزاتها .

أما منظر الميناء وخلجانها العديدة من فوق تلك الربى ومن جوانب الطرق الثعبانية المخيفة التى تتلوى على جوانبها صعودا وهبوطا فذلك ما يعجز القلم عن وصفه وأنت ترى متسعات الملاعب والسباق فسيحة فى تلك المنخفضات وتلك الميناء اختيرت عاصمة البلاد سنة ١٨٦٥ بفضل اتساع مساحة مياهها العميقة التى قدرت بعشرين ألف فدان وبفضل موقعها المتوسط بين الجزيرتين ولقد نمت أهميتها حتى شملت تجارتها ثلث تجارة البلاد وبلغ سكانها ١٥٠ ألفا على أن جوها العكر ووعورة جبالها شجع أوكلند أن تفوقها أهمية ، وكان بدء تأسيس المدينــة فى سنة ١٨٣٩ حين شرت مكانها شركة نيوزيلند ثم

حملت اسم دوق ولنجتون الذى شجع بكتاباته كشف استراليا وتعميرها وسيقيمون له مهرجانا ذهبيا (لمرور مائة عام) سنة ١٩٤٠ .

ومن جهاتها القيمة المكتبة التى أهداها لها تاجر وطنى سنة ١٩١٨ اسمه Alex Turnbull بها ستون الف مجلد من أفخر الكتب ومنها ٣٢ الف مجلد على جهات الباسفيك وحدها وكذلك المتحف وهو شبية أخيه فى أوكلند ومجموعة الماورى به قيمة جداً . وحديقة النبات تحوى مجموعة قيمة من نبات زيلندة وكذلك حديقة الحيوان على أنهما صغيرتان بالنسبة لحدائق استراليا وقد استرعى نظرى اهتمام البلدية بالبلد وأهله اهتماما فاق كل حد فهى تبذل مجهودات جبارة فى اصلاح الأراضى وإقامة المبانى والمتنزهات العامة والتموين وقد أعجبنى منظر عربات اللبن تصف فتكاد تسد الشارع على جانبيه انتظاراً أمام الملبن الذى يعقم اللبن ويعبئه فى زجاجات مغلقة ويوزع على البيوت كل يوم ويبلغ مقداره يوميا ٦٠٠٠ جالونا .

أما شطوط الاستحمام فنادرة جداً لأن الساحل صخرى عنيف الموج إلا فى جهات رملها أسود قذر منفر وفى نهاية تلك النواتىء الصخرية وقفنا نطل الى الجنوب لنرى قبساً من جبال (كايكورو) المغطاة بالثلوج فى الجزيرة لأن مسافة ما بين الجزيرتين هنا (بوغاز كوك) لا تزيد على ثلاثة عشر ميلا على أن جماله لم يبد لأن الجو كان أغبر منفرا ويخيل إلى أن ولنجتون تفوق أوكلند جمالا بمينائها (بورت نكلسون) ذات الرءوس والمداخل الجذابة وإن كان بعض الناس يفضل أوكلند عليها . قمت أودع ولنجتون الجميلة وإن لم يكن استقبالها لنا كريما لأن ريحها الصرصر ومطرها الغزير لازمنا طوال اليومين من ساعة وصول القطار الأول إلى قطار الرحيل . قام بنا القطار شمالا بشرق وسكة الحديد هنا تديرها الدولة ومقياسها أضيق من المقاس العادى وبها درجتان الأولى والثانية وهذه مطية الجميع والعربات مريحة جدا مقاعدها معدة لاثنين واحد الى اليمين وواحد



(شكل ٤٤) تكاد بلدة واكا تخفيها الابخرة الصاعدة من جوف الارض

الى اليسار وبينهما طرقة وهى مغطاة بالجلد المجزع الأحمر الفاخر وتمر المدافىء تحت القدمين والقاطرة من نوع ضخم جدا قوى ليستطيع الصعود فوق تلك الربى العاتية.

وللدولة ٣٢٠٠ ميل وهى أرخص سكك الدنيا وأكثرها أمنا فقد بلغ المسافرون فى الثمانى سنوات الأخيرة ١٨٠ مليونا لم تحدث خلالها حادثة واحدة. أخذنا نشق طريقنا وسط تلك الجبال المعقدة تكسوها الغابات وغالبها من الصنوبر وتجرى من دونها خوانق ووديان ملتوية خلابة يدوى فيها الماء ويضطرب، ومن تلك الجبال ما يكسوها الثلج لكن ذلك قليل جدا وكانت تقوم القرى البديعة فى جهاتها المنخفضة وكلما تقدمنا قلت الجبال وانفسحت شبه سهول مموجة تكسوها خضرة لا يكاد يستقيم لها عود وقد يكسوها عشب قصير ذهبى وتنثرها بقع تسدها الغابات وتلك الأراضى كلها مقسمة إلى مزارع تحوطها شباك السلك والغنم الابيض يعبث

بعشبها ويجهز عليه فى شهية لا تخبو ولقد كانت الشياة أحيانا ترى مع صغارها تقرض العشب على جوانب من تلك المزارع زلقة منحدرة بحيث يخيل إليك أنها لن تستقر فى مكانها وتعجب إذ ترى كل تلك الأغنام عديمة الأذناب وذلك لأنهم يبترونها منذ الصغر لكيلا ينصرف مجهودها عن اللحم إلى الدسم والسمن الذى يكدس فى الذنب بدون جدوى ولم تقع عينى على واحدة غير بيضاء أو تشوبها بقعة . ولاتزال حال الفلاح هناك قاسية بسبب هبوط أثمان اللحوم والأصواف . وفى بعض تلك المزارع كانت تطلق الماشية والخيول وفى مواسم الجز Shearing يطوف الجزازون بآلاتهم وينزعون الصوف عن الأغنام ثم يرسل الى المفارز لعزله إلى أنواعه الجيدة وغيرها ثم يعد للتصدير ، وموسم الجز يبدأ حوالى ديسمبر من كل عام ومهنة الجز يقوم بها الماورى غالبا فيحملون آلاتهم الصغيرة ويطوفون بالمزارع ، وفى غالب المحطات كنا نرى مسالك من خشب تمر فيها الأغنام فتجز ثم يشحن صوفها فى عربات سكة الحديد المجانبة لها . أخذت تلك المتسعات تزيد امتدادا كلما قاربنا بلدة (Napier) وقليل منها يزرع فاكهة وخضرا إذجلها للمرعى ومتوسط ثمن الفدان منها جنيه ويزيد بالطبع كلما قارب المدن ، أخيرا بعد ثمان ساعات دخلنا المدينة وقد تحسن الجو كثيرا بمجرد مغادرتنا ولنجتون على أن السحاب لم ينقشع تماما . والبلدة صغيرة ووسط منطقة غنية جدا بمراعيها ومنتجاتها من الألبان واللحوم وقد استرعى نظرى نظافة المدينة وحداثة مبانيها الخشبية البراقة الملونة لكنى علمت أن زلزال سنة ١٩٣١ قد دكها تماما وقد أكلت النيران جل مبانيها لذلك جددت فى مجموعها وقد رأينا دار البلدية City hall القديم مهشما محترقا ترك دليلا على قسوة الطبيعة فى تلك الجهات ولقد نسقوا شارع البحر بالحدائق والأنوار الليلية الوفيرة فى اسراف جميل . قامت بنا السيارة تسير فى عقد من جبال لا آخر لها جلها تقسم بأسوار السلك الى مزارع للغنم غنية بعشبها ولذلك جاد اللحم فى زيلنده



عند مدخل قرية الماوري (واكاريواريوا)



(شكل ٤٥) فى قرية الماورى أمام دار الضيافة والى جانبى (كيرى) القائدة

جدا فهى من أولى بلاد العالم فى الـ Mutton لكن الصوف قد قلت قيمته وفسدت. قلته لأن أغنام المرينو يجب أن تمرح فى مساحة أفسح وعشب شحيح لتجهد جسمها بالسير طويلا فيهزل اللحم ويزكو الصوف ومتوسط المساحة المطلوبة للشاة فدان من الأرض المتوسطة الجودة هذا إن أردنا لحمها ، ومن تلك المزارع ما تبلغ مساحته ٢٥ ألف فدان لكن الحكومة تشجع اليوم توزيع الأراضى إلى مساحات أصغر . ولم تكن تلك المساحات تخلو من الشجر الكثير وبعض جهات الجبال كان كثيف الغاب وفير النمو العشبي أسفل الشجر خصوصا فصائل (السرخس fern) .

وكم مررنا بوديان ذات خوانق متلوية وفيرة الماء عنيفة التيار ، وكان منظر الوديان من دوننا ساحرا وبخاصة من أعلى بقعة اسمها Turanga Kumu على ارتفاع ٢٨٠٠ قدم ثم أخذنا نهبط وتناولنا الشاى فى لوكاندة صغيرة اسمها Taupo هى أكبر بحيرات زيلندة الجديدة وطالما أبصرنا بقطعان من الخيول البرية تمرح فى تلك السهول .

أخيرا فى منتصف الثانية مساء دخلنا wairaiki من المحطات البديعة وتناولنا الغداء ثم طفنا بوادى فواراتها العجيب بعد أن مررنا بعدة نافورات صغيرة يتصاعد بخارها ويغلى ماؤها ولما أن انكشف ذاك الوادى أبصرنا به نهرا كثير الخوانق والشلالات متحجر الجوانب وكل مياهه تغلى حرارة وتتفجر من مصادرها على الجوانب وفى القاع فى كثرة مخيفة وتمتد تلك المنطقة ميلين أو يزيد والعجيب أنه يغص بالنبات الجميل رغم تلك الحرارة المتقدة . سرنا صوب رتوروا أعجوبة تلك المنطقة فأوغلنا فى أراض مجدبة بركانية صخرها من النوع المثقب الذى يسمونه (Pumice) ولا يصلح للزرع ولا للمرعى قط ، ولذلك رأت الدولة استغلاله فى غابات الصنوبر فزرعت مساحات شاسعة من صغار الشجر ولا تزال دائبة على ذلك العمل وستصبح تلك الأشجار صالحة لقطع الخشب منها بعد ٣٥ سنة ، وفى الرابعة بعد الظهر



(شكل٤٦) فوارة البخار (كاربيتى) فى وايراكى

مررنا بقرية واكاريواريوا ثم دخلنا :

رتوروا : التى بدت مدينة كبيرة منسقة أيما تنسيق وجل أهلها يرتزقون من السائحين وبها عدد كبير من الفنادق الفاخرة ويؤمها الزائرون للاستشفاء بمياهها المعدنية أولا ولمشاهدة عجائب القوى الباطنة حولها ثانيا . فما كدت أصل نزل (Waiwera) البديع حتى القيت بحقائبى وأسرعت لأرى عجائب ذاك البلد فقصدت قرية الماورى الصغيرة التى تقع على شاطىء بحيرة رتوروا وتسمى Ohinim utu فهالنى ما رأيت :

بيوت خشبية أنيقة يقطنها الماورى تقوم وسط نيران يتصاعد بخارها من كل ناحية فى الطرق وفى حدائق البيوت وإلى جوار شاطىء البحيرة يتصاعد بخار يسد الآفاق وتسمع له أزيزا أودويا كأنه يخرج خلال مصفاة من الصخر وهنا وهناك ترى فتحات يغلى فيها الماء وتسمع دوى فقاقيعه ، وأعجب كيف يستطيع هؤلاء الناس وبخاصة الأطفال السير وسط تلك الأخطار وكثير منهم يغترف الماء الحار ليحمله إلى البيت للطبخ أو الغسيل وبعضهم يستحم فى تلك البرك ، وعلى ربوة فوق تلك القرية نبع يسمونه fairy spring ماؤه لذيذ بارد رائق الزرقة يكثر به سمك ملون (Trout) يلعب فى كثرة مدهشة ويباح للناس صيده ومن الأطفال من كان يصيد السمكة ثم يسارع فيغمرها فى النبع الفوار فتسلق ويأكلها على الفور . ولقد دخلت كنيسة الماورى هناك فأذا بنقوشها فاخرة كلها فى عمد من الخشب نقرت فى أشباح مخيفة وزينت بالصدف كعادتهم . ومنظر تلك البلدة ليلا يثير الرعب لأن البخار يظهر فى وضوح ويسد آفاق البلدة — فالشمس تخفف من وضوحه نهارا — ولقد خيل إلى أنها بلدة تلتهمها النيران والناس يأوون إلى منازلهم الصغيرة الخشبية تسمع حديثهم ولا تكاد ترى مقرهم من كثرة الأبخرة وبعضهم كان ينام فى (الفراندة) الخارجية ولا يحس البرد على قسوته لأن الأبخرة تحوطه من كل جوانبه .

عدت أزور بعض الحمامات وهى هناك كثيرة وأكبرها تديرها الحكومة فما كدت أقرب أكبرها حتى كان البخار يتصاعد إلى عنان السماء. وإذا بالنبع فى دائرة قطرها زهاء أربعة أمتار يصعد ماؤه البخـــار فى مدخنة ضخمة ويسمونه نبع (Rachell) ومنه تأخذ الأنابيب الماء القلوى إلى مقر الاستحمام وهو حوض هائل مكشوف إلى السماء أحيط بالمقاعد والفرندات واختلط به المستحمون والمستحمات ويتصاعد بخاره دائما وكأنه نبع آخر ودرجة الماء ٢١٢ ف أى درجة الغليان تماما وهو يضاء بالنور الأزرق البنفسجى

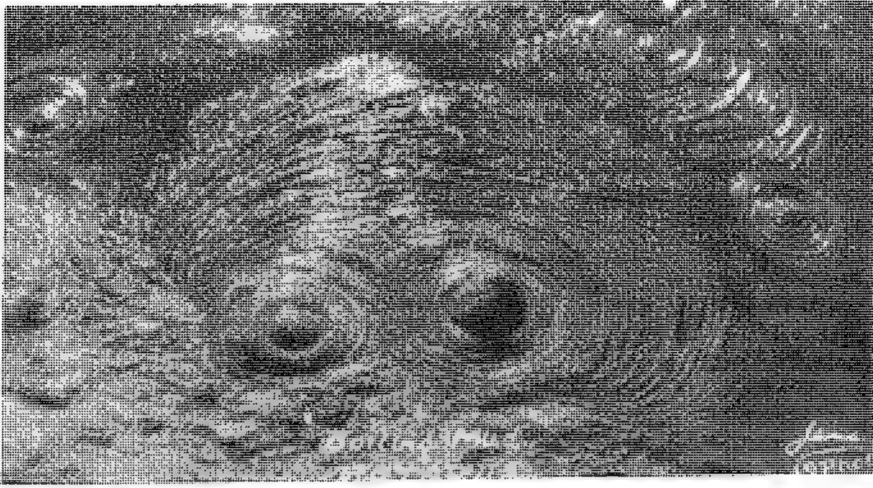


شكل (٤٧) فوارات زيانده الجديدة

ليلا فيبدو المنظر رائعـا خصوصا إذا نظرته من وسط المنتزهات الفاخرة التى تزين المكان إلى مساحات بعيدة وأنت تشم رائحه الكبريت تعبق الجو فى جميع أرجاء البلدة وقريبة شبه برائحة حمامات حلوان تماما . قمت مبكرا صباح الجمعة وأقلتنى سيارة الى قرية واكاريواريوا Whakarewarewa على بعد ميلين من رتوروا وما كدت أصلها حتى أبصرت بمجموعة من المساكن الخشبية الأنيقة لا تكاد تبدو من كثرة الأبخرة المتصاعدة إلى عنان السماء من كل فج وحولها سور وطىء من شرائح خشبية ولها بوابة من قوائم خشبية

حمراء نقرت فى أشباح مخيفة كعادة (الماورى) .

نزلت بالباب فتقدم إلى جمع من سيدات الماورى وفتياتهم يتمايلن فى دلال ويقلن : أتريد مرشدا ياسيدى (Guide Sir) قلت نعم فقدمت إلى إحداهن بطاقة اسمها وعليها : Kiri قلت وهل هذا اسمك ؟ قالت بل مختصره فهو بالكامل : Kiriwakariwi فأخذت تقودنى إلى مفاوز تلك القرية العجيبة ، هنا مجموعة من فوارات حارة تقذف بالماء الحار فى درجة الغليان إلى عنان الجو وهناك فتحات يتصاعد منها بخار كثيف وهو يزمجر فى صوت مرعب وفى مكان آخر عيون من الطين الأبيض وأخرى من الوحل الأسود يغلى فى فقاقيع كبيرة والأرض تحت قدمى أينما سرت تهتز وتنفس عما فى جوفها فى أصوات فاترة وبخار خفيف ، وعند بعض تلك العيون ذات المياه الغالية المضطربة رأيت جمعا من الفتيات يغسلن الثياب وهن يتحادثن ويتسامرن ويكاد البخار يحجبهن عن الأنظار وفى مكان آخر أحاطوا بعض الفتحات بألواح خشبية وعلقوا فيها سلال البطاطس أو قدور الشاى وفى فترة وجيزة يعد للأكل أو الشرب ، وخلال كل أولئك كنت أرى البيوت الخشبية منثورة والأطفال يمرحون هنا وهناك فى غير وجل وبعضهم كان غاطسا يلعب ويستحم فى إحدى تلك البرك الصغيرة ويمر بالبلدة نهير صغير تجد ماءه باردا هنا وبعد أمتار يبدو ساخنا لكثرة ما تلقى فيه العيون الجانبية ثم يعود باردا وهكذا ، ومن العجيب أنهم يصيدون السمك من فرع منه إلى اليمين ثم يغمر الطفل السمكة فى الشعبة اليسرى الحارة فتشوى ويأكلها على الفور ، وأكبر تلك الفوارات يسمونه Pohutu وقد علمت أنه خمد منذ ثلاثة أسابيع وعند ما يثور يعرفونه بعلامات جانبية من المياه المتفجرة فتدق الأجراس أو ينادى المنادى إيذانا بفورته ليسارع الكل إليه ويشاهدوا انفجاره الذى قد يصل ١٨٠ قدما فى الجو وإلى جواره فى شقوق الصخر تضع الطيور البرية بيضها لأنه أدفأ لها وأسهل لتفريخها .



شكل (٤٨) ومن النافورات ما يقذف بالاوحال المستعرة

استرعى نظرى بين البيوت بنـاء خشبى مستطيل كبير أمامه (فرندة) وكله من خرط الخشب فى الأشباح المخيفة فقلت وما هذا ؟ قالت دار ضيافة البلدة وإلى جواره واحد أصغر منه مرفوع على قوائم خشبية إلى السماء هو مستودع الغذاء الذى سيقدم إلى الضيفان وفى ذاك البيت الكبير تعقد مجتمعاتهم وأفراحهم ومحازنهم ومراقصهم وعندئذ يشاطر أهل القرى الأخرى فيأوون إلى تلك الدار . وكان كثير من السـيدات فى (فرندات) بيوتهن دائبات على شغل النسج والجدل من أليـاف الكتان لونت بالأسود والأحمر فى أحزمة حول الجبهة وحول الخصر وداليات من عيدان الكتان كسرت أجزاء منها فى فتل رفيعة وتركت أخرى كأنهـا قصب الغاب الرفيع وتلك تلبس من الخصر وتتدلى على الثوب أو على الجسد العارى فتروح وتغدو وتعطى صوتا يسترعى الأنظار ويلبسه النساء والرجال ووجوه القوم سمراء عريضة التقاطيع جميلتها والشعور غزيرة هادلة سوداء براقة يرسلها السيدات إلى ما دون الكتفين والأجسـام أميل إلى الغلظة والسمنة وبخاصة النساء وفيهن جاذبية كبيرة وخفة روح إذ لا تكاد تفارق البسمات ثغورهن أبداً والكل

أميل إلى الاجتماع يسارعن إليك بالحديث والسؤال عنك وعما حولك فى رقة زائدة ويعيشون عيشة مرحة سعيدة لا يحملون هما ، وسواء أكثر رزقهم أم شح فهم سعداء فى كلتا الحالتين ولا يعبأون بالدنيا أبداً ولذلك لم يعرفوا قيمة النقود ومنهم بعض الأثرياء الذين يمتلكون مئات الآلوف من الجنيهات لكنهم يبددون منها بمقادير غير معقولة وبعضهم بدد ماله كله ولا يزال يشعر بالسعادة ولا يبدى من الهم شيئاً . وحتى فقراؤهم وحفاتهم الذين كنا نراهم فى ثياب خلقة كانوا يتقدمون إلى فى رقة ويتطوعون للارشاد ولا يبدو عليهم الحاف فى طلب شىء من الهبات قط فأن قدمت اليهم شيئاً تسلموه شاكرين وإن لم يك من ذلك شىء انصرفوا باسمين غير متعضين . ومنطقهم عذب سائغ موسيقى وجميع الحروف تبدو ممطوطة ناعمة تشبه اللغة الطليانية وكل حرف فى الكلمة لا بد أن ينطق فى وضوح وفى غير أضغام وكنا نرى جل أسماء البلاد والجبال تحتفظ بأصلها الماورى وتحاول الدولة الاحتفاظ بتلك الأسماء ما استطاعت . والماورى فصيح زلق اللسان خطيب بالفطرة وهم يباهون بأدب لغتهم ويفاخرون بعضهم ببلاغتهم فى القول . عدت من تلك القرية السحرية التى يعيش أهلها وسط أتون متقد مضطرب صباح مساء وهم ناعمون راغدون ، وقد اخترقت قنطرة على جانب من النهر الذى يجرى فيه الماء الساخن وكان الأطفال يثبون من أعلى القنطرة إلى ذاك الماء ليلتقطوا الدريهمات التى يلقيها السائحون فيه ، والماورى هؤلاء يختلطون بالبيض فى اخاء ومساواة كاملة مدارسهم واحدة وحقوقهم متعادلة ولهم أعضاؤهم فى البرلمان ، على أن الدولة تميل إلى منعهم من المصاهرة مع البيض حتى لا ينقرض الماورى بأندماجه فى الجنس الأبيض وافر العدد فمجموع سكان البلاد ١,٥٥١,٧٨٧ منهم ٧٣٧١٥ من الماورى .

قامت بنا السيارة إلى رحلة (Waimangu) فسرنا فى أرض بركانية تعلو وتهبط ويندر نبتها ، ثم دخلنا فى مجموعة من مخاريط بركانية أعلاها



(شكل ٤٩) يغتسلان فى مياه الفوارات الطبيعية

(Tarawera) بلونه الأسود المغبر ثم أشرفنا على هوة تركنا عندها السيارات وأخذنا نسير على الأقدام فوق أرض مرتجفة خلال خوانق عميقة كلها تصعد أبخرة ومياها تغلى ثم وقفنا بهوة مستديرة مشرفة الصخور تملؤها المياه الزرقاء الصافية فى حرارة مضطربة وإلى يمينها أخرى أصغر منها وأغلى مستوى وبها ماء درجته ساخنة لكنها دون الأولى حرارة ثم هوينا إلى خانق يجرى وسطه ماء يتلوى يستمد من فوارات الضفاف التى لا تخبو أبداً ، وأخيراً أشرفنا على بحيرة فسيحة ماؤها صاف وركبنا الزورق البخارى وما كدنا نخرج من الخلجان الجانبية حتى بدت شواطئها فى مداخن مستمرة إلى مد البصر ويسمونها بحيرة Rotomahana أى المستعرة ، ثم تسلقنا الربى مشيا إلى بحيرة أعلى منها وأعظم مساحة وهى بحيرة (Tarawera) التى انفجر من حولها البركان فى آخر ثورانه سنة ١٨٨٦ فغير معالم المكان إذ أباد



(شكل ٥٠) الطبخ والتسخين على حرارة الارض فى نيوزيلندة

بلادا وبحيرات وملأ أخرى بالمياه المستمدة من فوراراته وقد أرونا بقايا القريتين اللتين طمرهما بالطين الحار وأهلك أهلهما من الماورى وقد كان هناك بعض مساكن للجنس الأبيض وبعض الفنادق الكبيرة فأتى عليها جميعا . اخترقنا جانباً من تلك البحيرة فى زورق آخر ثم ركبنا سيارة هناك مرت بنا فى غابات من الصنوبر الذى زرعته الدولة للمستقبل ، ثم بدت أمامنا بحيرتان . الخضراء إلى اليسار والزرقاء الى اليمين والمكان محاط كله بمخاريط البراكين التى لا تحصى ، ولا تكاد تغيب عن العين الأبخرة المتصاعدة وأخيراً ظهرت بحيرة (رتوروا) نفسها وعلى جوانبها مدينة رتروا وقرى الماورى التى زرناها من قبل . منطقة ساحرة أحيطت بمجموعة من روائع الطبيعة من بحيرات وجبال وغابات ووديان وأخاديد وزودت بتلك الفوارات والمياه المعدنية الحارة فى شكل لم أعهده من قبل اللهم إلا فى أيسلندة بشكل أصغر منه هنا وهى تلى فى ذلك فوارات (يلوستون پارك) فى جبال الروكى من غرب الولايات المتحدة : فيلوستون پارك ورتوروا وايسلندة قد احتكرت منابع الفوارات فى العالم تقريبا ويسمونها Gysers وهى باللغة الايسلندية تدل على (النبع الفوار) . تعجب إذ ترى الناس يعيشون مطمئنين إلى تلك المخاطر المحدقة بهم فأذا خاطبتهم فى ذلك قالوا ذلك خير وأجدى لأن كثرة تلك الأبخرة المتصاعدة عندنا من بواطن الأرض هى خير ضمين بعدم حدوث انفجارات عنيفة أو زلازل مدمرة فكأنها صمام الأمن Safety Valve لبلاد نيوزيلند كلها .

حل المساء ودخلت غرفة الطعام وإذا بمظاهرة ترحيب بى من ركن من أركانها ولما أن الفيت جمعاً من السيدات الأمريكيات اللاتى كن معى على ظهر الباخرة (نياجرا) حييتهم وأخذنا نقص ما راقنا من تلك الجهات فقلن هلا جئت معنا لتحضر Maori Concert قلت نعم فذهبنا لحضور ذاك الحفل ، فأخذ فتيات الماورى بجمالهن الساحر وأرديتهن الجذابة وإلى جوارهن الفتيان

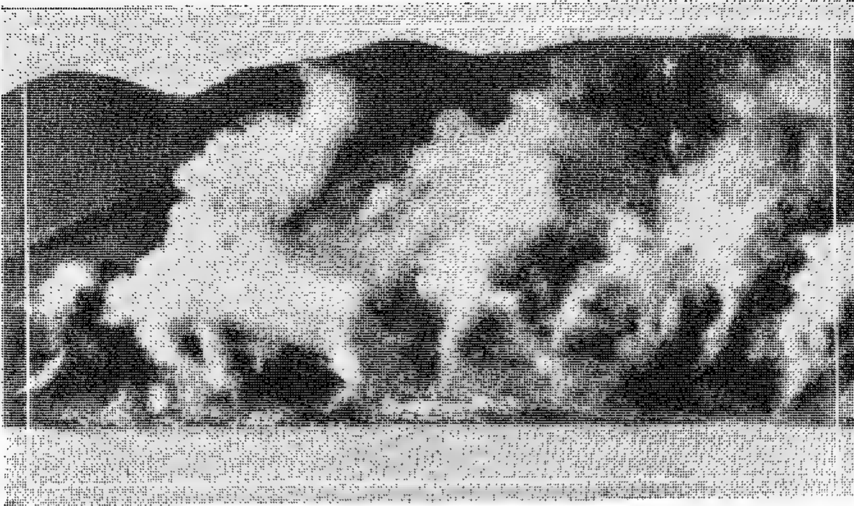


(شكل ٥١) تنتظر الغادة ريثما تشوى سلة البطاطس فى حرارة الفورات

يعرضن علينا طرفا من غنائهم ورقصهم (Poi) فكانت الأنغام مشجية وجلها محزنة من نغمة (الصبا) وقريبة شبه بأنغام (هواى) وكان الجميع يغنون سوياً ومنهم الصوت الرفيع والغليظ فى انسجام بديع ثم عرضوا رقصات مختلفة : فرقصة الزوارق وهن جلوس وراء بعضهن وأرجلهن ممدودة وأذرعهن تلمس الأكتاف ويحركن الأذرع والأرجل فيخيل اليك أنهن جمع من البحارة يجذفون ويرتلون . وتلك أحب الرقصات اليهم لأنهم شهروا بقدرتهم على بناء الزوارق النحيلة وركوبها فى عرض المحيط الهادى المديد . ثم رقصة الفرح ويقفن صفوفا متباعدة وكل صف يبـــدى حركات تغاير الآخر بالأيدى والأرجل وصف واقف والتالى له راكع أو جالس ولعل أغرب الكل ما يسمونه (Haka) وفى ذلك تنتهى الرقصة أو الأغنية بتكشير السحن ولى الجباه وتعويج الخدود وفتح الأبواق وإخراج الألسن فى شكل بشع

ويشفع ذلك بصيحة مزعجة ، ويحاول كل رجل وسيدة أن يظهر حركات غير التى يظهرها الثانى ، إلى ذلك الرفس بالأرجل وتلك يقصد بها تخويف العدو أو التهكم عليه أو إدخال السرور على الأخوان كل نوع بحسب المناسبة التى تتطلبه ، وتلك من أقسى الدروس التى يدرب عليها أطفالهم ولا يحترم الواحد منهم إلا إذا أتقنها مع أنها تبدو فى ظنى مظهراً وحشياً منفراً ، وقد تعرف هذه برقصة الحرب أحياناً ، وكنت أرى الأطفال يتمرنون عليها فى ألعابهم الخاصة وسط الطرق وكلما تحدثت إلى أحدهم بدرنى قائلا : هل رأيت الهاكا (Haka) كأنهـا أهم شىء فى نظرهم . وثم رقص دينى وكانت دياناتهم خليطاً من الخرافات وعبادة الجن والوثوق فى السحرة من القساوسة ويظهر أن الماورى عبد الطبيعة إلى حد كبير لأنك تراه يتخذ من مظاهرها أسماء له ولذويه ويميل إلى دفن جثته عند موته فى مكان ناء منعزل وسط غابة أو على بركان أو فوق ذروة جبل وعندئذ يصبح المكان مقدساً يحرم أن يقتل الانسـان حول القبر طائراً أو حيواناً وإن فعل عرض نفسه للقتل وكنت أرى تلك القبور الفردية قائمة وسط الشجر فى طريقنا وهم فى ذلك يشبهون اليابانيين .

والماورى يعد من أكثر الشعوب الفطرية عقـلا ورزانة واحتراما للنظام والقانون واستعدادهم للرقى عظيم وذوقهم الفنى تلمسه أينما سرت فى ملابسهم وشعورهم وتنسيق بيوتهم وبخاصة صناعة نقر الخشب وترصيعه وموسيقاهم مشجية . ومن فنونهم التى كانت شائعـة النقش على الوجوه فى رسوم مختلفة ولا يزال يرى أثر ذلك فى المسنين منهم وبخاصة النساء فكنت أراهن وقد خضبن ذقونهن بالوشم الأزرق فى أشكال عدة لكن تلك العادة آخذة فى الزوال اليوم إذ قلما كنت أشاهدها فى الجيـل الناشىء ثم عرجت على (Waitomo) على بعد مائة ميل إلى غرب رتوروا لأزور مغاراتها ذائعة الصيت فدخلت مجموعة من مغـارات تفوق تلك التى حدثتك عنها فى



(شكل ٥٢) شاطىء البحيرة الملتهبة (روتوماهانا) فى زيلندة

الجبال الزرقاء بقرب سدنى باستراليا لكن أعجوبة الجميع مغارة اليراع (Glow worm Grotto) . دخلناها وبعد أن قطعنا مفاوز ملتوية أشرفنا على بحيرة فوقها أقبية طبعية وهنا رأينا عجبا رأينا سماء تتلألأ بثريات تعدها بالملايين وهى تبهر النظر بضوئها وتحتها ماء البركة يعكس أضواءها فى مشهد عجيب ويتدلى من الأقبية خيوط رفيعة فى طول بين الشبر والشبرين وتلك مادة تفرزها اليراعة من فمها وتتدلى بها هكذا لقنص فريستها من البعوض والذباب والحشرات الصغيرة التى إذا ما رأت ضوء اليراع طارت إليه ومتى لمست الخيوط التصقت بها فلا تستطيع الأفلات وعندئذ تلتهم اليراعة الخيط أولا حتى تقرب الفريسة منها فتمتصها ثم تأكل ما بقى منها ، وتلك الخيوط تبدو محببة بيضاء واليراعة فى ضعف حجم الذبابة العادية وهى لا تسمع ولا ترى لكنها تحس تموجات الأثير بسرعة عجيبة وعندئذ تخفى ضوءها لكيلا يراها أحد ، لذلك نبهنا الدليل أن نسير على مهل وألا نتكلم قط ولا نسعل أو نبدى صوتا أو حركة عنيفة ونحن نركب زورقا تحت تلك السماء المتلألئة . وتلك اليراعة تمر على أطوار أربع : البيض والدودة

الصغيرة ثم الكبيرة — وهنا أكبر نشاطها وأقوى ضوئها — ثم طور الفراش، وتلك المغارة هي الوحيدة من نوعها في العالم ويعدونها إحدى عجائب الدنيا فكيف سلك اليراع سبيله إليها وكيف آوت طائفة من الحشرات في مائها الآسن ذلك مالا يعلمه إلا علام الغيوب .

قمت أبرح رتوروا عائداً إلى أوكلند مودعا طوائف الماورى أول من عمر بلاد نيوزيلند فلقد وفدوا إليها جماعات متفرقة بدأت أولاها سنة ١١٥٠م وأكبر مجموعة منهم وصلت سنة ١٣٥٠ ويذكرونهم باسم Tohungas أو القساوسة ويفاخرون بالانتساب اليهم وكل منهم إلى اليوم يعرف الزورق الذي جاء عليه جده فيقول لك الواحد أنا وفدت على Arawa والآخر يقول لا بل على Tokitimu أو Tainui أو Aotea أو Tokomaru ويخالونهم وفدوا من تاهيتي المجاورة ويسمونها Ha wauki ويقول مؤرخوهم ان أول كاشف لنيوزيلند الملاح Kupe من جزيرة Raiatea إحدى جزائر (سوسيتي) ورفيقه Mgake سنة ٩٢٥ م وعادا يقصان عن تلك الأرض الغنية غير المسكونة وقد أسموها Ao — tea — roa أى الأرض المشمسة ، وقد مضى قرنان ونصف بعد ذلك ولم يذهب أحد منهم اليها لكن زيلنده قد دخلها قوم من أخلاط الميلانيزيين والبولنيزيين وهؤلاء قد استعبدهم الماورى ولا تزال منهم بقية في جزائر شاتام ، ويقول العالم الاثنولوجيست الماورى Ti Rangi Hirowa أن سبب هجرتهم الضغط عليهم بالحروب في جزائرهم الأولى وتكاثر عددهم في تلك المساحات الضيقة ولا يعرف منشأهم باليقين ففيهم الدم المغولى وبعض أسماء أماكنهم وكذلك هم قريبو شبه بالزنوج في ضخامة أنوفهم وشفاههم ولكن المظهر الغالب الأبيض القوقازى فهل كان أصلهم من هنود أمريكا وفدوا إلى الجزائر أو من مصر جاءوا عن طريق الهند واليابان ذلك أمر لا يزال يفتقر إلى إثبات ولقد حار العلماء في ذلك حتى أسموا الماورى (لغز المحيط الهادى Riddle of the Pacific) . ولقد ظلوا أصحاب البلاد حتى جاء



(شكل ٥٣) رقصة ماأورية

الجنس الأبيض وأول من رآهم طاسمان سنة ١٦٤٢ ثم تلاه كابتن كوك سنة ١٧٦٩ ولما بدأ وفود الأوربيين خشى الماورى أن يغلبوا فى بلادهم فشنوا الحروب عليهم خصوصاً وأن طبقة المهاجرين الأوائل لم تكن من خيرة الناس خلقاً بل من المنفيين والمجرمين فأساءوا إلى الماورى واستبوا نساءهم ولقد دوخت تلك الحروب الأوروبيين وأدهشتهم بمهارة استعدادها وخفة حركاتها على أن عدداً لا بأس به ظل موالياً للانجليز وذلك هو الذى قصر أمد الحروب وتخصهم الدولة الآن بزهاء ستة ملايين من الأفدنة هى وقف عليهم وعلى ذويهم .

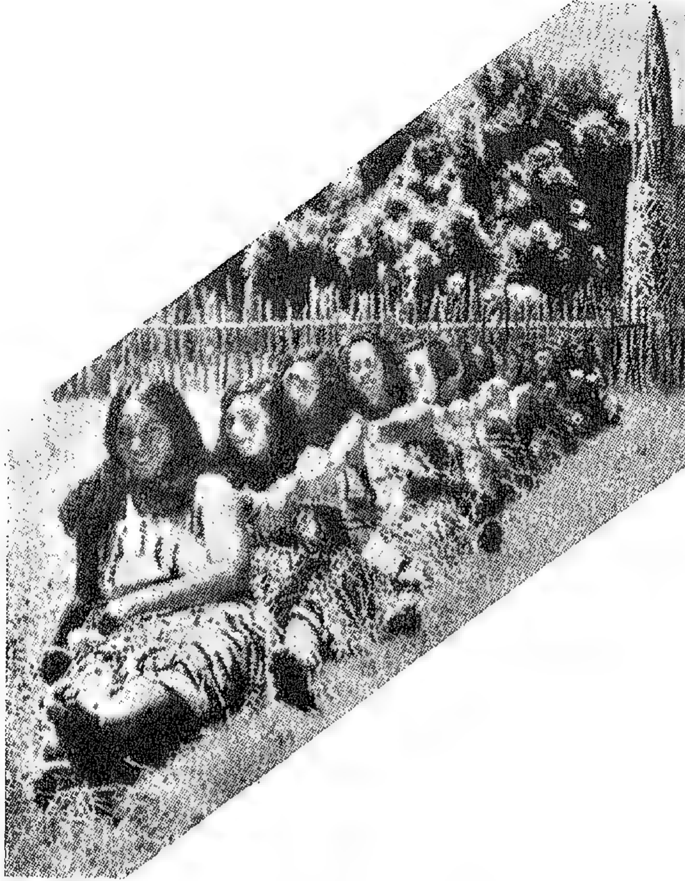


(شكل ٥٣) رقصة البوى أحبها لديهم

ولما رآهم كوك لم يكونوا يعرفون زراعة الحبوب ولا صناعة الخزف والمعادن والجلود ولم يمارسوا الرعاية وجهلوا الكتابة والقراءة لكنهم استطاعوا أن يعيشوا

بين الهمج مسودين ممتازين بفضل جدهم وذكائهم ولقد كانوا موضع الاحترام ومثار الفزع بذنابيتهم القاسـية ووجوههم المنقوشة وحروبهم الشعواء وشجاعتهم النادرة خصوصاً فى الملاحة وجوب البحار. على أن ميلهم للعاشرة وفرط أدبهم وحبهم للاستطلاع واستعدادهم للتعليم والتجارة ساعد على سرعة اختلاطهم بالأجانب وكانت معيشتهم فى نظام (كميونى) شيوعى يسوه زعماء أشداء ويدعمه سياج من تقاليد أسموها تابو Tapu وكانت تقوم دياناتهم على عبادة الأصنام المنوعة وكان قساوستهم الملقبون (Tohunga) هم أطباؤهم ورواتهم ولم يزد عددهم على ١٥٠ ألفاً وقد نزل اليوم إلى ٨٠ ألفاً بسبب الحروب وفتك الأمراض الصدرية بهم ورداءة الحال الصحية بينهم ولاستخدام الطباق والخمور والملابس الأوروبية لكن ظهر منهم علماء خدموا جنسهم وعنوا بثقافة بنى جلدتهم وبدأت دماؤهم تختلط بالبيض. وأكثرهم ينزل حول منابع المياه الحارة لأنهم استخدموها فى شئونهم ولا يزالون يحتفظون بالكثير من عاداتهم من بينها: التحية بمسح الأنوف ووضع اليد فى اليد أما التقبيل فيحتقرونه ويمجونه (وزهاء نصف سكان العالم كذلك المغول والملايو والبولينيزيين) الى ذلك لبس المعاطف من أهداب الكتان والتزين بالريش وسماع الموسيقى وممارسة الرقص وهم ميالون الى الرياضة وزعم أنهم مهروا فى كرة القدم والجلف فأنهم يحتفظون بألعابهم وبخاصة السباحة وقنص الطيور والمسابقة بالزوارق.

أقلنى القطار عائداً الى أوكلند وقد كثرت فى الطريق مزارع الأغنام وتعددت البلاد الصغيرة التى يشتغل أهلها بتصديرها هى ومنتجاتها وكنا نرى كثيرا من مصانع الجبن والزبد واللحوم ويقولون ان مقدار الڤيتامين الذى بها يفوق نظائرها فى البلاد الأخرى بفضل وفرة الشمس وجودة العشب، وقد استرعى نظرى فى الطريق أشجار يسمونها (Cobbage tree) كالنخيل الرفيع ينتهى بفروع على كل (شوشه) مسننة (كاللاتانيا) وكذلك فاكهة



(شكل ٥٥) رقصة البحر عند الماورى

مستديرة الشكل (Passion fruit) بغشاء قرنفلى مسود سميك كالجلد إذا كسرته ظهرت به مادة كالطماطم شكلا وطعما وهم يحبونها جميعاً رغم أنى ألفيتها منفرة المذاق جداً .

وفى صباح السبت ٢٥ يوليه غادرت زيلندة الجديدة تلك البلاد التى أحببتها الحب كله فهى قارة أو عالم مصغر حوى بدائع الطبيعة جميعها من جبال وثلوج وغابات ووديان وبراكين وفوارات وسهول ومروج كل ذلك تراه فى الجزيرة الشمالية ولقد فوتنى قصر الزمن زيارة الجزيرة الجنوبية بمشاهد روائع جبالها وثلاجاتها وبخاصة حول قمة Cook وفيوردات شاطئها الجنوبى الغربى البرى.

الذى لا يقطنه أحد وسهول كانتربرى الهائلة مقر مزارع الغلال فى تلك الجزائر مجال لكل زائر مهما اختلفت نزعته وحتى الحيوان الذى كان نادر الوجود بها أضحى اليوم وفيراً وتعجب إذ تعلم أنه عند ما كشف كوك الجزيرة لم يكن بها أى حيوان من ذوات الأربع وأقدم ما تراه اليوم هناك الحلوف ولقد كان مع كوك فى سفينته قليل منه يوم وصل البلاد فأطلقها هناك فسارت فى الأرض ونما عددها اليوم لذلك لا تزال البلاد عديمة الوحوش والأفاعى . وأهل البلاد بلغوا من المدنية والتهذيب حداً كبيراً يفوق كثيراً من بلاد أوروبا ولما يزد عمرهم هنا على مائة سنة إذ أول استعمار منظم للبلاد بدأ سنة ١٨٤٠ ونحو ٧٥ ٪ من السكان اليوم ولدوا فى زيلندة ، و ٢٠ ٪ فى انجلترا أعنى أن زهاء ٩٤٪ من السكان من أصل انجليزى و ٥ ٪ من الماورى وفوق نصف الناس من سكان المدن لذلك قل عدد القرى التى كنا نصادفها فى سفرنا هناك والدولة تشرف على الكثير من موارد الانتاج ولذلك كان موظفوها زهاء خمس مجموع السكان وهم يؤثرون التوظف فى الحكومة لأنها تدفع لهم أجورا عالية وليس للدولة دين خاص وجو البلاد معتدل جميعاً وهو صحى إلى أكبر حد فنسبة الوفيات عموما ٨,٤٨ فى الألف (استراليا ٩,٢١ وانجلترا ١٣,٧ وأمريكا ١٤,٥) وبين الأطفال دون سن السنة ٣٢,١١ فى الألف وهى أصغر نسبة فى الدنيا جميعا وكذلك متوسط العمر فهو ٦٥ سنة للرجال و ٦٨ للنساء وتلك أعلى نسبة فى الدنيا والسكان مرحون اجتماعيون مؤدبون كرام يسارعون بالمصادقة ولا عجب فتلك صفات أكسبهم إياها ركوب البحر فهم ملاحون بفطرتهم ومن كان يدير السفن لا بد أن يسحر المسافرين بظرفه وأدبه والزيلندى أكثر سكان الأرض ركوباً للبحر وقطعاً للمسافات البحرية الشاسعة وأساس موارد البلاد مزارع الرعاية وما تنتج من ألبان ولحوم وأصواف تلك التى يجزونها باليد والآلات وقد بلغ من مهارتهم أن الرجل ينزع الصوف كله من الشاة قطعة



(شكل ٥٦) تلك الرقصة قريبة شبه برقص الريف عندنا

واحدة فيبدو كأنه الفرو ولا بد أن تغمر الخراف قبل الجز فى سائل معقم. ويناهز عدد الأغنام بها أربعين مليوناً (لا يجاوز المرينو المليون لأن اللحم هو الأساس وليس الصوف كاستراليا) والماشية ٤ مليوناً أى أن كل فرد من السكان له بقرة حلوب وتسعة عشر رأساً من الغنم والقوم أغنياء لأن مجموع ثروة الأفراد قدرت بنحو ٦٤٥ مليون جنيهاً أى ٤٣٥ جنيهاً لكل فرد. وتوزيع الثروة متعادل ولا تكاد تحس فوارق الطبقات قط ومستوى المعيشة مرتفع جدا وحاجياتهم متعددة حتى بين أفقر الناس ويعد الزيلندى من كبار

أكلة اللحوم فمتوسط استهلاك الفرد يقرب من رطل من اللحم يوميا ونصف رطل من السكر وسبعة أرطال من الشاى فى العام فاذا استبعدت الأطفال والمرضى كان استهلاك الفرد الحقيقى أكبر من ذلك بكثير ويعد الشاى فى الشرب الجعة والويسكى ويكاد يشرب الشاى مع الأكلات جميعا ولا يحبه إلا قويا أحمر اللون قاتما . أما الألعاب وانهماكه فى مختلف أنواعها فذلك أمر يسترعى النظر فهو لا يقل عن الاسترالى فى ذلك وأنت ترى حوانيت بيع مهمات اللعب فى كل شارع وفوق نصف أوراق الجرائد نشر عن الألعاب المختلفة وبيع تذاكر السباق والكرة والجولف وما اليها يعرض ويروج له باعلانات كبيرة تعلق فى كل مكان وقد حضرت يوم لعب فريق منتخب زيلندة مع فريق انجلترا فهالنى ما رأيتـه من تهافت على شراء التذاكر وزحام مدهش داخل الملعب وخارجه .

قمت أودع تلك البلاد التى حباها الله فى نطاقها الضيق الذى لا يزيد على مساحة انجلترا الا القليل بجميع محاسن الدنيا — جو بديع مشمس لا تبلغ حرارته فى الصيف حد المضايقة ولا تنزل فى الشتاء الى ما دون ما تشتهى النفس . وأرض وفيرة الخيرات من خصب فى التربة وملاءمة للحبوب والفاكهة والرعاية والغابات ، الى معادن فى كنوز لا تزال ذخراً للمستقبل وروائع للطبيعة لا تجتمع فى مثـل هذا الحيز من بلاد الأرض الأخرى . وأناس هم للظرف عنوان وللأدب والكرم مورد وحتى الماورى من الانسان الفطرى كان أجمل همج العـالم خلقة وأدناهم من الرقى ذوقا وأكثرهم ظرفا وأدباً .

ومن العجيب أنها آخر البـلاد التى كشفها الجنس الأبيض رغم أنهـا أنسبها لسكناه وذلك لشديد بعدها عن العالم فهى فى معزل عن سائر القارات وحتى عن استراليا نفسها فهى تبعد عنها بنحو ١٢٠٠ ميل وعلى الرغم من ن ذلك قد وقف فى سبيل رقيها الاقتصادى والتجارى فأنه أفادها من حيث



(شكل ٥٧) الرقص ضروب شتى عند الماورى

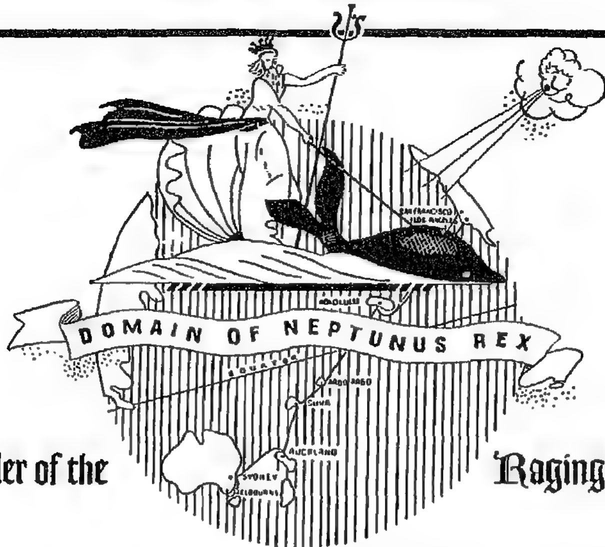
مجموعة سكانها لأن بعد الشقة قد نجاها من الفقراء والجهلة ومن أقل الناس اقداماً وجرأة وكفاءة . فالمهاجرون اليها جاءوا عن طريق الحكومة البريطانية أو من الاثرياء المقتدرين على جوب تلك البحار الشاسعة لذلك نشأ بها شعب ذكى نشيط انتشر على قلته فى مساحتها التى تعادل مساحة ايطاليا وتزيد قليلا على مساحة الجزائر البريطانية نفسها .

ركبت الباخرة الأمريكية Monterey لشركة Matson وهى من أجمل بواخر هذا الخط وأكبرها وكان فى وداعى على البحر بعض الأصدقاء الذين تعرفت بهم فى رحلاتى هناك وقد أحضروا إلى بطاقات الزهور وعند ما آذنت الباخرة بالرحيل نزلوا الى الرصيف وأخذوا يقذفوننى بكرات من أشرطة الورق الملون أمسك بطرف وهم بالطرف الآخر لتظل صلة المودة متصلة بيننا الى أبعد حد وكلما تنحت الباخرة عن المرسى أطالوا الشريط وكان جمهور المودعين الكثيف يسد الجو بتلك الأشرطة ، وأخيراً بدأت جوانب

الميناء تتضاءل وتتقارب وينحصر جمالها حتى كنا فى عرض البحر بعد ساعة من الزمن ثم ظلت جبال زيلندة وجزائرها الصغيرة تبدو طوال النهار . وكان جل المسافرين من الأمريكان والاستراليين والزيلنديين وكلهم متقاربون فى الخلقة والخلق وكان المحيط الهادى رفيقا بنا وديعاً فلم يحرك من غضب موجه شيئاً مع انا كنا نقرأ أن زوابعه المجانبة لشواطىء اليابان وتسمى (تيفون) تجتاح تلك البلاد وتدمر من قراها وتتلف من أرواحها الكثير وظل على هدوئه هذا ثلاثة ايام إلا قليلا حتى أقبلنا على جزائر

فيجى : فانفسح أمامنا خليج مستطيل تحفة جوانب جبلية تكسوها الخضرة الكثيفة ويزين مدخله عقد من زبد البحر ورغاويه يبدو أبيض ويكاد لا يترك من المدخل الا شطرا ضيقا وذلك حاجز مرجانى Coral reef كنا نرى بعض نوائيه شعابه بارزة فوق الماء وعليه تتكسر الموجات فترغى وتعطى ذاك اللون الأبيض الجميل . رسونا على رصيف الميناء وكان الجو أغبر ماطراً لكنه ما لبث ينكشف وما مضى الظهر حتى بدت الشمس ناصعة بين بقع السحاب المنثور . أخذنا سيارة طافت بنا زهاء ساعتين بين وهاد ونجاد تسدها الخضرة سدا وهنا وهناك تبدو الأكواخ الخشبية فى الأحياء الراقية واخصاص من الحشائش للأحياء الفقيرة والناس جلهم من الفيجيين ذوى الوجوه المفلطحة العريضة والأجسام المفتولة الطويلة فهم من العمالقة نساء ورجالا .

وأعجب مايسترعى النظر فيهم شعرهم فهم جميعا يتركونه ينمو رأسياً فى هالة قد تزيد على الشبر طولا للنساء والرجال معا والشعر أجعد خشن أسود وقليل منه مصفر وهم يسيرون حفاة الأقدام عراة الرءوس دائما أما الملابس فتحكى لفائف الهنود أسفل الجسد فى ألوان مزركشة واللون الاحمر غالب عليها وقد يترك أعلى الجسد عارياً وهم على جانب كبير من الرقة والوداعه



Ruler of the Raging Main

To All Sailors wherever ye may be, *and to all Mermaids, Sea Serpents, Whales, Sharks, Porpoises, Dolphins, Skates, Eels, Suckers, Lobsters, Crabs, Pollywogs and other Living Things of the Sea.*

Greeting: Know ye: *That on this* 31st *day of* July, 1936, *in Latitude* 00000 *and Longitude* 165°30' *there appeared within the limits of Our Royal Domain, the*

S. S. Monterey

That the said Vessel and Officers and Crew thereof, have been inspected and passed on by Ourself and Our Royal Staff . . . **And Be It Known:** *By all ye Sailors, Marines, Land Lubbers and others who may be honored by his presence, that*

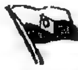
MOHAMED SABIT FARIS

having been found worthy to be numbered as One of Our Trusty Shellbacks, *has been gathered to our fold and duly initiated into the*

Solemn Mysteries of the Ancient Order of the Deep.

Be It Further Understood: *That by virtue of the power invested in me, I do hereby command all my subjects to show due honor and respect to him whenever he may enter Our Realm* Disobey this Order under penalty of Our Royal Displeasure.

Davy Jones
His Majesty's Scribe



Neptunus Rex
Ruler of the Raging Main



« نبتيون » اله البحار يشهد لنا باجتياز خط الاستواء ويتهدد من يمسنا بسوء وقد أسبغ علينا هذه (الدبلوم) المذيلة بأمضائه الـكريم

ينظرون إليك ويبتسمون ثم يسارعون بالحديث والتودد إليك ولا يهمهم من أمر الدنيا شيء فهم قانعون أبداً ويشعرون بسعادة الحياة كاملة . أما سحنهم فمنفرة فى الغالب وإن كانت أجسادهم جميلة أميل إلى السمن . ويختلط بهم الهنود فى كثرة عجيبة فى المدينة والقرى جميعا ويقومون بغالب الأعمال التجارية وشتان بين أجسادهم الناحلة الضئيلة وجسوم الفيجيين كاملة النمو . زرنا بعض مدارسهم وللفتيان مدارس معزولة عن مدارس البنات وكان عدد المدرسة أربعمائة طالب منهم من يفوق العشرين عاماً فى السن وهى مدرسة ابتدائية تديرها جماعة المبشرين ولا يكادون يتقاضون من المصاريف إلا النادر ولا تزيد على خمسة شلنات فى العـــام وهم يضعون فى كل حجرة طائفتين من الطلبة قسم للهنود وقسم للفيجيين ويتعلمون الانجليزية ثم لغتهم الخاصة . ولغة الفيجيين لم تكن تكتب لكنهم يكتبونها اليوم بحروف انجليزية وبعض الفرق كانت تتدرب على فلاحة البساتين وكانوا يزرعون التابيو كاشتلا وأخرى كانت فى درس أشغال يدويه يصقلون قشور النرجيل وينقشونها ليصنعوا منها كؤوس الشرب . وقد بدأ الفيجيون يحقدون على الهنود الذين كادوا يحتكرون كل شيء فعددهم فى الجزائر كلها زهاء ٧٥ ألفا مع أن عدد الفيجيين ٩٢ ألفا . أما سكان مدينة سوقا فهم ١٤ ألفا وهى العاصمة وتقع فى الجزيرة الرئيسية (Viti Levu) والجزائر عديدة تفوق ٢٥٠ جزيرة لكن المسكون منها زهاء ٨٠ ويخترقها خط طول ١٨٠° فبعضها يقع غربه والبعض شرقه والذى يسير من الغرب — كما نسير نحن فى رحلتنا — يربحون يوما فلقد كان يومنا أمس الثلاثاء ٢٨ يوليه فأصبحنا اليوم الثلاثاء الثانى أيضا ٢٨ يوليه وكنا نعتقد أنه الأربعاء فقيل لنا لا بل الأربعاء غداً . أما إذا كنا وافدين من الشرق من أمريكا سائرين إلى الغرب فاذا كان أمس الثلاثاء فاليوم الخميس إذا اجتزنا الخط ومررنا بالنصف الغربى بالجزائر وبذلك نخسر يوما يضيع علينا فلا نذكره ولقد قابلنا ركاب باخرة أخرى فى سوقا وكان



(شكل ٥٨) رقصة الها كا فى مظهرها البشع

المسافرون معتقدين أنه يوم الأحد فأصبحوا هنا الثلاثاء وبذلك (نطوا) الاثنين وانى لأعجب لسرعة تغير الجو فلقد أصبح الحر لا يطاق هنا والشمس محرقة والسير مجهدا مع أنه منذ ثلاثة أيام كانت تصطك أسناننا من أثر البرد القارس يوم برحنا زيلندة وماذا عسى أن يكون الحر فى الأيام القليلة الآتية ونحن مقبلون على خط الاستواء — وجزائر فيجى تقع على ١٦° جنوبا تقريبا — والشمس عمودية الآن على عروض الشمال (١٢° ش) والفيجيون شعب من الميلانيزيين الذين ينتمون إلى الجنس الزنجى والجزائر مستعمرة بريطانية منذ ١٨٧٤ . أخذنا نطوف سيرا على الأقدام بعد أن تركنا السيارة ونسير من ربوة لأخرى وسط أراض وفيرة الخصب متعددة الثمر والشجر وكنا نبصر بوفرة الأناناس والمانجو والباباز والتابيوكا والتارو (taro) وهو جذر شجيرة كالموز منتفخ من أسفله (كالقلقاس) يعدون منه مادة نشوية مغذية ، أما النرجيل فحدث عن كثرته فأنت ترى شجره فى كل مكان خصوصا ازاء الشاطىء وعنده ترى الشجر منحنيا إلى الماء دائما رغم علوه

الشاهق وتلك من طرق النشر الطبيعى لأن الثمر الكثيف إذا نضج سقط بعضه على الماء فحملته الأمواج بعيدا إلى الجزائر الأخرى فنما شجرا جديدا وانتشر بذلك هذا النوع ، وكنا نرى القوم دائبين على أكله وشرب مائه اللذيذ وهم يجهزون دهنه ويبيعونه ليدهنوا به جسومهم مقاومة للحر وتقوية للشعر وتجميلا للبشرة كما يقولون ولذلك كانت رائحة الجزائر كلها أينما سرت والناس جميعا تشع هذا الدسم الذى قد يكون زنخا كريها ، ومن الشجر الذى ألفت نظرى بجماله ورونقه شجرة السائح (Travellers Tree) فى مروحة هائلة وتمتد أضلاعها فى أعلى الساق بانتظام هندسى بديع وورقها يحكى ورق الموز تقريباً ، سلكنا سبيلنا الى الباخرة وهناك فى مجاورة رصيف الميناء عرض الفيجيون تجارتهم من الأصداف وشعاب المرجان الملونة بديعة الأشكال الى عقود المرجان الى أسلحة القوم من سهام وقسى ومطارق وزوارق خشبية صغيرة وأعجبها المزدوج فترى زورقين بينهما شبكة عريضة من شرائح الخشب المزركش ليقام عليها مسكن فوق الماء وأخذ كل يحاول اجتذاب أنظارنا الى سلعه فى رقة وفى غير ذاك الالحاف المقيت الذى نلاحظه فى بائعى الهند وبور سعيد مثلا .

وفى الخامسة مساء آذنت الباخرة بالرحيل وعزفت موسيقاها كما هى العادة كلما أقبلنا على مكان جديد أو انصرفنا عنه فأخذت جوانب الميناء تتقارب وينحصر جمالها بخضرتها الناصعة وبيوتها الحمراء نثرت على المنحدرات وجماهير الناس يودعوننا بهز أيديهم ومناديلهم والفيجيون يشبهون الماورى فى رقتهم وأجسامهم وخفة روحهم ومرحهم الدائم ، لكن شتان بين جمال الماورى وبين وجوه هؤلاء التى يندر أن ترى بها مسحة من جمال .

برحنا الجزائر نشق المحيط الهادى فى طريقنا الى الشمال الشرقى وبعد يومين كاملين أقبلنا على جزائر ساموا الامريكية التى تعد من أكبر القواعد البحرية فى المحيط الهادى فبدت الجزائر تكسوها الخضرة وتعلو جبالها علوا



(شكل ٥٩) (هاإيريرا) أو نظرة الوداع

كبيراً . دخلنا خليجا مستطيلا منتظم الجوانب وفى نهاية المرسى مدينة Pago Pago عاصمة الجزائر وينطقونها (پانجو پانجو) وكان ذلك صباح الأربعاء ٢٩ يوليه نزلنا إلى البر وركبنا سيارة مرت بنا مسافة بعيدة على حافة الماء فوق صخور جلها بركانى عتيد ومن ورائها الجبال الشاهقة كانت تعلو فوقنا علواً رأسياً شاهقاً وكلها تكسى بكثيف الغاب ونخيل النرجيل ويكاد الشاطىء كله يحف بسلسلة متصلة من هذا النخيل وكنا نرى المبانى الخشبية المنسقة تكتظ متقاربة عند المرسى وهى للأدارة الحكومية والبنوك ومحال التجارة ومساكن البيض ثم تتبع ذلك أكواخ منثورة قد تكون فردية منعزلة للسكان الوطنيين وفى نهاية المسافة انفسح الجبل وترك بسيطاً من الرمال أقيمت عليه القرية الرئيسية هناك واسمها (Nuuuli) . هنا استقبلنا الأهالى بوجوههم



(شكل ٦٠) (هاإيريتاى) أو نظرة الترحيب

السمحة وسحنهم الجميلة نساء ورجالا وأطفالا ودعونا إلى ساحة الرقص فدخلناها وجلسنا وإذا بثلاثة صفوف من فتيات لبسن حول الخصر حزاماً عريضاً له ذؤابات تتدلى إلى القدمين وتركن النصف الأعلى عارياً بلونه الأسمر الخمرى الجذاب وأجسادهم الممتلئة صحة ونشاطاً ووجوههن الجذابة وأخذ قائدهن ينقر على صفيحة بعصاه نقرات منتظمة وهن يرقصن وقوفا وقعوداً ويغنين ثم يختمن الأغنية والرقصة بضربة من الأقدام وصيحة عالية . وكان الرجل يعلن عن اسم كل رقصة . وتطوف علينا الفتيات بجوز الهند الطازج وقد شطفن ناحية لنشرب ماءه اللذيذ وتلك تحية لقدومنا .

خرجنا نطوف البلدة واذا بها مجموعة أكواخ من قوائم خشبية يغطى ما بينها القش والعشب وقد يكون البيت مستطيلا متحدر السقف أو دائرياً مخروطي الغطاء وفى وسط البلدة دار فسيحة لعقد الاجتماعات ، وللقرية أربعة رؤساء (زعماء) وهم الذين يتكلمون ويخطبون فى المجتمعات مدافعين عن صوالح ذويهم ، وكنا نرى أطلال بيوت مهشمة قيل لنا أن (أعصار الهركين) مر بها فاجتاح منها الكثير .

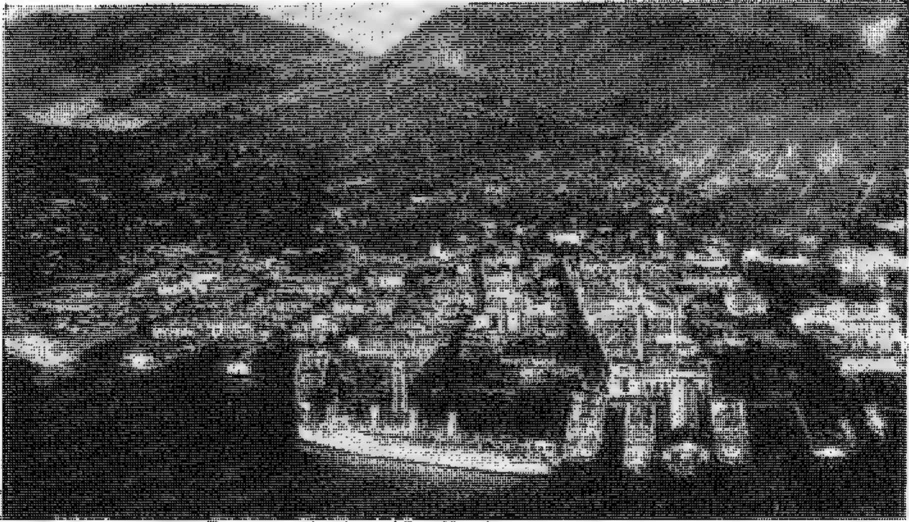
وقد استرعى نظرنا جمال السحن وجاذبية اللون الخمرى خفيف السمرة وهم قريبو شبه (بالماورى) فى زيلندة الجديدة ولكنهم بعيدون البعد كله عن أهل فيجى الزنوج وكثير منهم خصوصا النساء يرسلون شعورهم السوداء البراقة الهادلة التى تزيدهم رونقاً وجمالا وليس بالجزيرة عدد كبير بل هم قليلون وهم من الجنس البولنيزى ويبدو لنا من أشكالهم أثر الجنس الصينى واضحاً وكم كان سرورهم بوفودنا كبيرا فهم يشعرون بالأنس الكبير كلما وفدت عليهم باخرة وكانوا يتطوعون جماعات لارشادنا ولا يبتغون من وراء ذلك نفعاً ، وكثير منهم كان يعرض علينا صداقته وعنوانه لنكاتبه نساء ورجالا وبعضهم كان يقدم عقود المرجان وبعض أشغال الخشب المنقور هدية لنا ويرفض أن يتقاضى ثمنها . وقد عرض الكثير منهم سلعهم



(شكل ٦١) ملابس أهل زيلنده بسيطة جذابة

علينا وجلها من منقور الخشب الملون فى أسلحة وزوارق وعصى ثم أشغال القش من سلال ملونة ثم أرديتهن خصوصا الحزام الذى تتدلى منه تلك الأهداب الطويلة وقد نقشوا عليه اسم بلدتهم ، ومن أجمل ماعرضوا قطع الاقمشة الملونة التى دقوها وصقلوها من قشور الشجر (bark cloth) تبدو كالورق أو القماش المنشى وهو متين جداً ، ومن أبدع المناظر عقود الزهور الضخمة الملونة الطويلة يلبسونها جميعا رجالا ونساء وكلما ذبل واحد أعاضوه بغيره وهم يفتنون فى تنسيقه فيبدو رائعا ولا تكاد ترى واحداً يمشى بدون ذاك العقد يتدلى على صدره وقد ألبسونا تلك العقود لما أن دخلنا دارهم . ولقد عزفت فرقة الموسيقى وغنى معها جمع من الفتيان على شاطىء البحر تجاه السفينة وداعا لنا عند قيامنا . وعند الساعة الواحدة بعد

الظهر ركبنا الزورق الصغير فأقلنا الى السفينة التى ترسو على بعد من الشاطئ. وقامت بنا تتنحى عن ذاك الخليج البديع ثم لبثنا نمر بمجاميع من جزائر صغيرة يجملها ذاك النبات الكثيف الذى يكسو رباها الشاهقة ونخيل النرجيل الانيق الذى يزين شطآنها حتى اختفت عن الانظار وعدنا منعزلين وسط مياه المحيط الهادى الساكن الرهيب ونحن نتحدث عن جمال تلك الجزائر وجاذبية أهلها. وساموا بجموعة من جزائر أهمها ثلاث : الاثنتان الغربيتان تديرها زيلاندة الجديدة منتدبة عن عصبة الامم وقد كانتا لالمانيا قبل الحرب و أهلها زهاء ٤٥ الفا والثالثة الشرقية لامريكا وسكانها ١٢ ألفا .



(شكل ٦٢) ميناء هنولولو فى حجر الجبال البركانية

هونولولو
جنة الباسفيك وجوهرة المحيط الهادى



(شكل ٦٣) لايفتر ثغر فتيات هونولولو ألا عن ابتسامات دائمة

ثم كان يوم الاثنين ٣ أغسطس حين بدت فى باكورة الصباح الربى البركانية لجزائر هواى وهى سلسلة من جزائر أكبرها اثنتا عشرة من بينها ثمان مأهولة بالسكان وأكبرها الجنوبية التى تسمى هواى والتى بدا منها قبس بركان Kilauea الثائر مقر الآلهة فى زعمهم . وأخيرا أشرفنا على جزيرة (Oahu) كثيرة الذرى وأهمها موناكيا (١٣٧٨٤ قدم) وموناالوا (١٣٦٧٥)،

وفى جانب منها دخلنا ميناء هنولولو فى قوس ضيق المدخل وكانت تقوم فى تلك المياه مظاهرة بحرية لقطع الأسطول الأمريكى إذ الجزائر تعد أمنع القواعد البحرية فى المحيط وهى تسمى بحق (جبل طارق الباسفيك) استعرضنا الطبيب ثم تقدمت الباخرة من الرصيف وكانت شرفاته وجوانبه تغص بجموع المستقبلين تتوسطهم الموسيقى الرسمية التى تعزف استقبالا لكل باخرة ووداعا لها وتلك عادة اتبعت منذ عهد مليكهم كاميها ميها الخامس سنة ١٨٧٢ وكان برج الميناء الشاهق الأنيق يشرف علينا تعلوه ساعة كبيرة وتزين جوانبه الأربعة كلمة Aloha ألوها — كتبت بالخط الكبير ومعناها مرحبا (أووداعا) وما كادت تقف الباخرة حتى هاجم المستقبلون أحبابهم وبيد كل منهم مجموعة من عقود من الزهر مختلف ألوانه فى جمال لا يحد وأخذوا يحلون بتلك العقود أعناق أصحابهم وكان باعة هذه العقود وغالبهم من الفتيات ينتشرون فى جميع الطرق المؤدية إلى الميناء فى كثرة تلفت النظر وتسمع نداءهن فى كل مكان وزهاء مائتى نفس مهنتهم إعداد تلك العقود ويسمونها Leis فى هنولولو ولا يقل ما يباع منها سنويا عن ٦٦٠ ألفا بسعر شلن لكل واحد أى نحو ٣٣ ألف جنيه ، هذا خلاف ما يباع فى الجزائر الأخرى ، ولا يقل ما يلبس هناك عن مليون عقد فى السنة وتلك من أجمل الظواهر التى تسترعى نظرك وأنت تسير بينهم وبعضهم رجالا ونســاء يلبس عشرة عقود كبيرة فى ألوان مختلفة .

استأجرنا سيارة بخمسة عشر ريالا — وكنا خمسة أشخاص — لتطوف بنا البلد وتستوعب الجزيرة كلها وأخذنا نشق شوارع البلدة وكأننا نسير فى إحدى كبريات مدن أمريكا تماما فالمبانى رشيقة ومعروضات الحوانيت جذابة وحركة المرور وبخاصة السيارات تسد الطرق سدأ حتى صعب علينا استخدام آلة التصوير فيها ، وجماهير المارة فى الطرق كثيفة متعددة الأجناس فالى جانب الوطنيين ذوى الشعر الأسود المرسل والسحن المفلطحة واللون



(شكل ٦٤) التحية بين ماورى زيلندة بمسح الأنوف

الاسمر والعيون الكبيرة والقامات الطويلة ، رأينا عدداً غالبا من اليابانيين في أرديتهم الفضفاضة ثم البرتغاليين ثم الصينيين والفلبيين بسحنهم العجيبة وقليل من الهنود فى جسومهم الناحلة ثم الكوريين فى أكمامهم المنتفخة هذا إلى الأمريكيين والغرباء من سائر سائحى العالم فكأنها بلدة عالمية ترى أحدث أزياء باريس تسير جنبا لجنب إلى جوار الأردية القومية ذات الذؤابات من العشب وتشاهد ملاعب الجولف والبولو إلى جوار اللعب بالزوارق انزلاقا على حافة الامواج وتلك أحب صنوف اللعب عند الوطنيين فهى بلدة بولينيزية تعيش فى جو أمريكى بلغ من المدنية شأوا فالحياة البولينيزية الفطرية تظلها أحدث المدنيات وأرقاها . ومجموع ذاك الخليط فى جزيرة Oahu (وتعنى الكلمة : مكان الاجتماع) هذه ٢٠١,٦١٠ وفوق نصفهم فى هنولولو وحدها واليابانيون يفوقون ثمانين ألفا . أما سكان الجزائر كلها فنحو ٣٨٠,٢١١ نفسا ثم مررنا ببعض المعابد اليابانية والبوذية وكثير من الكنائس ولعل أجملها كنيسة (Kawaiahao) التى بنيت من صخور المرجان وشعا به لكثرته

حول تلك الجزائر . ثم وصلنا بعد ميلين إلى أجمل شطوط الجزيرة ويسمى (Waikiki beach) هنا انفسحت مدرجات الرمال النقية إلى مد البصر وأقيمت (الڤلات) الانيقة واكتظ الشاطىء بالمستحمين وبالمقاهى والنزل الفاخرة ومن بينها نزل (Waikiki) الذى بلغ من الوجاهة والامتداد حدا كبيراً جلسنا الى الشاطىء لنرى أعجوبة الرياضة البحرية هناك ويسمونها (Surfing) ترى الفتيان والفتيات يمتطى كل منهم زورقا نحيلا أو لوحا من خشب مدبب الاطراف ثم يحركه برجليه وهو واقف عليه فيجرى الزورق ويعلو ويهبط وفق تكسر الموج على الشطوط هناك فى سرعة وخفة حركة لم أر لها نظيرا وهو خلال ذلك يميل ويجلس وينام ثم يعود واقفا والزورق يجرى فى اهتزاز مخيف ويساعد على تعاقب الامواج الخفيفة كثرة شطوط المرجان وتلك لعبة ملوكهم منذ القدم يتعلقون بها الى حد المخاطرة . أخذنا نسير بعيدا عن المدينة ونوغل فى ريف الجزيرة وكنا نمر ببيوت فاخرة ذات حدائق منسقة قيل لنا بأنها مصايف أكبر ممولى أمريكا (المليونيرز) وأشهر نجوم السينما فى هوليوود يفدون إليها لتمضية فصل الصيف كل عام ، أما القرى فقليلة نادرة السكان بيوتها خشبية صغيرة أو أخصاص مجدولة من العشب وألياف النرجيل . وكانت مخاريط البراكين الخامدة تحوطنا من كل جانب فحول هنولولو وحدها عشرون فوهة بركانية خامدة وكانت الطرق المرصوفة تلتوى بنا حول تلك النجاد صعوداً وهبوطاً فى وعورة مخيفة ثم وقفنا إلى جوار صخرة Bali الشاهقة المدببة فبدا منظر الوديان الخضراء من دونها رائعا ولم نستطع الوقوف بها طويلا لشدة عصف الريح التى كادت تلقى بنا جميعا وتلك البقعة لا تهدأ عواصفها أبدا وهى أشد بقاع الجزائر عنفا فى هوائها ومن جانب تلك الصخرة هاجم أحد ملوكهم Kamehameha عدوه Oahu وألقى به وبجنوده إلى أسفلها مسافة ٦٠٠ قدم فماتوا جميعاً . اما عن ثروة الجزيرة بزهورها المختلفة فذلك لم أشاهده فى ناحية أخرى من



(شكل ٦٥) لاتزال لعادة الوشم فوق الوجوه بقية بين الماورى

الكرة الأرضية فيكاد يرى الشجر والعشب كله مزهراً وفى أشكال ساحرة ورائحة عبقة وألوان لا آخر لها وأظهر تلك الزهور جميعا الهبسكس ويعدونه الزهر الرسمى وهو رمز الجزيرة ولا تقل أنواعه المختلفة الألوان عن ٢٥٠٠ وتكاد تجدها جميعا فى حديقة هاو اسمه Kooper يدير فندقا على بعد ٣٠ ميلا من هنولولو والنبات يزهر طول العام وتبقى الزهرة يوما واحدا لذلك تقطع كل مساء لتخلى مكانها لزهرة أخرى فى الصباح . ومن أعجب الزهور عباد القمر فى كأس أصفر كبير تراه ذابلا منكمشا فى النهار

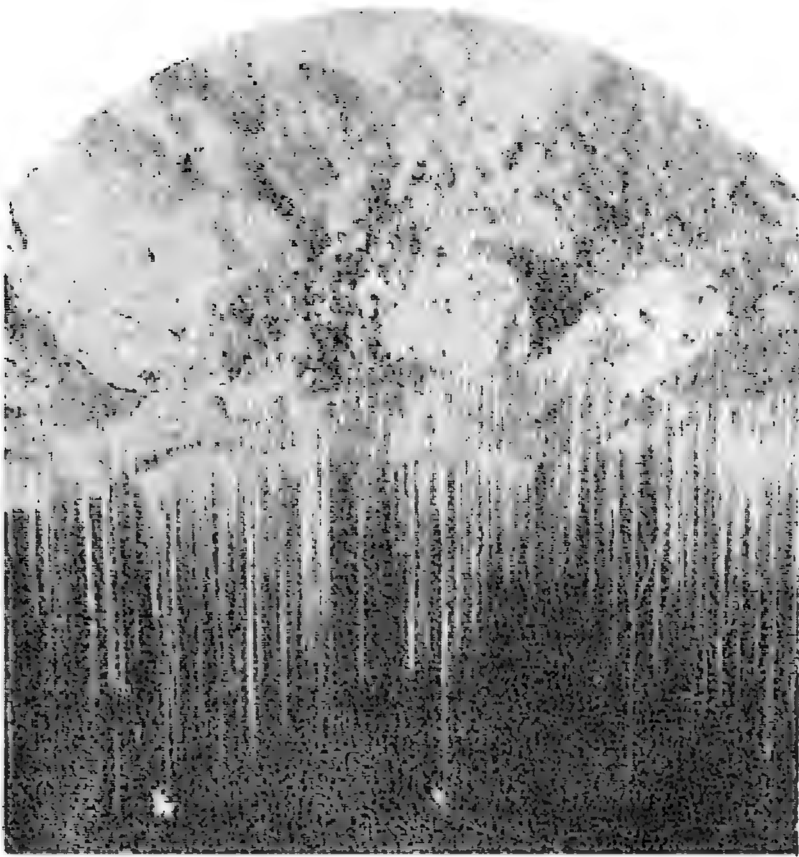
فاذا ماغابت الشمس وحل الظلام أو انتشر ضوء القمر قام وتفتح ويسمونه Cereus . فلا تكاد تقع العين على مكان يخلو من تلك الزهور المنوعة الجميلة لذلك لم أعجب لانتشار عادة لبس عقود الزهر حتى بين طبقة العمال وهم يفلحون الأرض أويرصفون الطرق حتى أضحى عقد الزهر شعاراً لتلك البلاد ورمزا للوداع والاستقبال . ومن أجمل ما استهوى أنظارنا مشهد حقول الأناناس تنتشر إلى الأفق فوق أرض مموجة وفى تخطيط هندسى بديع . والنبات يبدو كالصبار يتوسطه كوز مصفر محبب من الثمر تزين قمته ذؤابة مورقة وقد تزن الثمرة الواحدة ١٢ رطلا ومن تلك المزارع عشرون ألف فدان فى تلك الجزيرة وهو أجود أنواع العالم حلاوة وطراوة وحجماً ويتطلب عناء كبيرا فى زرعه فبعد زرع البذور يشتل ثم يرش بالسائل المطهر ثم يلف فى ورق لحمايته وهو صغير على أنه لا يتطلب ريا بل ينمو على مياه الامطار وأول ثمره يظهر بعد ١٨ — ٢٤ شهرا ثم تقطف الثمرة الأولى فتخلفها الثانية بعد ١٢ شهرا ثم الثالثة فى السنة الرابعة ثم ينزع من جذوره وتزرع الأرض خضرا ثم يعاد زرعه من جديد وهو يزكو فوق المرتفعات المموجة . ويعد ثانى حاصلات الجزيرة بعد قصب السكر وكنت أرى عربات سكة الحديد تجرى وسط الحقول لتنقل الثمر إلى المصانع وقد زرنا أكبر مصانع الدنيا للاناناس وهو فى هنولولو نفسها . فكان الثمر يقشر بآلات ثم يجرى على أشرطة ليمر أمام الفتيات اللاتى كن يلتقطن ما تخلف فيه من زوائد القشر ثم يرتبن القطع حسب النوع والحجم ثم تساق القطع إلى المخرطة لتقطيعها ثم تمر على فريق آخر من الفتيات لوضعها فى العلب ثم تدفع العلب إلى معمل العصير والسكر لرشه (بالشربات) من عصيره مع قليل من السكر ثم يعقم وتقفل العلب وتشحن . وهنولولو اكبر جهات العالم تصديرا له ومن أظرف ما استرعى أنظارنا فوق المصنع شكل ثمرة أناناس هائلة تبلغ عشرات الأمتار طولا فى لونها البرتقالى المحبب وذؤابتها الخضراء ، وتلك هى



(شكل ٦٦) شيخ ماأورى يرتدى الفرو ويزين وجهه بالوشم والتجريح

مستودع المياه اللازمة للمصنع أقيمت على علو شاهق لتمده بالماء من جهة ولتقوم اعلانا على انتاج المصنع من جهة أخرى وهى أعلى شىء يراه المرء إذا حل المدنية وكانت حقول قصب السكر تملأ المنخفضات إلى الآفاق وكانت أعواده بالغة الطول لكن عقده قصيرة وهو ينضج هناك فى ١٨شهرا ويحصد فى كل شهر تقريبا فترى القصب الناشىء الصغير فى جانب والناضج الكبير فى الآخر. ولا يجدد زرعه إلا كل ٨—١٤ سنة ومصانعه هائلة. وهناك فرع كيمائى تحليلى خاص به ملحق بالجامعة والأبحاث تتقدم سراعا ففى كل عام يصلون إلى تحسين نوع القصب وعصيره واستئصال آفاته بنجاح ليس له نظير فى أى جهة من الدنيا ولقد اقترح أحد أساتذة الجامعة هناك إيفاد بعض الطلبة المصريين الى هذا الفرع كما يفعل الامريكيون ما دام القصب والسكر يهم مصر اقتصاديا ويغل فدان القصب سبعة أطنان من السكر غير المكرر. وتعد هواى ثالثة بلاد العالم انتاجا للسكر — بعد كوبا التى تمتاز بخصب تربتها وجاوه برخص الأجور فيها — وقد بلغ انتاج الجزيرة من

السكر والأناناس مائة مليون ريال فى العام . والعـامل فى مزارع القصب يتقاضى ريالا كل يوم ويزود بالمسكن والطعام والأطباء فوق ذلك ومما عجبت له طريقتهم فى أشعال النـار مساء فى حقول القصب إذا ما نضج وفى باكورة صباح اليوم التالى ترى الأعواد قائمة وقد احترقت أطرافها وأوراقها وبذلك يوفرون على أنفسهم عنـــاء تقشيرها . وفى جهات كثيرة كنا نمر بمزارع هائلة للموز الذين يحصون من أنواعه هناك خمسين وبعض العراجين يزن خمسين رطلا ويحوى ٣٠٠ موزة وهناك نحو عشرين نوعا ينمو بريا ويفضله الأهالى لأنه لذيذ الطعم عطر الرائحة . ولا يزيد عمر الشجرة على سنة ونصف ثم تقطع وتغرس فسائلهـا من جديد وقد يصل طول الشجرة اثنى عشر مترا . ومن أغرب النباتات (التارو Taro) كان يبدو نبته كالقلقاس تقلع جذوره وتغـلى ثم تؤكل كالبطاطا أو تسحق فى شكل معجون لأعداد طعامهم القومى المحبوب المسمى poi وقد أكلته فألفيته منفرا كأنه الفـالوذج الهزاز المرق بنفسجى اللون فى شىء من السمرة وفى غير حلاوة . أما شجر البوبوز ففى كل مكان يحمل وسقه من أكواز خضراء كالشمام وهو يثمر طوال العام ويقدمونه فى الافطار وهو حلو لذيذ وله أثر كبير فى تنشيط الهضم . لبثنا ننتقل فى تلك الجنة الساحرة ونمر بشواطىء تلك الجزيرة البديعة وكان القوم يصيدون السمك فى كثير من تلك النواحى بحرابهم . فينسل الشاب بين صخور الشاطىء وما أسرع ما تراه يلقى بحربته الطويلة فى الماء ويخرج وقد علقت بها سمكة كبيرة وكثير منهم يصيدون السمك ليلا على المشاعل فيمسك الواحد منهم بشعلة نار وراء ظهره ويسير وسط الماء فتجتذب تلك الشعلة السمك فيقرب منه وعندئذ يعمل فيه حرابه قنصاً وصيداً ، ومن السمك ما يزن ٣٠٠ رطل ومن أغرب أنواعه sword fish بأنفه الذى يمتد متراً وكأنه الحربة ذات المنشارين . وفى مكان من الشاطىء رأينا شـبه نافورات تنفجر من البحر ويعلو ماؤها ورشاشها أمتاراً فى الجو



(شكل ٦٧) مغارة البراع العجيبة فى وايتومر

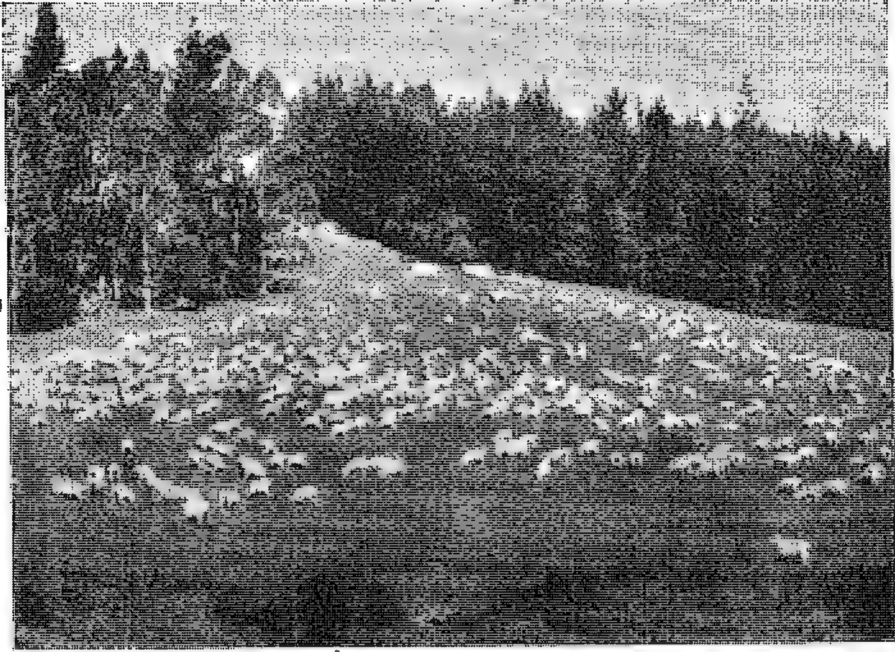
وتلك ظاهرة يسمونها نافورة البحر blow holes فاذا دفع الموج الماء تحت الصخر المثقب البركانى تفجر الماء منه عاليا .

عدنا آخر النهار الى المدينة وأخذنا نتجول فى أحيائها الغاصة بالناس سيرا على الأقدام وكان (الهوائيون) أهل البلاد يسيرون فى وجوههم التى تحكى وجوه الماورى الا أنهم أقل جمالا وأكثر سمرة وأجسادهم ممتلئة وتبدو عليهم علامات الصحة لجودة مناخ بلادهم وبساطة معيشتهم فى المأكل والملبس والمسكن فأخص طعامهم السمك وجذور التارو (البوى Poi) ثم الفاكهة الاستوائية ومن آدابهم فى المائدة أنه لا يصح الحديث فى موضوع

مادى وإلا عد ذلك محرما منكرا tapu ويجب قصر الحديث على ما يدخل السرور على النفس. وعند الجلوس الى المائدة تقدم آنية البوى وهى سلطنية يغمس كل منهم أصابعه فيها ويتناول بعض بندق kukui مع الملح وبعض أعشاب البحر ثم يأكل قطعـــة من قديد السمك. وكلما تناول الرجل (أصبعا) من البوى تناول النساء اثنين. وعلى الضيف أن يقول بين آن وآخر he ono أى ما ألذ هذا! وجل ملبسهم من قشور الشجر خصوصا شجرة tapa التى اذا ما بلغت بين ٣و٤ أمتار قطعت ثم حاول النساء سلخ قشرها فى قطعة واحدة ثم يصقل ظاهرها بالأصداف وتعطن فى النهر وتدق ثم تجفف وكثيرا ما ترى القطعة الواحدة تفوق (ملاءة السرير) كبرا وإذا دهن بزيت النرجيل أضحى (ووتر بروف) وهو متين جدا لكنه غير قابل للغسيل ولرداءة رائحته يستخدمون مسحوق خشب الصندل. وشكل الملابس يحكى ملاءات الهنود ويسمونها Holuku وهم يفضلون السير عراة الرءوس والأقدام ويحبون التحلى بالعقود والخواتيم نساء ورجالا. وأردية الملوك والوجهاء عباءة يكسوها الريش الثمين بشكل فنى جميل. وفراشهم من الحصر ووسائدهم من خشب أو حجر وغطاؤهم من لحاء الشجر (شجرة Tapa) يبدو كالورق أو الجلد وأوانيهم من القرع يصقلونه ثم يزين بالنقوش الجميلة فلا يفترق عن الفخار أو الخزف الثمين ولا تزال ترى طريقتهم الأولى فى اشعال النار بحك قطعتين من خشب احداهما غضة ناعمة بهـــا حفرة والأخرى صلبة وبالاحتكاك العنيف يتفحم تراب الخشب ثم يشتعل وكانوا يحفظونها زمنا طويلا بأشعال طرف حبل من شجر tapa فلا يطفأ أياما وكنا نرى تلك الحبال تعلق على أبواب الحوانيت يشعل القوم منها سجائرهم.

ومن معتقداتهم أن الزعماء مبعوثون من عند الله لذلك يجب تقديسهم فلا يصح لأحد الوقوف اذا مر زعيم أو ذكر اسمه بل يجب الركوع ولا يجوز استخدام المجرى الذى يستقى منه الزعماء ولا الطعام الذى يأكلونه





(شكل ٦٨) أحدى مزارع الاغنام فى زيلندة

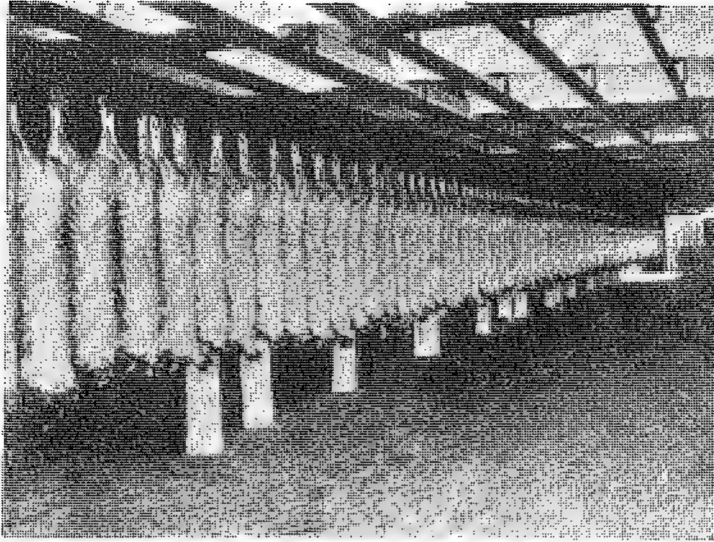
والزعماء هم ملاك الأرض وصيد البحر ومجهود الناس وعملهم ، والملك يوزع ذلك على الزعماء وهؤلاء على اتباعهم فى شبه نظام اقطاعى . وكان للنساء مركز منحط فلم يبح لهن الأكل مع الرجال ولا طبخ طعامهن فى اناء واحد مع طعام الرجال ولا تدخل المرأة المعابد ولا تأكل الموز ولا النرجيل فكل ذلك كان محرما (tabu) وقد حدث مرة أنهم رأوا أميرتين تأكلان الموز فحكم على مربيتهن بالقتل وكان للقسس سلطان كبير عليهم .

ولغتهم عجيبة أيضا فلا تزيد حروفها على اثنى عشر هى: a e h i k l m n o p u w) والحروف المتحركه تنطق جميعـــا ، ومن الكلمات الشائعة التى يستخدمها حتى كبـار سراة الامريكيين فى وسط حديثهم ما يأتى : نعم ea

مرحبا أو وداعا al oha — كلا aole تعال هنا hele mai غضبان كدر hulu — بحر kai ميت make — موسيقى mele · حسن maikai — كيف حالك ipehea oe — اسرع wikiwiki

ومنطقهم عذب موسيقى وعلى جانب كبير من البلاغة الشعرية فهم يشبهون فى ذلك ماورى زيلنده . وهم مولعون بالموسيقى حتى أضحت أنغامهم المشجية أحب ما يسمعه الامريكان أنفسهم وكنا نسمعها طول الطريق وكنت أطرب لسماعها لأن فيها شيئا كبيرا من الحنان والعاطفة الفطرية ، وقد حضرنا رقصة hula وأغنية ukulele ونحن فى فندق شط Waikiki فكانت ساحرة والراقصة بدت فى تمويج الجسم فى ثنيات عدة وتحريك الأيدى والذراع حركات ثعبانية لتحكى حركات الموج وأوراق النخيل اذا ما داعبتها الرياح .

بلاد يشعر المرء فيها بالسعادة الكاملة اذ يستمتع بكل شيء ويرى القوم فيها هانئين يسيرون مرحين وهم يغنون ويرقصون ويزينون أعناقهم بعقود الزهر الجميل وهم حفاة وإذا جاع أحدهم أوعطش تسلق شجرة النرجيل وألقى بثمرها إلى الأرض واستمد منه غذاء وشرابا . والجوحوله ممتع موحد طول العام فسنتهم شهر من شهور الربيع مداه ٣٦٥ يوما والسماء مشمسة تلطفها الرياح التجارية البليلة وترسل عليها مطراً متقطعا ينزل غالبه ليلا . والهواء خال من الأتربة والأوساخ فلا تكاد تعرف الجزيرة الأمراض قط ويزين سماءهم قوس قزح حتى فى ضوء القمر . وليس فى لغتهم كلمة تعبر عن معنى (الجو) وكثير منهم على جانب عظيم من الثقافة فالتعليم هناك ذو مستوى عال منذ زمن بعيد ، فلقد بدأت المدارس هناك عملها قبل أن تبدأ فى كلفورنيا نفسها وكان سراة كلفورنيا يبعثون بأبنائهم لتلقى العلم فيها ، وجامعة هنولولو عظيمة راقية وكثير من طلاب أمريكا يحضرون دروس الصيف فيها ليجمعوا بين العلم والاستمتاع بعطلة الصيف . وقد علمت أن عدد التلاميذ فى الجزائر بلغ ٩٢ ألفا فى نحو ٢٥٠ مدرسة ويقوم بالتدريس لهم ٣٢٠٠ مدرس وفى



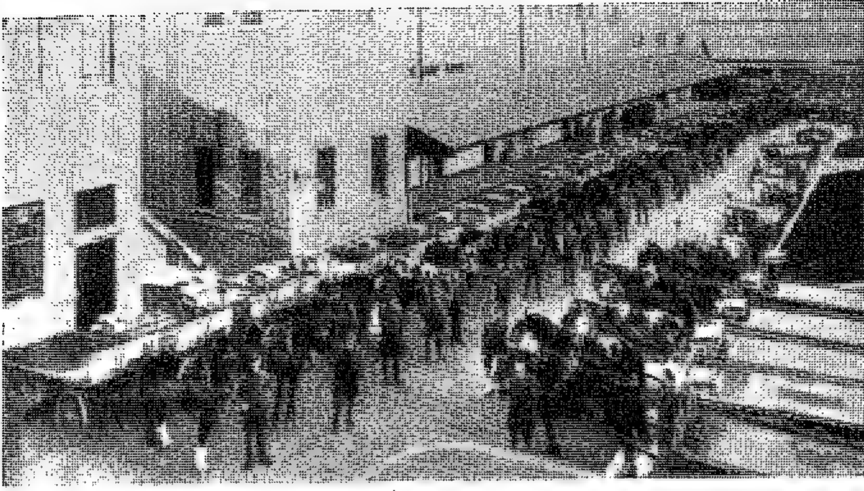
(شكل ٦٩) مثالج اللحوم فى نيوزيلند

الجامعة زهاء ٤٠٠٠ طالب وهى تسير على نمط جامعات أمريكا .

هذه حال تلك الجزائر التى تهوى اعماق البحر حولها إلى ٦٠٠٠ مترا . والتى كشفها الاسبان (سنة ١٥٥٥) وأخفوا خبرها حتى جاء كوك (١٧٧٨) وأسماها ساندوتش على اسم صديق له ولما رآه الأهالى خالوه ألهاً فسجدوا له وقدموا له القرابين لكن كثرة طلب الغذاء لاطعام رجال كوك وسوء سلوكهم مع الأهالى وعدم احترامهم لعقائد النـــــاس أدى إلى نزاع فتقدم رئيس وطنى وطعن كوك بأحد الخناجر التى قدمها كوك له هدية فخر قتيلا ويقوم نصب تذكارى له هناك . فقام بعد أحد ضباطه (ڤانكوڤر) وبذل جهودا كبيرة فى مصادقة الناس وأقنع الملك كاميهاميها بيطلان الأصنام والغاء المحظورات (tabus) لأنها كانت مصدر مظالم تقع على أيدى القسس . ولقد طلب الأهالى حماية بريطانيا لكن انجلترا كانت إذ ذاك مشغولة عنهم بشئونها فتقدم الامريكان ونشروا التعليم والتبشير فقام الناس بثورة سنة ١٨٩٣ خلعت على أثرها آخر ملكاتهم (Ihnokalani) فنادى الناس بأمريكا

ورفع العلم الأمريكي فأعلنت الجمهورية وفى ١٨٩٨ طلبوا الانضمام للولايات المتحدة خشية أن تحتلها اليابان التي بدأت تحشر أبناءها هناك وتجعلها لها قاعدة بحرية ولقد طمع الروس فى تملكها . وكانت تجارة خشب الصندل أهم الموارد هي وزيت الحوت الذى كان يصاد بكثرة حولها لكن تلك التجارة قد اضمحلت وحلت الزراعة محلها خصوصا لما أن نشط استخراج الذهب من كلفورنيا واحتاج نزلاؤها إلى استيراد الغذاء من هواى من غلال وخضر ثم شجع الصينيون زراعة قصب السكر والأرز ثم تشعبت منتجاتها حتى أضحت على ما ترى اليوم .

عدنا إلى الباخرة فبدا الرصيف مائجا بالمودعين وبائعات الزهور والعقود وقد لبس كل من المسافرين والمودعين عشرات العقود البديعة ، وقد ركب الباخرة فى الدرجة الثانية من هنولولو ١٤٠ مسافرا يعودون إلى أمريكا بعد تمضية عطلة الصيف . وبدأت موسيقى الوداع تعزف وأشرطة الورق الملون تصل ما بين فريق المسافرين والمودعين ثم أخذت الباخرة تتنحى عن الميناء تدريجا حتى غابت تلك البلاد الممتعة عن الأنظار وكان آخر ما يرى برج الميناء وعليه كلمه aloha تودعنا وخرجنا إلى عرض المحيط ونحن آسفون أن برحنا جنة الباسفيك أو جوهرة المحيط كما يسمونها غالبـــا . عندئذ أخذ المسافرون والمسافرات يلقون بعقود الزهر الجميلة إلى المحيط حتى لم يخلفوا معهم منها شيئا لأن ذلك فأل حسن يؤكد لهم عودتهم لزيارة الجزيرة مرات أخرى وكنت ألبس من تلك العقود اثنين لم تسغ لى نفسى أن ألقى بهما الى اليم لكنى لم أنج من لومهم فكلما مرت بى آنسة قالت ألا تريد أن تعود الى زيارة هنولولو ثانية فأقول بلى فتلك أمنيتى فتقول اذن سارع بالقاء عقودك الى البحر ولما أن غلبتنى كثرتهن ألقيت بالعقدين على الرغم منى . ولعل الأمل الكبير فى العودة الى زيارة هنولولو يعوضنى عما فقدت من تلك العقود البديعة .



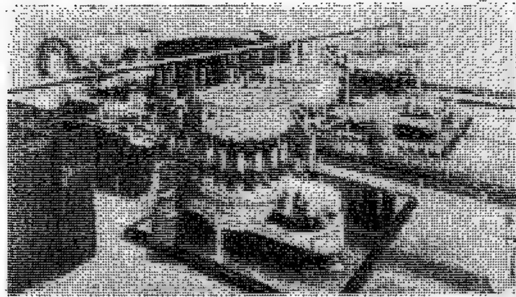
(شكل ٧٠) عربات توزيع اللبن تنتظر تعقيمه فى ولنجتون

وبسبب وفرة الزهور كثر النحل جداً حتى انا كنا نسمع طنين النحل فى كل مكان ولقد علمنا أن النحل هناك يغل مليونين من أرطال العسل سنويا وقد رووا أن كل عشرين ألف نحلة تحمل رطلا من الرحيق وهذا يصبح ربع رطل من العسل وبذلك يكون مجموع النحل فى الجزائر ١٦٠ ألف مليون نحلة . وشهر يونية هو (شهر العسل) عندهم والشمع الذى يتخذ منه أحسن الأنواع العالمية وأكثرها مقاومة للانصهار .

عدنا إلى المحيط الهادى نشق مياهه الوديعة يومين ثم أعقبهما آخرين بدا خلالهما البحر على غير ما عهدناه إذ ظل مضطربا حتى أعيي الكثير من المسافرين وفى يوم السبت ٩ أغسطس دخلنا ميناء (سان بيدرو) وهى ثغر (لوز انجليز) وكان شاطىء كليفورنيا الصخرى قد بدا أزاءنا منذ المساء . حللنا البلدة وهى ضاحية صغيرة ميناؤها لا يزال تحت التنقيح والانشاء وركبنا الترام مسافة أربعين ميلا إلى لوز انجليز (ومعناها الملائكة باللغة الاسبانية) فهالنا ما رأينا من أمرها فهى مدينة صاخبة مائجة بالناس والحركة إلى حد كبير وتكاد تتبع فى نظامها نيويورك لأن شوارعها متقاطعة ومتعامدة غير

أنها تعلو وتهبط حسب تموج الأرض حولها ولقد نمت نموا عظيما منذ أسسها الاسبان من ١٥٠ سنة خصوصا فى السنوات الأخيرة حتى بلغ سكانها مليونا وربعا وأضحت خامسة مدن أمريكا فهى أكبر من القاهرة . أما مبانيها فجلها من ناطحات السحاب التى تفوق أدوارها العشرين ولعل أروع شوارعها (برودواى) نظير أخيه فى نيويورك فى وجاهته والتأنق الفائق فى عرض متاجره والأسراف الكبير فى تموين مبانيه بالمرمر الملون الذى يبدو وكأنه الخزف الفاخر تحده أسلاك النحاس الأصفر البديع إلى ذروته مهما علا . أما عن حياة الليل فيه وفيما جاوره من طرق فذاك أمر يبهر النظر ويستهوى الحكيم فالمقاصف والمقاهى تعددت أشكالها وبولغ فى تنسيقها ودور الملاهى وبخاصة السينما فاقت كل وصف جمالا وحركة المرور فى الشوارع تسد الأفاق سدا فسيل السيارات دافق كل آن هذا إلى الترام متعدد الانواع وقطر تحت الأرض وسكة الحديد فى كل جانب وكذلك الاتوبيس ولا يمكن لأحد أن يعبر مفارق الطرق إلا إذا أوقفت إشارة المرور.

والأشارات (أتوماتيكية) بالأنوار الملونة وذراع يرفع وعليه كلمة (go) فتمر السيارات ويتوقف المارة ، ثم يدق الجرس ويسقط ذاك الذراع ويرفع غيره وعليه (stop) . زرت بعض حدائقها ومتنزهاتها الرائعة ومنها حديقة الحيوان التى تمتاز باظهار بيئة الحيوان الطبيعية حوله من غابات وجبال ثم مزرعة السباع وبها زهاء ٢٠٠ أسد يروضونها على اللعب فيركبها الرجل ويدربها على بعض الألعاب وبعضها يرسل إلى هوليوود ليشاطر فى إخراج الأفلام السينمائية ثم مزرعة التماسيح لتربية تلك الطائفة من الحيوان ومنها ما يفوق عمره المائة عام ، ثم مررنا على دار الألعاب الأهلية (الاستوديوم) الذى يبلغ ١٧ فدانا وبه مقاعد لعدد ١٠٥,٠٠٠ ، ثم مرت بنا السيارة خارج البلدة خلال بساتين الفاكهة وبخاصة البرتقال الذى كانت صفوف أشجاره المنتظمة تمتد إلى الآفاق وهى جزء من انتاج كلفورنيا الذى اشتهرت به حتى



(شكل ٧١) زجاجات اللبن تعقم وتقفل فى ولنجتون

تقدر محصول البرتقـال بعشرين مليون جنيه فى كل عام . ثم كان ركوبنا الترام إلى :

هوليوود : عاصمة السينما فى العالم إذ تخرج وحدها زهاء ٨٥٪ من جميع أفلام الدنيا تلك التى أصبحت مطمح آمال الكثير ممن أنسوا فى نفوسهم كفاءة فى التمثيل والغناء والموسيقى والجمال وبعض الألعاب كالمصارعة والرقص والملاكمة وما اليها حتى أن ثلث ركاب الباخرة كانوا منهم ، وكلهم جاءوا يطلبون الغنى والمال فى عاصمة الخلاعة والجمال. دخلنا البلد بعد مسيرة نصف ساعة بالترام فبدت تقوم فى حضن جبل منخفض تتوجه ربى تكسوها الخضرة وقد بدا بناء مرصد (جرفث) مشرفا بقبابه وقد زرناه وبه من المناظير ما يعد من بين أكبر مناظير الدنيا بعد منظار جبل ولسون — وهو قريب من ذاك الموضع لكن لم تتح لنا فرصة زيارته لنرى منظاره البالغ قطره ١٠٠ بوصة (وهم اليوم يصبون عدسات منظار آخر قطره ٢٠٠ بوصة) — ثم موضع للفلك (بلانتوريوم) شبيه ذاك الذى زرناه فى برلين ، أما عن جمال بلدة هوليوود والاسراف فى إقامة مبانيها وتنسيق حدائقها فذاك أمر لا يجدى فيه القلم بل عليك أن تشاهده بنفسك كى تدرك رونقه وتحس جماله وترى بريق المبانى وفاخر فرشها ورائع هندستها وبديع معروضاتها مما يشعر بالغنى المفرط والجاه الكبير وبخاصة دور الملاهى التى لا تدخل تحت حصر وقد

راقى منها (الملهى الصينى Chinese Theatre) أقيم على نمط باجودا الصين وبولغ فى تجميله من الداخل وزود بالفراش الوثير ويسمونه Premier لأن كل فلم جديد يعرض فيه أولا وفى بهو مدخله الفسيح ترى كل رخامة رصفت بها الأرض تحمل طابع يدى إحدى نجوم السينما وبعض تمنياتها للملهى وامضائها والتاريخ . كل ذلك محفور فى صميم الصخر ومن الدور الشهيرة الملهى المصرى سمى كذلك لأنه أقيم فى هندسة المعابد المصرية القديمة وأينما سرت تلاقيك (الاستديوهات) ذائعة الصيت تلك التى تؤخذ داخلها أفلام العالم أجمع ومن بينها (استوديو) شارلى شابلن الذى قصر تمثيله اليوم على فلم أو اثنين فى العام حتى يتشوق الناس اليه ولا يزهدوا فى أفلامه إن كثرت عددا ، وكان لى حظ لقائه هناك . طفقت أسير فى جنبات تلك الضاحية السحرية أشاهد سيول المارة تسد الطرق وأرصفتها سدا وبحر السيارات زاخر بحيث تكاد تفرش الطرق بها فرشا فلا يكاد يخرج الواحد إلا فى سيارته . وكنت أعجب للحياة كيف تسير فى تلك الناحية : أرى النساء قد ظهرن فى أزياء الرجال من سراويل وجاكتات وأربطة رقبة وشعر مقصوص بحيث يصعب التعرف اليهن بين الذكور ومن الرجال من دهن وجهه وحمر شفاهه وأرخى شعره ولمع أظافره وسار يتبختر ويتيه عجبا كأنه الآنسة الحسناء أما عن جمال السحن ودلال المشية وفاخر الهندام فذلك لم أره فى مكان قبل هذا وكثير من أولئك من سراة العالم أجمع وبعضهم من نجوم السينما الذين طبقت الآفاق سمعتهم ومنهم من وفد طامعا فى الغنى راغبا فى الوجاهة ساعيا بجماله وخفة حركاته ورشاقة قده وشجى صوته أن يصبح فى عداد تلك النجوم ولا عجب أن تصبح هوليوود بغية الناس من أقصى الأرض وهل يتاح لهم من المجون ووسائل اللهو والاسراف ما يلقونه هنا وهل فى الدنيا سوى هوليوود واحدة ! وما أبدع ما يرى شارع (هوليوود بوليفار) قلب المدينة النابض وشارع (هوليوود أفنيو) الذى يليه فخارا



(شكل ٧٢) بين فريق من أهل جزائر ساموا

ويقطعه متعامدا عليه ، ما أبدعهما ليلا حين تكاد الأضواء فيهما تبهر النظر وتستهوى الرزين وقديما عرف الأمريكيون بالاسراف فى سبل الاعلان، ومن أخصها الاضاءة الملونة المتحركة ليلا. ولم أكد أوغل فى أطراف المدنية حتى بدت المساكن الأنيقة بحدائقها المنسقة التى تشعر بغنى أصحابها المفرط وحسن ذوقهم وجميل اختيارهم وبخاصة فوق تل يسمونه بيفرلى (Beverly)، حيث رأينا جل منازل النجوم فى إبداع يفوق الوصف ، وكانت تسترعى نظرى ليلا أشعة من الضوء القوى ترسل كالسهام إلى السماء فى اتجاهات مختلفة وتتحرك عبر تلك السماوات وهى تتقاطع وتقوى ثم تخبو وقد تبدو كوابل من الشهب والنيازك الفخمة ، وتلك من مميزات كلفورنيا عموما فى الاعلان وبخاصة هوليوود ، لذلك تراها على شاشة السينما دائما تنبعث وكأنها أشعة الشمس القوية وكنت أرى تلك المصابيح تسير على عجل فى الشوارع

وإلى جوار كل منها (دينامو) كبير يولد له الكهرباء ويحرك الرجل المصباح فيتمايل شعاع الضوء فى كل اتجاه.

وعدت فى اليوم التالى أزور هوليوود لأنى لم أشف من جمالها غلة وتزودت منه طوال اليوم وقد لاحظت أن الحياة فيها أغلى منها فى سائر البلاد فلا أكاد أخرج الريال حتى لا أرى له بقية وأنت لا تزال تنفق الريال تلو أخيه حتى يصبح وفاضك خلوا من المال وعندئذ تفيق لنفسك ولا تندم على ما أنفقت فى سبيل الوقوف على حال هوليوود وأهلها. ولقد استوقفنى فى أحد شوارعها منظر جماعة من العمال ينقلون بيتاً برمته من قطعة أرض إلى أخرى وقد حفروا حول الأسس وأوقفوا قاعدة البيت على أعمدة من كتل خشبية تحتها بكر كبير وسيزمعون جره على تلك البكر إلى بيئته الجديده، وقفت مبهوتا لأنى كنت أخال ذلك لما أن سمعته أول مرة منذ عامين ضربا من الخيال أو نوعا من التهكم على مبالغة الامريكيين (وفشرهم) لكنى ألفيته حقيقة وقد دهش صديق لى أمريكى لأنى لم أعرف أنهم ينقلون البيوت الضخمة مسافات بعيدة منذ زمان بعيد. مالت الشمس وآذن ميعاد العودة إلى الباخرة فأخذت أودع ذاك البلد الساحر وكان آخر ماوقع نظرى عليه منزل النجمة (Ann Harding) فوق حجارة تحكى الجبال الطبيعية من دونها بركة الاستحمام الفسيحة ثم منزل النجمة الجميلة (Marion Davies) بديع الهندسة فاخر الحدائق وقد فتح للقاء من أراد من الزائرين وقد استمتعت بزيارته ولقاء صاحبته ثم مررنا بمدرج (Hollywood Bowl) الذى نقر مسرحه الهائل فى صخر الجبل وزود بمقاعد فى أنصاف دوائر تتسع كلما بعدت وعلت وهنا يعرض التمثيل وتؤخذ بعض الأفلام صيفاً فى الهواء الطلق. وقد زرت جامعة هوليوود وعلمت أن بها طالباً مصريا أسمه (غنيم) حاولت مقابلته لكنى لم أوفق وهى غنية بأقسام الفنون والتمثيل والموسيقى والغناء. سار الترام وسط ضواحى هوليوود فى طرق تحدها أنواع من النخيل



(شكل ٧٣) آنسات هنولولو الرشيقات

مختلف الشكل ثم عرج بنا على لوز انجليز وقد تزودنا من جمالها وروعة شوارعها ، ثم قرب ميعاد العشاء فآثرنا أن نتناوله فى مطعم قبل العودة إلى الباخرة فدخلنا أحد المطاعم الفاخرة وقد كتب عليه (الوجبة ثمنها ٣٥ سنتيما أى ٧ قروش) ولما أن وصلنا المقاعد جلسنا ننتظر الخادم طويلا فلم يحضر والناس من حولنا يأكلون فصفقنا فاسترعى ذلك نظر الجميع وجاءتنا آنسة تقول ماذا جرى ؟ قلنا نريد عشاءنا قالت قوموا تناولوه بأنفسكم فبدأنا نمر صفوفاً على عدة فتيات الأولى ناولتنا (صينية وفوطة وسكيناً وملعقة وشوكة) فحملناها

إلى قسم الشربة فملأت الأخرى لنا (سلطنية) وضعتها على الصينية ثم زحفنا بمتاعنا إلى قسم اللحوم والسمك ننتقى ما نحب ثم الى قسم الخضر ثم إلى قسم السلطات ثم قسم الحلوى وأخيراً قسم المشروبات ، عندئذ الفيت (صينيتى) قد ملئت وثقل على حملها وشعرت بغضاضة فى نفسى أن اعمل عمل الخدم لكن لم أر بدأً من ذلك والناس هناك كلهم سواء وحملتها فى جهد إلى المناضد المجانبة ثم أخذنا نتناول طعامنا بشهية كبيرة وأخيراً تناولنا ورقة بالثمن (٣٥ سنتيما) ثم دفعناه عند الخروج . وذاك النوع من المطاعم هو الشائع فى كل بلادهم ويرى فيه القوم أداة سهلة لك أن تختار ما يروقك من الطعام المرصوص أمام عينيك إلى ذلك فان تلك المطاعم رخيصة جداً حتى أنك تستطيع أن تتغدى بثلاثة قروش . ومن المطاعم ماتدخلها وتقف إلى جوار (البنك) وتطلب ما تريد وتأكله واقفاً وهو أكثرها انتشاراً اذ ترى منها عشرات فى كل شارع وقد شجع على كثرتها تزاحم الناس عليها لأن جل حياتهم خارج المنازل فلا يكادون يعدون من الطعام فى المنازل شيئاً بل تخرج العائلة كلها عند كل وجبة ويأكلون ما يرغبون . ركبنا الترام السريع عائدين إلى سان بيدرو وكنا نمر بقرى كبيرة وفى جانب منها على مقربة من البحر أبصرنا بشبه غابات كثيفة من شباك الحديد العالية فقيل لنا هى آبار البترول التى جعلت كلفورنيا من أولى جهات العالم انتاجا لهذا المعدن وكانت خزانات البترول (Tanks) الاسطوانية الغليظة تضىء بلونها الفضى على بعد أميال .

قامت بنا الباخرة تبرح لوزانجليز وضواحيها بعد أن أقمنا فيها يومين كاملين ولم يبق فى السفينة من الستمائة مسافر سوى مائه والباقون أسرعوا الى المقام فى هوليوود ولقد أقفرت الباخرة من أنسهم وخفة روحهم فجلهم ممن ألفوا حياة المجون واللهو فى غير قيد لدرجة كانت تهولنى فالآنسات يختلفن إلى الفتيان ويغازلون بعضهم البعض جهاراً ثم يكون التقبيل (والزغزغة)



(شكل ٧٣) أجساد فتيات هنولولو ممتلئة متناسبة

والاحتضان وما فوق ذلك مما كنت استنكره كثيراً ، والعجب أن ذلك لم يكن يسترعي من أنظار الآخرين أو يثير سخطهم بل على النقيض من ذلك كانوا يساهمون فيه وحتى الأمهات أو الآباء كانوا يساعدون بناتهم على ذاك اللهو وكثير من الفتيات كن يسرن عرايا فى غير حياء وكانوا يسخرون منى إذا ما غضضت الطرف عنهن وعما يأتين ، ولم أشهد من الاباحة فى أسفارى السالفة ماشهدته هذه المرة ولا عجب فجل القوم من الامريكيين (الهوليووديين)

والنيوزيلنديين والاستراليين وكلهم سواسية فى الأخذ بأكبر نصيب من الأباحة فى كل شيء .

آوى جل المسافرين هذه الليلة إلى مقارهم على خلاف العـــادة ليعدوا نفوسهم ويحزموا متاعهم لأنها آخر أيامنا على ظهر الباخرة التى ستصل (فرسكو) ظهر الغد . وكان الكل يأسفون على مبارحة السفينة والحرمان من متاع الحياة فيها . والحياة على ظهر الباخرة مترفة نشيطة ، فنى باكورة الصباح يمر الغلام بجرس يعطى أنغاما (كالبيانو) ليوقظ القوم عند السادسة ثم يطوف آخر بالجريدة اليومية الصغيرة من ست عشرة صفحة على ورق صقيل جميل كنا نقرأ فيها أخبار الباخرة واللاسلكى الخارجى ثم مقالات قيمة عن البلدان التى ستقف عليها الباخرة مزودة بالصور البديعة . ثم تمر الآنسة بكأس الشـاى وبعض الفاكهة . وفى السابعة صباحا يطوف الجرس الثانى ويصيح الغلام (أن الافطار سيقدم بعد نصف ساعة) . عندئذ نتوجه إلى المطعم ونأكل ما راقنا من طعام شهى فاكهة مثلجـــة وطازجة ومطبوخة، وبعض البوردج (العصيدة باللبن) أو مقصوص الرقاق اليابس (Corn flakes) أو الكنافة (Shreaded wheat) وبعض اللحوم والكبد والسمك وبعض البيض (عجة أو مقلى الخ) وفطائر ومربى وعسل ولبن وزبد وشاى أو قهوة أو كاكاو . وإذا ما فرغنا من الافطار قصدنا بهو المطالعة نقرأ بعض الجرائد والكتب التى نقترضها من مكتبة الباخرة ثم نخرج إلى سطوح السفينة لنساهم فى الألعاب المختلفة (تنس وبنج بنج و bull board ورمى الحلق ودفع الأقراص Shuffle board والاستحمام فى البركة المالحة وما إلى ذلك) وفى بعض الأيام يقام سباق الخيل . وبين محطة وأخرى تقام مباريات عمومية يساهم فيها الجميع وتعطى الجوائز للفائزين .

وفى العاشرة صباحا يطوف الغلام بكؤوس (المثلجات m : :

وإذا أقبل الظهر دق جرس الغداء فذهب القوم إلى المطعم فى غير تكلف



(شكل ٧٤) تحلى عقود الورد جيد الناس جميعا فى هنولولو

فى الهندام فترى الكل نصف عرايا وقد تحرروا من كل قيد . بعد ذلك تعزف الموسيقى فنستمع لها وبعضنا يؤثر القراءة والبعض يعكف على الضامة (checkers) أو الشطرنج (check) أو النرد أو الورق وفى الساعة الرابعة تعزف الموسيقى ويقدم الشاى ثم تنشط حركة الألعاب الخارجية ، وفى السادسة يدق جرس العشاء ويصيح الغلام منبها بأن الطعام سيقدم بعد نصف ساعة . هنا يسرع القوم جميعا رجالا ونساء إلى غرفهم ليتزينوا ويلبسوا فاخر ثيابهم حتى الأطفال منهم وهم يرون اللبس قبل العشاء لازما فكنت

استعرض من الأزياء صنوفا وألوانا ، فإذا كانت السفينة ستصل ثغرا فى الصباح كانت حفلة العشاء كبيرة للوداع (Farewell dinner) ندخل المطعم فترى الأعلام الصغيرة وملابس للرأس من ورق ملون مضحك (fancy dress) وقد يلبس الجميع أردية مضحكة أو أزياء تمثل همج الانسان أو بعض الأمم الغريبة فيكون عشاء جميلا ولا تلبث بالونات الجلد الرقيق الملون ترفرف على الرءوس وتطير ثم يضربها الخادم بدبوس فتنفجر فى فى صوت كصوت المدافع.بعد ذلك نحضر حفلة السينما وفى منتصف العاشرة يبدأ الرقص والشرب إلى ساعات متأخرة من الليل وهنا يطوف الغلام علينا بصوانى (الساندوتش) المنوع وقد تعقد ألعاب للمقامرة وسط كل أولئك .

ذلك مثل من سحابة اليوم الذى نمضيه على ظهر الباخرة ولا عجب أن بدأ الجمع يشعر بالأسف لمغادرة البحر رغم ماقد يصادفنا فيه من منغصات موجه ومرضه . وفى الحق أن حياة البحر لتعشق ان أخلاها المرء من المغالاة فى المجون واللهو ولعل أجمل ما فيها جميعا الأخوان الذين نصطحب بهم مهما كثر عدد المسافرين ، تراهم يختلطون ويتجاذبون أطراف الحديث ويصيرون أصدقاء فحياة البحر خير عون على تربية النفس على حب المعاشرة والتهذيب والدعة ، ولقد صرفت نصف يوم الاثنين كله فى عبارات الوداع وتبادل بطاقات الأسماء والعناوين وكلنا آسف جد الأسف على فراق حبيبه الذى لم يزد عهد صداقته على أسبوعين.دق جرس الطبيب ظهراً وقد وفد مع رجال المهاجرة فتقدمنا وكان قلبي يرتجف خشية أن يكون الكشف الطبي قاسيا لكنى مررت عليه وتسلمت أوراق نزولى إلى أرض الولايات المتحدة دون قيد فاغتبطت بذلك الغبطة كلها ويظهر أنهم قد تغاضوا اليوم عن(التراكوما) رغبة منهم فى الانتفاع بأموال السائحين . خرجنا إلى سطح السفينة نشرف على ربى كلفورنيا ونستقبل خليج : سان فرنسسكو فبدا فى مدخل ضيق يسمونه (الباب الذهبى The golden gate) يفصل ما بين فرسكو إلى يميننا

THE POLYNESIAN

AT SEA — BOUND FOR HONOLULU

On Your Sightseeing Tour of Honolulu





"Great Heiau" Best Preserved Temple

Mauna Kea, Home of the Goddess of Snows

Lunar Rainbows to Be Seen in Hawaii

الصحافة فى عرض البحر

مثل من الجرائد اليومية التى تطبع على ظهر الباخرة وتوزع على المسافرين مجانا

(وأوكلند وبركلى) إلى اليسار وقد بدأ القوم يصلون طرفيه بقنطرة معلقة شاهقة ستكون أكبر قناطر العالم طرا وأعلاها وقد رأينا القوائم شدت عليها الجنازير الضخمة المقوسة التى ستحمل القنطرة عند تمامها .

سان فرنسسكو : بدا خليج فرسكو مغضنا فى شعاب عدة تتوسطه جزر صغيرة رأينا على أحداها أكبر سجن هناك يضم بين جدرانه المحصنة كبار مجرمى أمريكا كلهم وبخاصة عصابات شيكاغو (gangsters) . وعلى جوانب تلك الاجوان تقوم المدينة وضواحيها على مدرجات جبال مغضنة . وأبصرنا بقنطرة أخرى بالغة الطول تسمى (فرسكو وبركلى) لأنها تصل ما بين البلدين ويبلغ امتدادها ٨½ ميلا وقد كلفت ٧٧,٢٠٠,٠٠٠ ريالا أى فوق ١٥ مليون جنيه وهى أطول قناطر الدنيا وسطحها من دورين الأعلى للسيارات الخفيفة وسيمر عليها يوميا إذا ماتم بناؤها ٦٥ ألف سيارة والدور الأسفل لمرور العربات الثقيلة والترام ويجتازها من الركاب ١٢٧ ألفا فى اليوم . ولقد كان مشهد المرفأ ساحراً بديعاً والميناء تنافس سدنى وريودجانيرو جمالا وتعد أكبر المين الطبيعية المغلقة الآمنة فى الدنيا . نزلنا البلد ونقلتنا السيارة الى نزل (Stewart) فى شارع (Geary) وأجره ريال ونصف فى اليوم والفندق فاخر جدا ويغص بالمسافرين إلى حد لم أعهده من قبل . خرجت أجوب الجهات القريبة من الفندق وإذا بشوارعها عظيمة الامتداد شامخة البناء فاخرة المتاجر والمعروضات غاصة بالحركة جداً لأنها قلب المدنية وبخاصة شارع (Market Str.) أعظم شوارع المدينة وأشدها حركة يجرى به أربعة أشرطة للترام متجاورة لشركتين مختلفتين وبعض الشوارع تتعامد عليه والبعض تتوازى معه وأخرى تميل خارجة عنه ثم تقابلها غيرها متعامدة عليها أيضاً والكل تسير على نظام الكتل (blocks) كما هى الحال فى نيويورك وفى تلك الأحيـاء الفاخرة كثير من ناطحات السحاب التى تبلغ أدوارها بين الخمسة عشر والخمسة والعشرين وقد صعدنا أعلاها وهى ناطحة شركة التلفون

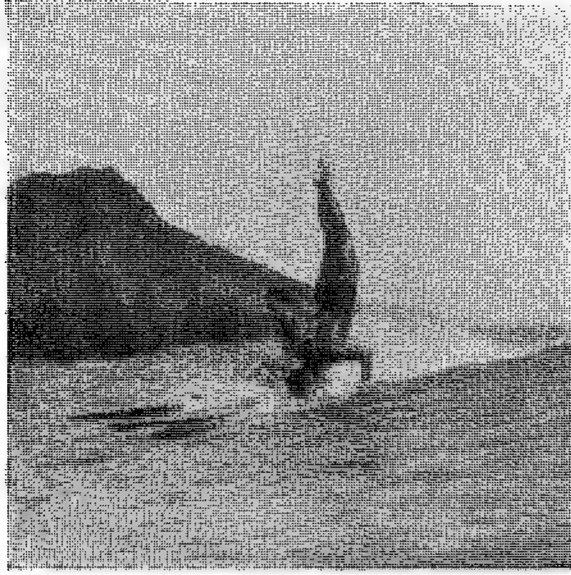


شكل (٧٥) زهرة عباد القمر فى هنولولو

إلى سطح الدور الثلاثين فكان مشهد المدينة منه جميلا ساحراً ويشتغل بها فى ساعات العمل من الموظفين ١٦٠٠ موظف .

ومن المبانى الرائعة دار البلدية (Gity Hall) بقبتها الأنيقة تزين ميدانها النافورات والحدائق البديعة وهى تغص بالحمام يطعمه الناس فيرفرف على أكتافهم وهو أليف وديع . أما عن حياة الليل فى تلك الشوارع فصاخبة مائجة تزينها الأضواء الملونة التى ألفناها فى هوليوود ولوزانجليز فى أسراف كبير ودور الملاهى لا تحصى والمطاعم والفنادق تعد بالمئات . ففى سان فرنسكو ١٥٠٠ فندق وفوق ٣٠٠ مطعما مع أن سكانها لا يزيدون على سبعمائة ألف وقد عجبت كيف تجد تلك الفنادق والمطاعم من الزائرين ما يكفيها لكننى علمت أن نحو ٥٥٪ من سكان المدينة من رواد تلك النزل والمطاعم مما أفقد البيوت رونقها وكاد يقضى على نظام العائلة البديع فلا يكاد أحدهم يأكل فى بيته قط وكثير منهم ينام فى الفنادق وإذا أضافك أحدهم على طعام أو شراب دعاك إلى أحد تلك المطاعم ، أما البيت وماله من حرمة

مقدسة وجميل أثر فى تربية النشء فذاك مالا تراه هناك قط . وكثير من تلك الأماكن باهظة التكاليف إذ أجر المبيت فيها يفوق ستة ريالات فى الليلة الواحدة على أنك تجد الكثير بين نصف الريال والريال . وجل المطاعم على النظام (الوقافى) تخدم نفســـك وتدفع مابين خمسة قروش وعشرة فى العادة . ركبنا سيارة النزهة sightseeing فى رحلة مداها فوق ثلاثين ميلا فى ثلاث ساعات وأجرها ريالان وطفنا بجل نواحى المدينة وأطرافها وزرنا بعض كنائسها القديمة ، وبالمدينة زهاء ٣٠٠ كنيسة جلها للمذهب الكاثوليكى ثم دخلنا الاكواريوم الذى حوى مجموعة قيمة جداً من السمك خصوصاً الملون البديع ولعل أعجبه (Turkey fish) وهو ملون وتحكى أجنحته الديك الرومى . ثم دخلنا متحف التاريخ الطبيعى ولا بأس بمحتوياته خصوصا المعدنية . ثم وقفنا بشواطىء الاستحمام الرملية المديدة وقد أقيمت حولها الملاهى ودور السينما واللونابارك والمطاعم وفى ناحية منها جزء صخرى من الشاطىء به بعض الجزيرات التى تغص مياهها بسباع البحر تنفر فى الماء وتلعب مرحة آمنة . وقد اخترقنا أكبر متنزهات البلدة ويسمى متنزه القرن الذهبى ومساحته ١٠١٣ فدان وتكثر المتنزهات خارج البلدة لكنها تندر جداً فى وسطها . ثم اعتلينا بعض التلال المحيطة بها فكان منظر المدينة وبحارها وقناطرها وبخاصة القرن الذهبى رائعا . عادت بنا السيارة الكبيرة الفاخرة ومنها ما يسافر إلى أقصى بلاد الولايات المتحدة ويفضلها الكثير على سكة الحديد لأنها مريحة جداً من جهة ولأن أجرها أرخص بكثير من سكة الحديد فأجر السفر بها من سانفرنسسكو إلى نيويورك مثلا ثمانية جنيهات ونصف مع أن الأجر فى القطار ضعف ذلك . ثم كانت زيارتى للمدينة الصينية China Town وهى قسم من المدينة احتله الصينيون وهم هناك جالية كبيرة العدد حتى أن تلك الناحية تؤوى أكبر مجموعة من الصينيين خارج الصين . وتقع على تل تنحدر منه الشوارع فى ميل مخيف



(شكل ٧٨) ركوب الامواج الهائجة بزوارق نحيلة من أحب وسائل الرياضة فى هنولولو

قد ينزل فجاءة ٤٥° . اخذنا نسير وسط تلك الشوارع فاذكرتنى برحلتى فى الصين نفسها فالمبانى أقيمت على النمط الصينى ذى السقوف الخشبية المقوسة الاطراف والمصابيح من حديد أو ورق ملون وعنوانات المتاجر فى شرائح طولية تزينها بقع الخط الصينى الجذاب والحركة هناك ناشطة مائجة بالمارة من الصينيين بعيونهم المائلة المنتفخة وقاماتهم القصيرة وأرديتهم العجيبة وجل ما يعرض فى متاجرهم من الانسجة واللعب الصينية ولهم هناك مطاعمهم ومكاتبهم وجرائدهم التى تطبع بلغتهم وقد تناولت العشاء فى احدى تلك المطاعم وراقنى منها الارز ومزيج من نثير اللحم والسمك والسردين وصنوف أخرى لم أعرفها واستمتعت بالشاى الصينى الأخضر الذكى . ثم دخلت (دار التمثيل الصينى) فمثلوا أمامنا رواية بالملابس الصينية على أنى الفيت التمثيل جامدا تعوزه الحركات الخفيفة فلا تكاد الممثلة تتحرك قط وصوتهم فى الحديث والغناء منفر جدا والنساء يتكلفن القول فى تماوت سقيم

وأدهى ما فى الأمر موسيقاهم وهى عبارة عن طبول كأنها الرعد أو صوت مجموعة من صفائح تقرع عاليا ويصيح معهـــا مزمار بمل النغمات ويبلغ من علو تلك الجلبة انا لم نـكد نـسمع من قولهم فى التمثيل شيئا وقد تصدعت رءوسنا على أن الصينيين كانوا منصتين مأخوذين وهم معروفون بتقديرهم للبلاغة فى القول والتعمق فى الفلسفة . ثم كان التمثيل المتثاقل وأمثال تلك الدور كثير فى تلك البلدة .

آويت الى النزل وطفقت أربعـة أيام كاملة اتزود من ظرف سان فرنسسكو وخفة روحها وأنس أهلها ولن أنسى مشيتى خلال تلك الشوارع الانيقة الغاصة بالجماهير ليـلا ونهارا وكانت تستوقفنى بين آن وآخر تلك المبانى الشامخة التى بولغ فى تنسيقها وتجميل مواضعها وكثير منها يبدو جديدا وهذا القسم من البـلدة هو الذى دمره الزلزال سنة ١٩٠٦ واشتعلت به النار فلم تبق منه شيئا لذلك أنشـأه القوم من جديد على نظام هو خير من سالفـه وهو القسم الشمالى الشرقى الذى يتوسطه شارع (Market) . ولقد رغبت فى زيارة الجامعة فركبت لها الفرسى فى ضاحية (بر كلى Berkly) وهناك فى بنائها الفاخر كان يتلقى دروس الصيف زهاء ١٦٠٠ طالب من مختلف الجهات أما أثناء الشتاء فعدد طلابها ٢٢ الفا وهى من اكبر حامعات أمريكا . ثم عرجت فى عودتى على حديقة الحيوان الجميلة وشاطىء الاستحمام وما حوى من صنوف الألعـــاب الامريكية على نمط ما رأيناه فى مدينة الملاهى فى معرض العـام الفائت الا أنه ثابت وعظيم الامتداد ومتعدد الالعاب وتدهش للاموال التى ينفقها الناس هنـاك وحتى الأطفال كانوا ينفقون ريالات متعاقبة بدون اكتراث . ثم عدت مخترقا بعض ضواحى السكنى وجل بيوتها من دورين أو ثلاثة وغالبها بالخشب الذى يطلى فيرى وكأنه البناء الأصم وذلك خشية آثار الزلازل كثيرة الحدوث فى تلك الجهات . ولقد أعدت تجوالى ليلى الاخيرة استمتع بأنوار المدينة الخاطفة



(شكل ٨٨) همج المحيط الهادى يصيدون السمك بالحراب

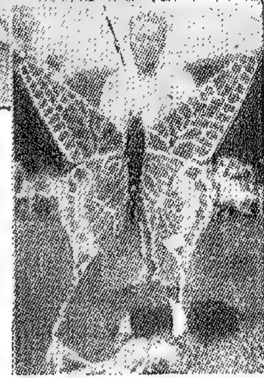
وحركتها المستمرة ومتاجرها المعروضة وحتى بعض البنوك وبخاصة (بنك أمريكا) كانت الأضواء تشرق فى بنائه الفاخر وكانت الحركة المالية فيه مستمرة وقد كتب عليه : البنك مفتوح آناء الليل وأثناء النهار على أنى لاحظت رغم كثرة الأموال عددا كبيرا من العاطلين ومنهم من كان يعترضنى ويطلب عونا ماليا ويقول بأنه معوز لا يجد عملا وقيل لى ان عددهم يناهز عشرة ملايين فى البلاد كلها ومنهم من تدفع له الدولة أعانة مالية حتى يجد مرتزقا . وكنت أحس بالألم المفجع لأمثال هؤلاء أذ يبصرون بعيونهم مبلغ المتاع الذى ينغمس فيه اقرانهم والريالات التى تبدر بسخاء هنا وهناك وهو صفر اليدين لا يستطيع سد حاجة مما اعتاد من صنوف المترفات ومطالب الحياة الأمريكية التى لا تحد وكان كثير من أبناء السبيل حفاة وفى ثياب مرقعة لكنهم رغم ذلك المظهر البائس يسيرون مرحين فأذا سألك أحدهم عونا ولم تجبه الى سؤله لم يلحف فى الطلب بل ابتسم وسار الى سبيله .

وفى صباح الجمعة ١٣ أغسطس قمت أودع سان فرنسسكو التى اسسها الأسبان سنة ١٧٦٩ بوساطة بعض بعوثهم الدينية (St Francis) وفى سنة ١٨٢٨ لم يزد سكانها على ٨٠٠ وعند ما كشف (مارشال) الذهب حول مجرى سا كرمنتو هاجر النـاس اليها من كل فج وبلغ التزاحم حداً كان الفراش يستأجر بجنيه فى الليلة وكانت البيضة تبـاع بريال وبلغت أجور العمال ٢٠ ريالا فى اليوم وفى عامين بلغ اهلها ٣٠ ألفا . ركبت (السابحة) الى أوكلند حيث محطة سكة الحديد وأقلنى القطار سائرا صوب الشمال الى بلاد كندا مخترقا جبال الركى الشامخة وكان الجو خلال اقامتى فى فرسكو جميلا اقرب الى شتاء مصر منه الى صيفها بعكس ما قاسيته فى (هوليوود ولوز انجليز) من الهجير اللافح الذى يفوق فى نظرى صيف مصر وذلك كان من ضمن العوائق التى صرفتنى عن زيارة (خانق كلرادو) بعد أن كنت قد اعتزمت زيارته . دخل بنا القطار فى سهول مبسوطة قد اصفر أديمها بقايا الغلال المحصودة ومنها متسعات هائلة زرعت باشجار الفاكهة وبخاصة البرتقال ثم أخذت الخضرة الطبيعية تزداد بعـد أن سرنا زهاء ثمان ساعات وكثر الشجر البرى ثم أخذنا نوغل فى البرى ونترك السهول والقطار يتلوى صاعدا فى جهد كبير رغم ضخامة قاطرته ثم عمت الغابات النجاد كلها وهى فى القمم من شجر الصنوبر لكن الأغلبية من الاشجار المورقة وبخاصة (red wood) وكانت وديان الماء الغائرة المتعرجة تبـدو فى رواء يستهوى القلوب وفى بعضها شلالات كبيرة وكانت القرى نادرة تقوم بيوتها الصغيرة كلها من خشب وفى مجاورة المجارى المائية كنا نرى كثيرا من مناشر الخشب وهو من اكبر صادرات تلك الجهات وفى بعض تلك المجارى كانت كتل الخشب الغفل توصل بعضها بعوارض خشبية فتكون (عوامة) سابحة هائلة ومقدمها يرص فى شكل مقدم السفينة فى مثلث كى يسهل عليه شق الماء ومن الشجر الذى كان يقطعه القوم ما بلغ ضخامة هائلة بحيث كنا نرى جزءا صغيرا من



فى جزائر ساموا ذات الطبيعة الساحرة





(شكل ٨٨)
قد يزيد الفراش على قامة الرجل فى هنولولو

شجرة واحدة يملأ فراغ عربة نقل كبيرة وكلفورنيا وأرجون من أشهر بلاد العالم بذاك النوع من الشجر الضخم شاهق العلو وهو (Red Wood) وكثير من المناشر تقوم الى جوارها مصانع عجينة الورق من الخشب، وأخذ ذاك الجمال الطبيعى الذى لم تكد تمسسه يد الانسان يزداد حتى قاربنا البحر عند بلدة (سياتل) وبينها وبين فرسكو ٥٧١ ميلا وتقع على جون غائر فى الأرض بألسن لا حصر لها والبلدة مقامة على مدرج فوق الجبال التى تكسوها الغابات فى مشهد جميل وتبدأ الشوارع متوازية من 1st Av. إلى 2nd إلى 3 الخ وكل واحد يعلو أخاه بنحو عشرة أمتار أو يزيد وتقطعها متعامدة عليها شوارع أخرى وأهمها جميعا شارع (Pike) مقر المتاجر الكبيرة والحركة الصاخبة ولقد جبت جل تلك الشوارع وهى على نمط المدن السابقة ولعل أجمل ما استرعى نظرى السوق العام Public Market تعرض فيه جميع السلع بمختلف أنواعها وخصوصا المأكولات فى تنسيق

كبير ونظافة تامة ، والباعة يحاولون استمالتك بصياحهم بالثمن وتحسين بضائعهم فى تزاحم لم أره فى سائر المدن الامريكية الأخرى مما أذكرنى بأسواق الشرق عندنا وكثير من الباعة من الصينيين الذين لهم حيهم فى السكنى على مثال فرسكو وفى ركن من البلدة ميدان فيه متنزه صغير أقيم وسطه نصب هندى يسمونه Totem Pole وهو يمثل شجرة العائلة لأهل الاسكا من الهنود الحمر . ويظهر أن الحالة المالية فى البلدة كاسدة لكثرة ما شاهدت من العاطلين والمتسكعين وكثير منهم يقف على نواصى الطرق ويستجدى المارة .

غادرت سياتل صباحا إلى كندا فركبت الباخرة الفاخرة وكانت غاصة بجماهير المسافرين فسارت بنا فوق أربع ساعات (٨١ ميلا) كلها وسط اجوان وجزر تحدها الربى التى تتوجها الغابات الكثيفة فى مناظر ساحرة ولما أن رسونا على فكتوريا فى جزيرة ڤنكوڤر ، مررنا برجال المهاجرة فختموا جواز السفر فى غير تعطيل ثم انتقلت إلى نزل جميل فاخر هو Dominion Hotel بريال ونصف فى الليلة ، وفكتوريا عاصمة مقاطعة كلمبيا البريطانية مع أنها أصغر من ڤنكوڤر فسكانها ٦١ ألفا ، ولقد أسستها شركة خليج هدسن التجارية منذ أن أقامت قلعتها سنة ١٨٤٣ .

ألقيت بحقائبى فى النزل ثم سارعت بأخذ مكانى من سيارة السياحة فطافت بنا فوق ساعتين (بريال) خلال المدينة وخارجها فبدت البلدة هادئة إلى حد موحش لأنه يوم الأحد من جهة ولأن بلاد كندا بخيدة كل البعد عن تلك الجلبة وسرعة الحركة التى نشاهدها فى جميع مدن الولايات المتحدة . والشوارع هنا أفسح بكثير من الشوارع الأمريكية لكن مبانيها واطئة لا ترى من بينها تلك الناطحات التى أغرم بها أهل الولايات المتحدة وأكثر تلك الطرق حركة ووجاهة (Government) و (Douglas) الدى يوازيه ثم (Yates) و (Fort) اللذان يقطعانهما ومن أجمل أحيائها البلدة الصينية وهى



(شكل ٨٩) نخيل النرجيل على شاطىء وايكيكى فى هنولولو

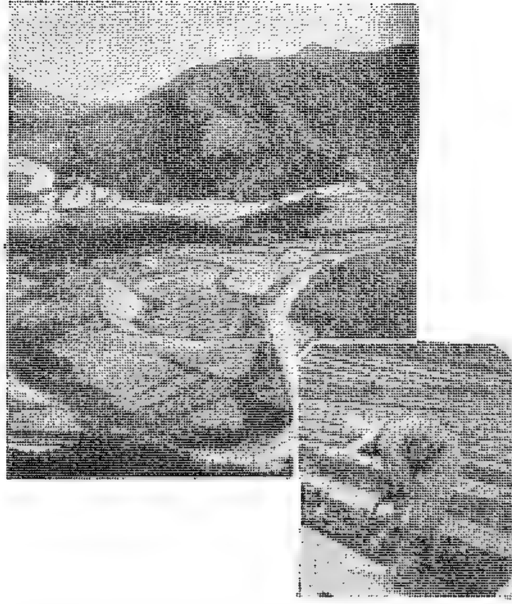
شبيهة بتلك التى فى فرسكو لكنها أصغر منها ومن المبانى التى تجتذب النظر دار الحكومة يتقدمها تمثال (فكتوريا) وتشرف على جناح من البحر ثم (أوتيل Empress) الهائل الذى كسى من خارجه بالنبات المتسلق الأخضر البديع وهو مزود بآيات الزخرف والاسراف فى التأثيث من داخله وإلى جواره المتحف الصغير والزورق الشراعى الذى طاف به شاب سنة ١٩٣٠ ٤٠ ألف ميل حول العالم. ولقد خرجت بنا السيارة مخترقة الغابات خارج البلدة وهى غاصة بالنبات الطفيلى خصوصا Ferns وفى كثير من جهاتها كانت كثيفة الشجر جدا ، وكنا نمر بالبيوت الخشبية الصغيرة منثورة وحولها بعض مزارع الغلال والفاكهة خصوصاً فى المنخفضات. وأخيراً دخلنا حديقة Butchart وهو أحد السراة أصحاب الملايين زود بيته بحدائق بالغ فى تنسيقها وتنويع شجرها وزهورها التى أعد لها بيوتا زجاجية ثم أمدها بمقاعد فى مختلف الأشكال وفى عدد لا حصر له ، وفى جناح منها حديقة

للحيوان والطيور وفى كثير من المتسعات قد أعد ملاعب للأطفال وأراجيح ثم فتح أبوابها للجماهير تؤمها للنزهة واللعب متى شاءت . وفى عودتنا زرنا المرصد فوق ربوة شاهقة وبه منظار يعد من أكبر ما صنع صبت عدساته فى بلجيكا وصدرت اليه قبل احتلال الألمان لمدينة Liege بثلاثة أيام فقط والمرصد ثانى مراصد الامبراطورية البريطانية والمدينة بدت آية فى النظافة ولذلك لم أعجب لما علمت أن نسبة وفيات الأطفال أصغرها فى العالم إذا قورنت بالبلاد التى تساويها عددا فى السكان ويطلقون عليها اسم (باب كندا) لأنها نقطة الاتصال بجميع البلاد الخارجية ولذلك يرمزون لها بمفتاح ذهبى تراه معلقا على صدور بعضهم ومعروضاً للبيع فى كثير من متاجرهم . وما كان أجمل دار الحكومة وقد أضيء صدرها كله بالثريات ليلا ، وكانت تواجها فى البحر سفينة صنعت فى شكل مسرح هائل زود بالنقوش والأضواء القوية وأقيم مدرج كبير أمامه على الشاطىء جلس فيه الجماهير يستمعون لفرقة الموسيقى الكبيرة ولغناء بعض المتطوعين من النساء والرجال أما أضواء الشوارع وملاهيها فقليلة بالنسبة لما تراه فى المدن الأمريكية والبلد يبدو عليه الطابع السكسونى الانجليزى فى بروده وجمود حركته على انه خفيف الروح فى جملته .

ولا يبدو على الناس هنا مظهر الغنى وتبديد المال كما كنا نشاهد فى البلاد الامريكية وكثير من الناس فقراء ويستجدون غيرهم ، ويبدو على هندام بعضهم العوز الشديد وحتى أطفالهم قد اعتاد الكثير منهم ذاك التسول .

قمنا الساعة الثانية مساء نستقل السابحة إلى مدينة :

فنكوفر وكان التزاحم فوق الباخرة كبيراً حتى كانت أكتافنا تتساند ولم يكن فى الباخرة مكان للحركة . ذلك لأن هذا الميعاد صادف اليوبيل الذهبى للمدينة ولذلك أقاموا فيها عدة مهرجانات وزينوها وخفضوا أجور النقل شهرين كاملين ، هذا الى أن القوم يحبون الانتقال فكلما سنحت لهم فرصة سافروا فى



(شكل ٩٠) العناية بأرض الزرع فى هنولولو

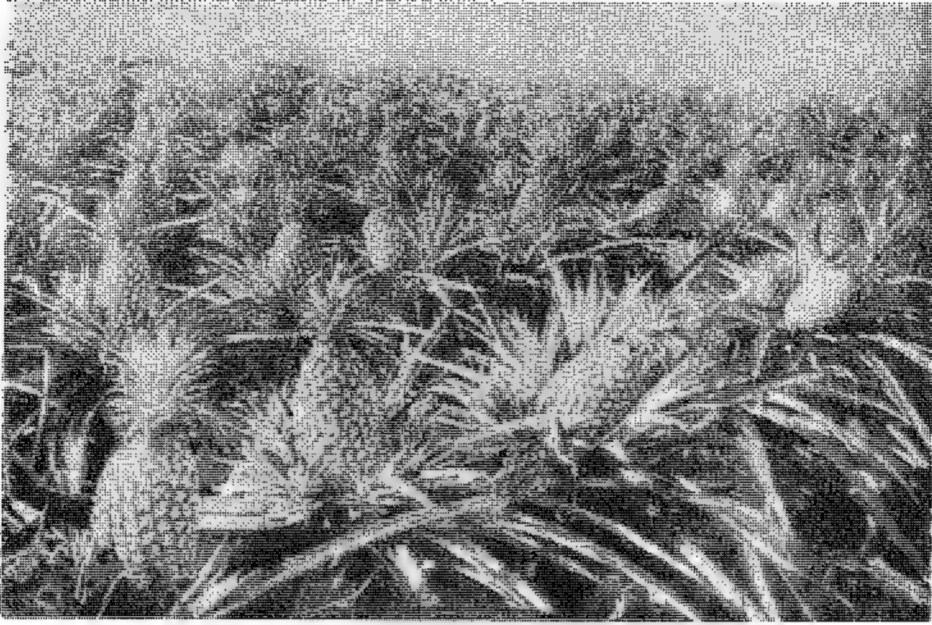
نزهة بحرية، وهل أجمل من السير بين أجوان جزيرة فنكوفر ومناظرها الساحرة.

لبثنا نسير أربع ساعات وسط صخور وجزيرات تكسوها الغابات وتتاوى بينها الأجوان فى مناظر خلابة ، وقد كانت الفنادق مكتظة حتى أنى بعد جهد وجدت غرفة لى فى نزل (Dunsmuir) ولا بأس بها وأجرها (١½ ريال) أخذت أجوب أكثر نواحيها حركة فى شوارع فسيحة وأبنية لا بأس بوجاهتها ومنها ما يعلو عشرين دوراً وقد زينت بالأعلام والثريات وكتب على الأعمدة (مرحبا بكم) وذلك بمناسبة الاحتفال الذهبى وأكبر شوارعها التجارية جرانفل (Granville) يمتد خمسة عشر كيلومترا وفى حد طرفيه نهر فريزر ومن أجمل المبانى عليه فندق فانكوفر الذى تديره سكة حديد كندا الباسفيكية وبها فوق ٥٠٠ غرفة ، وفى الصباح أخذت مكانى من سيارة السياحة وطفنا بنواحى البلدة ومما راقنى كثيراً المدينة الصينية وبها ١٤ الف صينى يقطنون فى بيوت صينية الهندسة ولهم معابدهم واعلاناتهم بخطهم العجيب .

ودخلنا معرضهم وفيه بوابة فاخرة أقرضتها الحكومة الصينية حتى تنتهى حفلات اليوبيل والى جوارها المدينة اليابانية وبها سبعة آلاف . وأخيراً وصلنا Dtanley Park فى مساحة ١٠٨٤ فدان جلها من الغابات التى أدهشنا مختلف الشجر فيها وضخامته ومن الشجر ما يزيد محيطه على ٦٠ قدماً ويشمخ عاليا فى الجو خصوصاً (Red cedar) وتبدو جذوعه وكأنها حزمة من أشجار التوت على بعضها ومنها ما ينمو من وسط جذع لشجرة أخرى قطعت من قديم وهناك شجرة ملتوية نما القسم الأكبر من جذعها أفقيا وقد نمت عليه شجرتان رأسيتان من نوع آخر ، وأقسام الزهور هناك كبيرة وتحوى مجاميع بديعة وخصوصاً القسم المسمى Shakespeare's house وفيه تنمو كل الزهور التى ورد ذكرها فى مؤلفات شاكسبير ، والعجيب أنهم يضعون وسط كل حوض للزهور مصابيح الكهرباء لتضىء ليلا وتظهر الزهور فى شكل بديع وقد زود المتنزه بالملاعب المختلفة والحمامات وحظائر الحيوان ، وبه قسم مخصص للهنود الحمر وقد أقيمت به قرية هندية نموذجية تتقدمها أنصابهم المخيفة من نقر الخشب وتبلغ علواً شاهقاً وهى تمثل الآلهة ذوات أجنحة تنــذر بالرعد والمطر وعيون محدقة تنذر بوميض البرق المخيف .

وهناك أثر حجرى للهنود قدر عمره بنحو ١٨٠٠ سنة ، وفى جانب من المتنزه جزيرة صخرية يسمونها Dead mans' island كان الهنود يدفنون فيها موتاهم وطريقتهم فى الدفن أن توضع الجثة فى زورق يعلق بين الأشجار وتحرسه تلك الأشباح والأنصاب البشعة والمتنزه يشرف على أجوان الميناء من عدة مواضع فكانت تبدو الجزيرات والربى التى تكسوها الغابات فى جمال رائع ، فالطبيعة فى تلك الجهات غنية بجمالها الذى يستهوى المرء أن يقيم فى تلك البقاع طويلا .

أما البلدة نفسها فليست فى روعة البلاد الأمريكية ويبدو على

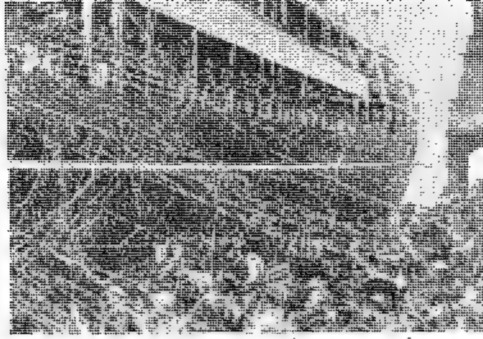


(شكل ٩١) هنولولو تنتج خير أنواع الاناناس وأوفره محصولا

مبانيها القدم فهى تظهر قاتمة غبراء وأهلها أبعد عن وجاهة الأمريكيين فى هندامهم ومرحهم وكثير منهم رقيق الحال معوز محتاج .

ومن المتاجر التى زرناها Stanley من ستة أدوار وفى أعلاها حديقة سماوية معلقة يصعد اليها من شاء التريض والاستمتاع بمنظر المدينة من السماء وقد راقنى فى الدور السادس معروضات (الموبيليات) تفرش الحجرات فرشاً تاماً فيخيل اليك أنها فى بيت عامر بالسكان ، وقد استرعى نظرى كثرة الكنائس فى فنكوفر وفكتوريا فقد تجد خمسا منها فى شارع واحد إلى ذلك جماعة المبشرين الذين كنت أراهم فى نواصى الطرق يخطبون الناس حاثين على التمسك بـ Jesus ومعهم الموسيقى تعزف لهم ، وهم يغنون بين آونة وأخرى ، وكنت أرى نسخاً من الانجيل فى كل غرفه من الفنادق هناك .

قمت مساء بقطار Canadian National, السـابعة إلا ربعا اخترق :
جبال الروكى فسرنا فى متسعات من السهول تغص بالغلال والفاكهة .
ثم بدأنا نتسلق جبالا وطيئة نصف مجدبة وما فتئت الاشجار تتزايد والجبال
تعلو والقطار يجد صاعدا فى جهد كبير وقاطرته تعد من أضخم قاطرات
العالم وأحدثها ، وفى شفق الصباح بدأنا نوغل فى تيه من الربى والغابات
تطوقها مسايل المياه تنقبض تارة وتنبسط أخرى ودوى المياه فيها كأنه الرعد
وكم مررنا بشلالات رائعة أفخمها مكانا (شلال الاهرام) الذى تتفجر مياهه
وهى هاوية إلى الأغوار فى شكل مثلث وكانت بعض الدببة السوداء قيمة
الفراء والتياتل والموس والألك ترى هناك على قلة وقد شعرت أنها آمنة
إذ هى فى الحرم الذى يمنع فيه الصيد وحتى المتوحش لا يضربه البوليس إلا
بأذن من الحكومة وقد فاجأتنا مجموعة من بحيرات فضية آسنة تنعكس ذرى
الجبال المحيطة باشجارها الكثيفة على صفحة مائها فى مشهد رائع وبين آونة
وأخرى كنا نرى بعض الثلج الناصع البياض يكسو الربى النائية ولعل أروعها
جميعا Mt. Robson وعلوه (١٢٩٧٢) ومن أشهر الأنهار التى مررنا بها
فريزر الذى كان يتسع فى بعض جهاته إلى ثلاثة أمثال نيل مصر وكانت
سابحات الخشب تعوم فى سلاسل متعاقبة تجرها اللنشات إلى حيث تنشر
وكان يهولنى النمو الأسفل للنبات الطفيلى وبخاصة السرخس (ferns) الذى
كثر كثرة عجيبة وظلت تلك المناظر الخلابة تتزايد سحرا كلما أوغلنا فى
تلك الجبال ومررنا بالقرى النادرة ببيوتها الخشبية الصغيرة حتى كانت
الساعة الواحدة والنصف من يوم الأربعاء حين وصلنا : جاسپر أى
بعد زهاء ١٨ ساعة من فنكوفر . هنا تركت القطار وودعت من حولى من
رجال ونساء التفوا بى وعكفوا على التحدث إلى وتمنوا لى رحلة سعيدة ثم
آويت إلى فندق (الاهرام) الصغير الجميل وقد آثرته على غيره بمجرد أن
رأيته يحمل اسما مصريا . والبلدة كلها صغيرة تتالف من مجموعة من الفلات



شكل (٩١) جماهير المودعين يمسكون بأشرطة الورق الملون

الخشبية البديعة نثرت وسط المزارع الطبيعية وقامت من حولها مخاريط الجبال من كل جانب تكسى بالخضرة والشجر الصنوبرى . ويغطى بعضها بالثلوج الوضاءة وهى هادئة لا تكاد تسمع فيها حركة فتخالها خلوا من الأهلين ولا يزيد سكانها على ١٥٠٠ وقد أختيرت وسط (Gasper National Park) الذى أوقفته الدولة متاعا للناس جميعا فى مساحة ٤٢٠٠ فدان وحرمت فيه صيد الحيوان وقطع الشجر وامتلاك الأرض . ولقد عنيت شركة سكة الحديد (C. National) بتنسيقه فى بعض جهاته وتزويده بالطرق والفنادق وبخاصة فى مدينة جاسبر لتجتذب السائحين إليه ولقد زرت فندقها الفاخر (Lodge) الذى أقيم من كتل الخشب الاسطوانية فى عدة أبنية منفصلة ونسقت حوله الحدائق أيما تنسيق وزود ببركة صافية الماء للاستحمام لكن أجره باهظ هو سبعة ريالات فى اليوم للنوم فقط . وقد حفظت مكانى فى سيارة السياحة بريالين فطافت بنا بعض الجبال المجاورة ثم خانق Maligne الذى سرنا على جوانبه خمسة أميال وهو يتلوى وتتعقد صخوره وتهوى روائع شلالاته فى مناظر نادرة المثال وعدنا بعد ساعتين ونصف ، ومن أروع الجبال المشرفة على البلدة (كافل) فى هرم مدرج تكسوه الثلوج الخفيفة ومن دونه بحيرة ينعكس عليها فى صفاء ناصع ، ثم

نهر أتاباسكا المختنق الذى يتلوى إلى جانب البلدة ليات شديدة وتكاد تسده الغابات على جانبيه ، وبمجرد نزولنا من القطار استرعى نظرنا عمود (Totem Pole) الذى يذهب عهده إلى ١٨٠٠ سنة قديما وهو رمز سيادة الأسرة عند الهنود الحمر يحتفظون به ليدل على أنهم من أصل عريق شريف وكنا نرى قليلا من الهنود بوجوههم القبيحة ولونهم الأغبر الكدر وقاماتهم القصيرة وأكتافهم المقوسة وعجيب أنهم بعيدون عن اى استعداد للتقدم فمستواهم العقلى منحط بطيئو الفهم رغم محاولة الدولتين الأمريكية والكندية تحسين حالهم وهم لاشك آخذون فى الانقراض ، وشتان بين عقليتهم الراكدة وسحنتهم المنفرة وبين الماورى مثلا بذكائهم المفرط وجمالهم الجذاب ، والهنود الحمر قريبو شبه بالصينيين لذلك رجح أنهم وفدوا من الصين عن طريق سيبريا والاسكا وانتشروا فى الامريكتين ولا يزيد عددهم فى كندا على مائة ألف .

وكثير منهم يشتغلون بصيد السمك وحيوان الفراء وقطع الخشب ويسود الاسكيمو البلاد الجليدية الشمالية وقبائل الهنود الحمر عديدة لاتحصى وأهمها : الاسكيمو والمكماك Micmac والمنتانيا والتشپوا والاتاوا والكرى Cree والبلاكفيت والهورون ايروكوا .

وفى البلدة مدرسة جميلة تحوى السنوات الابتدائية والثانوية معا وبعض فصولها يزيد عدده على الأربعين . طفقت يومين أجوب نواحيها وأرتقى جبالها وأغالب غاباتها والهدوء من حولى شامل أشعرنى بشىء من الوحشة والحنين إلى ضوضاء المدن التى ألفتها فى رحلتى هذا العام إذ جلها كان فى البلاد العامرة الصاخبة ، وجاسبر خير مكان لطلاب الراحة والسكون ولطائفة الكتاب والشعراء والفلاسفة . أما الجو فى تلك الانحاء فبارد منشط تنتثر سماؤه بالغيوم التى تسح جفونها أحيانا ثم تنكشف عن أضواء جذابة من وراء حجب الجبال والغابات القائمة والنهار هناك طويل جدا إذ كنت

أقرأ الجرائد أمام المنزل الساعة التاسعة مساء على ضوء الشفق ذلك لأن المكان على خط عرض مرتفع جدا هو (٥٤° شمالا) . ولما أن وصلنا جاسپر



(شكل ٩٢) فى هوليوود بوليفار

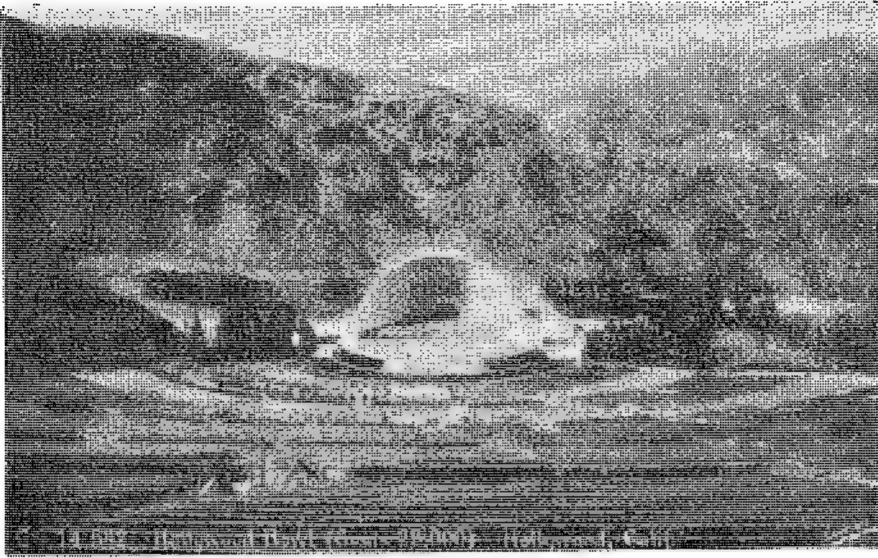
كانت ساعتنا الواحدة والنصف لكننا ألفيناها هناك الثانية والنصف فقدمنا ساعاتنا واحدة . وبلاد كندا عريضة جدا بها أربع مناطق زمنية فكلما سرنا إلى الشرق خمس عشرة درجة دفعنا بعقارب ساعاتنا خطوة إلى الأمام . أما حياة الليل هناك فموحشة مظلمة عديمة الحركة ووسائل التسلية نادرة فليس ثمت إلا سينما واحدة صغيرة ومقصفا أو اثنين واذكر أنى كنت أتناول الشاى فى أحدها وإذا برجل متقدم السن دخل فى زمرة من الأطفال يفوقون العشرة عدا وهم مرحون وقد هجموا على البائع يطلب كل ما يرغب من شراب أو مرطب ودفع عنهم الرجل جميعا ، ولما أن سألته أهؤلاء بنوك



(شكل ٩٣) فى ناحية من هوليوود

قال كلا بل انى أحب أن أجمع الأطفال الفقراء وأزودهم بشيء مما نستمتع به آنا بعد آن فأكبرت فيه هذا الشعور الجميل وعلمت أن الكثير من هؤلاء الناس خيرون طيبو القلب شفيقون بالغير . والمدهش أن الرجل لم يترفع عن الجلوس معهم ومسامرتهم رغم هندامهم الرث وحالتهم المزرية . هنا لمت نفسي وشعرت بشيء كبير من الخجل والخزى لأنى لم أفعل ذلك مرة واحدة مع شريدى الشوارع فى مصر وهم لايحصون عدا وآليت على نفسى أن أشرك بعض هؤلاء معى فيما منّ الله به على من نعيم ومتاع .

قمت بقطار الخميس صوب : ونيبج وأرض البريرى الشاسعة فكانت المنطقة جبلية غنية بمناظرها وغاباتها وبحيراتها ومجاريها وبخاصة نهر أثاباسكا ثم أخذت الأشجار فى القلة والصغر وأضحت البيئة بستانية كما يسمونها (Park) وندرت الجبال ثم أصبحنا وسط سهول مترامية لا تكاد ترى فى أرضها تموجا ولا حزونا وذاك لما أن بلغنا (أدمونتون) من كبريات مدن مقاطعة Alberta وظهرت منابت القمح وقد كسا الأرض بقاياه الصفراء الذهبية وكان القوم جادين فى حصده ودرسه بآلات كبيرة غالبها يدار بالبنزين والقليل بالخيل ، والمدينة مركز هام للغلال والتعدين ، وقد مررنا بمطارها الهائل الذى لا يزال يخدم وتطير منه الطائرات الف ميل الى مناطق التعدين شمالا وبها كنوز الذهب والراديوم ويخالونها من أغنى بلاد العالم ، والطائرات خير وسائل النقل الى تلك الأصقاع النائية الباردة . الى ذلك فهى مركز لتجارة الفراء وصيد حيوانه الى شمالها . عدنا الى الشرق زهاء ٩٠٠ ميل كلها سهول مبسوطة اخضر أديمها بعشب لا يكاد يستقيم عوده وظهرت منابت القمح الصفراء خلاله وكلما قربنا من جدول أو وادى نهر ظهر الشجر القصير وحاكى الأقليم الغابات القصيرة المغلقة والأرض هناك مقسمة الى مزارع يسورها ذووها ويقيمون وسطها بيتهم الصغير من كوخ أو اثنين والى حافة المزرعة رافعة الغلال Elevator كالبرج المربع تعلوه شبه قبة وهنا تخزن



(شكل ٩٤) بعض مسارح هوليوود فى الهواء الطلق يسع ٢٢٠٠٠ نفس

الغلال حفظا لها من التسويس أو خطر الفيران . وليس بالمزارع أشجار ولا آبار ولا مضخات هوائية كتلك التى تميز أرض بامباس بامريكا الجنوبية .

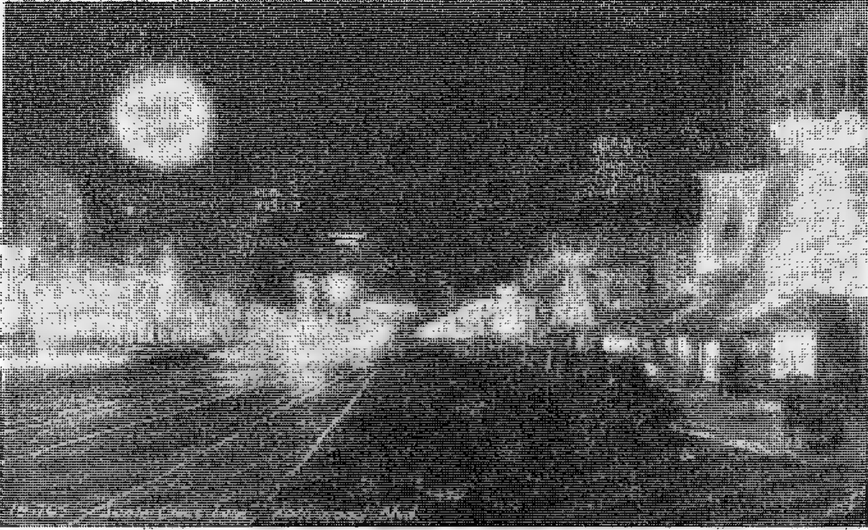
والمزارع ميل مربع فى المتوسط (زهاء ٦٠٠ فدان) وأصغرها ربع ذلك والحكومة تساعد القوم باعطاء من أراد ١٦٠ فدانا يخدمها ثلاث سنين فان أفلح تركت له بقيم زهيدة تتراوح بين ٤ ، ٦ جنيهات للفدان والغلال تزرع على المطر ليس غير فيبذر القمح فى مايو ويحصد فى أغسطس والمطر يسقط فى تلك المدة عادة ، واذا ما فرغ الفلاح من الحصاد وتخزين قمحه حرث أرضه من جديد وتركها للعام المقبل وينزل عليها الثلج شتاء الى علو ياردة تقريباً وإذا ما ذاب فى الربيع روى الأرض وبذر الفلاح قمحه الجديد ولا يتطلب المحصول خدمة بل ينمو بعد ذلك وحده حتى ينضج ، وقمح كندا أحسن أنواع العالم قاطبة ويسمونه Grade 1 ولا يزال يحتفظ

فى الأسواق بأغلى ثمن وقد بلغ هذا العام ٨٥ سنتيما للبوشل وقدر محصوله بنحو ٢٥٠ مليون بوشل (أى نحو ٥٠ مليون أردب) ولم يكن محصول هذا العام وفيرا بسبب الجفاف الذى حل بالأراضى وندرة المطر لكن الله عوضهم خيرا فرفع قيمة الثمن عما كان عليـــه من قبل ، وقدروا متوسط المحصول للفدان بنحو ١٠ بوشل مع أن العادة كان بين ٢٠ ، ٣٠ بوشل .

لبثنا اليوم كله نشق تلك البريرى المبسوطة المملة وكان ترابها يخترق كل شيء مما أذكرنى بتراب صعيد مصر وقد اشتد الحر وسط النهار جداً ونزل فى الليل الى ما يقرب من برد شتاء مصر وقد كان الحر منذ شهر بالغ الشدة هنا حتى مات بسببه الكثير إذزادت الحرارة فى الظل على ١١٠°ف ، والعجيب أن الشتاء الماضى كان قاسيا أيضا إذ نزلت الحرارة ٥٠° تحت الصفر . وكلما قاربنا ونيبج زاد انبساط الأرض واسود أديمها وجادنوعها فهى خير أراضى البريرى خصباً وتمتد شمالا زهاء ٣٠٠ ميل وجنوبا الى مساحات بعيدة فى الولايات المتحدة .

وكان يخيل إلى أن المزارع خالية من السكان تماماً إذ قلما كنا نبصر بالناس فيها ذلك لأنها لا تتطلب عملا كثيراً . على أن العمال قد يوظفون هناك فى مواسم الحصاد وأجرهم نصف جنيه فى اليوم ويزودون بالمسكن مجانا ومع ذلك فهم غير قانعين ويرغبون فى المزيد ، والقوم هنا ظرفاء ويميلون الى العشرة واكرام الغريب جدا وفيهم شيء كبير من صفات البدو والرعاة .

ومما كان يدهشنى جدا مستوى أطفالهم من الذكاء والرجولة يتحدث إلى الطفل وهو عليم بكل ما أحاط به من ظروف الأرض والجو والانتاج اعتاد السفر بعيدا عن بلده واعتمد على نفسه فى كثير من الأمر ولما تبلغ سنه العاشرة فكنت أغبط القوم على تلك التربيـة الاستقلالية وآسف لنصيب أبنائنا منها . والمدارس هنا تبدأ بالروضة ثم بالفرق الاثنتى عشرة



(شكل ٩٥) هوليوود اثناء الليل

وبعدها يدخل الطالب الجامعة ولا يتعلم لغة أجنبية إلا فى الفرقة الثامنة فقط وهى هنا إما الفرنسيه أو الالمانية أو اللاتينية . أخيرا بعد ثمان وعشرين ساعة دخلنا ونيبج بعد أن اخترقنا مديرية ساسكاشوان ووقفنا ببلدة ساسكاتون الكبيرة ثم أوغلنا فى مديرية مانيتوبا وقدمنا ساعاتنا واحدة وفى ونيبج حللت نزل (ونيبج) الجميل مقابل ريال لليلة . والمدينة مقامة وسط تلك السهول فى شوارع فسيحة يزين أغلبها الشجر المزدوج واكبر شوارعها (Portage) و (Main) وبها غالب المتاجر ودور السينما والمقاهى والمطاعم وخير ما يزار بها (City Park) وهو خارج المدينة حوى حديقة حيوان صغيرة ومجموعة غنية من الزهور البديعة ثم بعض البحيرات للسباحة وملاعب الرياضة المختلفة ، والبلد تقع عند تلاقى نهرى (Red و Issinaboin) وهى وإن كانت من البلدان الكبرى إلا أن المظهر الريفى يسودها فهى أقل وجاهة من البلدان الساحلية وأهلها أبسط هنداما وأرق حالا وهم على جانب كبير من كرم الطباع والظرف

مينا بلس قمت التاسعة صباحا صوب الجنوب الى مينابلس مسافة ٥٠٠ ميل قطعناها فى ١٤ ساعة فأخذنا نشق السهول ذات التربة السوداء والسطح المنبسط والخصب الظاهر فى كثرة العشب فى كل مكان والحق أن أرض (البريرى) لا يعوزها إلا الماء والأيدى العاملة الرخيصة القانعة حتى تغل من الانتاج النباتى أضعاف ما هى عليه اليوم إذ أنها لا تستطيع إلا زرع الغلال والعشب شهورا قليلة وتترك بورا باقى العام . وحيث كانت تبدو البحيرات أو الجداول كان النبت يزداد والشجر يتكاثف فيصبح المكان أشبه بغابة مغلقة . وبعد ساعتين ونصف وصلنا حدود الولايات المتحدة وتقدم رجال الجمارك وفتشوا أمتعتنا فى رفق ثم مر ضابط المهاجرة وختم الجواز وكلما تقدمنا جنوبا كثر الشجر وسط تلك البريرى الممتدة وزادت الآلات الزراعية فى الحقول وتضخمت مخازن الغلال وروافعه Elevators ولقد كان هجير الحر شديداً لا فحا طيلة اليوم مما فاق أردأ أيام الصيف فى مصر شدة وذلك رغم المراوح التى زود بها القطار وصنابير الماء المثلوج فى طرفى كل عربة نحتسيه فى أكواب من ورق صنعت فى اسطوانات فوق الصنبور . والمقاعد فى هذا القطار استرعت نظرى بوثير فرشها من القطيفة الثقيلة والمقاعد فردية كبيرة (فوتيل) تدور على محور فيحركها الجالس فى أى اتجاه شاء ومنها صف فى كل جانب من العربة ، أما وسطها فترك فسيحا وقد زود بالبسط الثمينة ومطافىء السجائر الأنيقة بحيث تشعر وكأنك تجلس فى صالون أو مقهى فاخر وعربة الطعام والمرطبات متصلة بالقطار نشترى منها ما نريد ، رغم كل ذلك نغص الحر علينا عيشنا فكاد القوم يخلعون كل ثيابهم ويبدون عرايا وقد ابتلت ملابسى كلها عرقا . وأظرف شىء فى قطارات الولايات المتحدة وكندا أنها كلها ذات درجة واحدة لا فرق فيها بين غنى وفقير تنتقى من المقاعد ما راقك ، على أنى لاحظت فى المسافرين من طبقة الفقراء حسن والذوق فاذا كان من العمال من يرتدى ملابس العمل الرثة لا يتقدم وسط الجلوس بل



وسط المناظر الساحرة فوق ذرى جبال الركى (جاسبر بارك كندا)

ينتحى جانباً من العربة هو واخوانه، على أنك قلما ترى أحدهم فى قذارة تنفر منها .

أخيراً أقبلنـــا على طلائع بلدة كبيرة بأضوائها الخاطفة وهى منيابلس ثم قام القطار إلى شقيقتها سانت پول التى وصلناها الحادية عشرة مساء . حللت نزل Ryan الكبير الفاخر (بريال ونصف) ونمت ليلتى نوما عميقا وفى الصباح أقلتنى سيارة السياحة (مقابل ٢ر٥ ريال) لنطوف المدينتين الشقيقتين (Twin Cities) وهما تقعان على نهر مسسبى العظيم وكنا نخال النهر هو الفاصل بينهما، والحقيقة غير ذلك إذ النهر هناك يلتوى فى شكل (S) فى الطرف الشمالى تقع مينا بلس على جانبى النهر، وفى الطرف الجنوبى تقـع سانت پول والمسافة بينهما تفوق عشرة أميـــال؛ فهما ليستا متقابلتين . وعند منتصف هذا الالتواء قنطرتان يخترقهما الترام فيصل ما بين البلدين ولكل منهما عدة قناطر تصل بين نواحيهما المختلفة ففى مينابلس وحدها عشرون قنطرة . وأكبر البلدين مينا بلس وسكانها دون نصف المليون بقليل وهى مشتقة من كلمتين : مني هندية معناها المياه، پوليس الأغريقية معناها مدينة وقد حملت اسم مدينة المياه لأن بها إحدى عشرة بحيرة مررنا بخمس منها وقد رصفت جوانبها وحفها الشجر الكثيف وفى بعضها جزائر كثيفة الغابات . وفيها تقام ألعاب الماء من سباحة وزوارق (Yakhting) ومزالق للجليد شتاء وقد علمت أن المنطقة المجاورة لمينا پولس بها عشرة آلاف بحيرة وسط غابات الصنوبر .

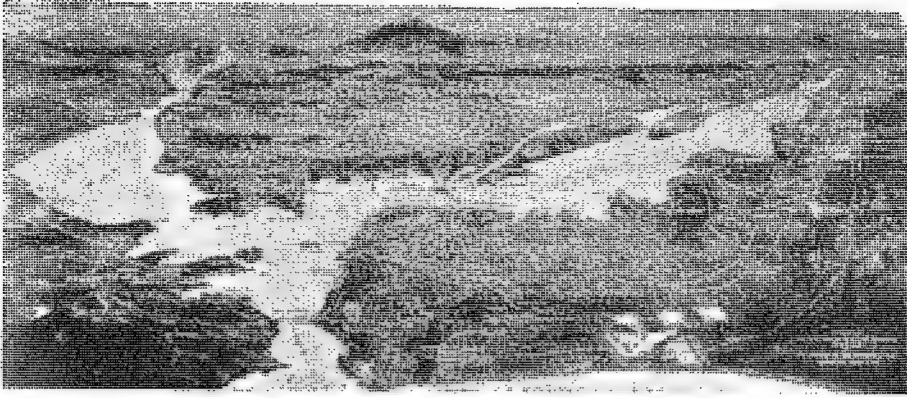


(شكل ٩٦)
مروض السباع فى هوليوود

أما مجموعة المتنزهات التى حول البلدة فذاك ما لم أره فى بلد آخر وقد ترك غالبها فى حالته الطبيعية من غابات وجداول وأحراش يأوى اليها المتريضون ويقيمون فيها خيامهم ويستمتعون بمناظر طبيعية جذابة ، ولقد قرر لكل مائة نفس هناك فدان من المتنزهات وتلك لا شك نسبة لا نراها فى بلد آخر . وتدهش إذ تعلم أن غالب تلك المتنزهات هبات من بعض الخيرين هناك . وعلى جوانب كثير من تلك المتنزهات والبحيرات تقوم مساكن الأثرياء فى ڤيلات خشبية بديعة تطلى بالجص الملون فى أشكال الرخام والآجر والحجارة ولا تكاد تجد اثنتين متشابهتين فى الهندسة لذلك لم أعجب لما علمت أن مينابلس تسمى : مدينة البحيرات والمتنزهات والبيوت الفاخرة. وجل المسافة بين البلدين متنزهات على هذا النمط وبعضها يحمل اسماء هندية مثل بحيرة كتشى كومو وعلى جوانبها رأينا مجموعة من أكوام مخروطية من الثرى منثورة إلى مسافات بعيدة وفيها كان يدفن الهنود موتاهم ويقيمون نصبا صغيرا على ذروة كل منها والبيض لم يحلوا تلك الجهة إلا منذ ٦٥ عاما وهو عمر تلك المدينة الحقيق .

أما ليات مسسبى وكثافة الشجر على جانبيه فذلك قد أكسبه جمالا فائقا وإن كنت أخال النهر أعظم من ذلك ماء وأفسح مجرى إذ ألفيته صغيرا لا يبلغ نصف نيلنا اتساعا وماؤه شحيح آسن وهو هناك أشبه بخانق صخرى مشرف الجوانب فى جزء منـــه شلال صغير يسمى Minnihaha و Hiawatha ومن أروع المبانى التى مررنا بها جامعة منسوتا فى امتداد يفوق الوصف ويلتحق بها ٢٧ ألف طالب وتعد ثالثة جامعات الولايات المتحدة ، ورابعة جامعات العالم بعد فرنسا وكلمبيا بنيويورك، وبركلى فى سان فرنسسكو، وبها مدرج المحاضرات أعد بنحو ٦٥ الف مقعد . ثم الكلية الحربية وهى فرض على كل طالب أن يجتاز دراستها ليلم بالشئون الحربية الأمريكية كلها .

ثم زرنا أحد مصانع فورد التى تخرج ٥٢٥ سيارة فى اليوم وقد أقيم على



(شكل ٩٧) ميناء سان فرنسسكو بشعابها العديدة

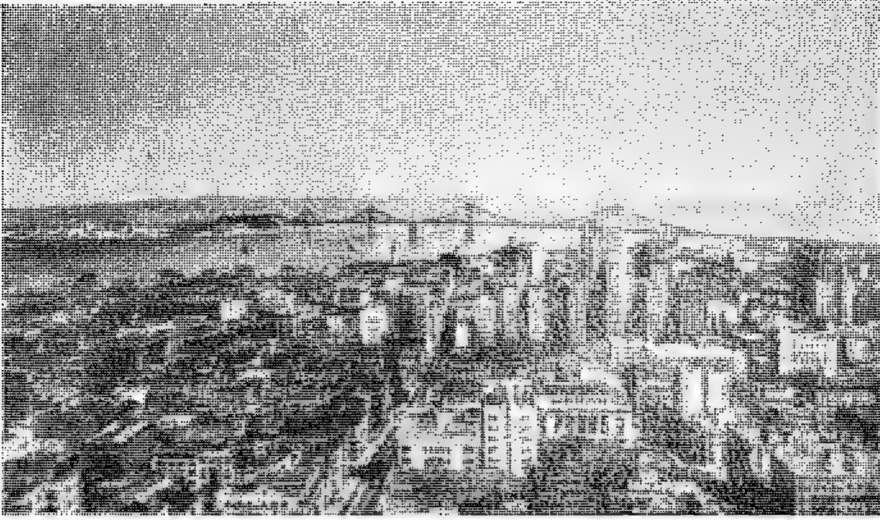
جانب المسسبي وهنا حبس كل مائه فى خزان يستمد من دفعه قوة الكهرباء اللازمة للمصنع . ووقفنا بأكبر مطحن للغلال فى العالم يشرف على النهر بمداخنه الهائلة ويخرج كل يوم ٩٠ الف برميل من الدقيق .

ومينا بلس تفاخر بأنها مدينة الدقيق Flour City وفى مخازنها وروافعها يطحن ٦٠٠ مليون بوشل فى كل عام .

وجو المدينتين صناعى بكثرة المداخن وغبرة الجو الذى كسا برماده المبانى بلون قاتم . والصناعة التالية للغلال هناك بذر الكتان (Linseed) . أما مبانى المدينتين فعظيمة شأن سائر البلاد الأمريكية التى تميل الى نظام (البلوك) والنواطح وأعلاها ناطحة (Foshay) تعلو ٣٢ دورا وكأنها البرج ودورها الأرضى ذو مساحة عظيمة وحدائق منسقة، والناطحة تقوم وسطه كأنها مئذنة المسجد وهى رمز لواشنطون والمدينتان متشابهتان إلا أن سان بول يبدو عليها القدم فى ضيق شوارعها وقصر مبانيها واغبرار لونها ، وهى أصغر امتدادا فسكانها نحو ربع المليون. وفى حديقة من مينابوليس لوحة وضعت على خط ٤٥° شمالا وهو منتصف المسافة بين خط الاستواء والقطب الشمالى مما جعل البلد قلب نصف الكرة الشمالى .

وكثير من الناس هنا يبدو عليهم مظهر الغنى وحتى العامل فى ثيابه المغبرة يضع يده فى جيبه ويخرجها قابضة على مجموعة من أوراق الريالات يدفع منها ثمن ما اشترى فى غير اكتراث ، ونحو ٥٦ ٪ من السكان يملكون البيوت التى يقطنون فيها وجلهم يحرزون سيارات هى مطيتهم فى الانتقال ، ولقد أدهشنى حشد السيارات خارج مصنع فورد وهى كلها ملك للعمال الذين يشتغلون داخل المصنع ، فاذا ما فرغوا من العمل استقل كل منهم مطيته ، إلا أنى إلى جانب أولئك كنت أرى من الفقراء والمتسولين الكثير وبخاصة فى سانت پول ، والحى الفقير هناك قذر وأهله يبدو عليهم البؤس مجسما . وأمريكا بلد المتناقضات ترى الغنى المفرط الى جوار البائس المسكين .

قمت صباح الثلاثاء الى شيكاغو وركبت القطار السريع المفتخر الذى يسمونه (Fephyr) وهو عبارة عن عربة واحدة ممطوطة جدا فى شكل الحوت وفى طول خمس عربات كاملة وهو من خارجه من الألمنيوم الفضى البراق فى ثنيات طولية متعرجة ويجرى بسرعة ٧٠ ميلا فى الساعة بقوة الكهرباء وقد قطع المسافة بين البلدين فى ست ساعات ونصف . أما فرشه من داخله ففاخر الى درجة كبيرة وإذا حل ميعاد الطعام تقدم الخادم وثبت منضدة صغيرة أمام كل مقعد وقدم الطعام والشراب المطلوب ونحن خلال ذلك نسمع الراديو البديع الواضح . وبه أمكنة فخمة للغسيل والتوالت وصنابير الماء البارد والساخن . أما ماء الشرب فمثلوج نحتسيه فى أكواب من ورق فدهشت وقلت إلى أى حـــد سيبلغ الترف بهؤلاء القوم المنعمين الذين لا يدخرون وسعا فى توفير وسائل النعيم والراحة للجمهور كله . أما الطريق فقد بدأ سهولا كثيرة المناقع والمسايل المائية ولقد لبثنا زهاء ثلاث ساعات بجانب نهر المسسبى وقد ظهر هنا باتساع عظيم ضفافه برية مهملة كثيفة الشجر والعشب ، أما اختناقه عند سانت پول فذاك لأنه يدخل فى خانق حجرى يبدأ من شلال سنت أنتونى المجاور لمنيا پلس ولذلك لا يصلح للملاحة شمال



(شكل ٩٨) سان فرنسسكو بناطحاتها العديدة

ذاك الشلال . ثم أخذت منابت الذرة تبدو فى متسعات إلى الأفق وكانت أكداس الأسمدة البيضاء منثورة فى الحقول وإلى جوار ذلك بعض المراعى من البقر والخنازير وقليل من الغنم فى مزارع مسورة ثم بدت التلال الجيرية المتعددة، مما أكسب الأرض مظهرا غير مظهر البريرى إذ كثر شجرها وترك مهملا فى مساحات كبيرة، وزاد تموج الأرض بحيث لا يصح تسميتها سهولا وكانت مضخات الهواء تظهر عالية فى الحقول مما أذكرنى بسهول بامباس أمريكا الجنوبية إلا أن الأرض هنا كثيرة الشجر غير مملة المنظر كما هى حال البامباس . والبيوت مبعثرة وسط الحقول وجلها من الخشب الكثير هناك .

شيكاغو ولما أن قاربنا (شيكاغو) كثرت القرى المكتظة وزادت مداخن المصانع فى كل مكان .

أما عن قضبان سكة الحديد فذاك أمر هالنى الى أقصى حد فلقد كانت تفرش الأرض الى الأفق وتقوم المصانع وسطها والقضبان تجرى عليها بعضها فوق بعض وقد نرى ثلاثة قطارات الواحد تحت أخيه. ولما لم يبق على

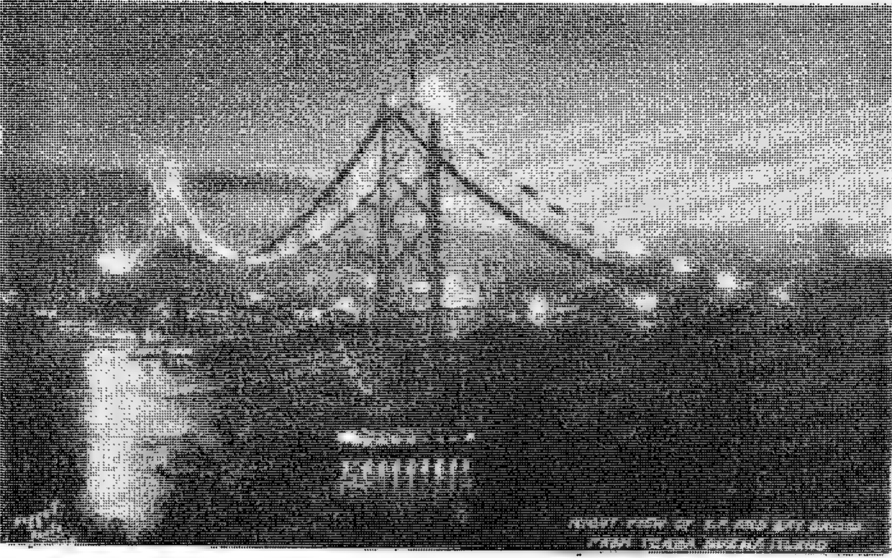
المدينة سوى ستة أميال أغبر الجو وساده الدخان الذى كسا المبانى لونا قاتما منفرا رغم ضخامتها . وأخيرا ظهرت وسط ذاك الظلام الصناعى ناطحات السحاب فى كثرة هائلة حتى خيل إلى أنها فاقت تلك التى فى نيويورك ثم أوغل القطار فى سلسلة من قناطر ملتوية حتى دخل سراديب لاحصر لها جلها تحت الأرض وهى محطة شكاغو الهائلة . ومن تلك الناطحات ما أعد فى كل دور (جراجات) للسيارات فاذا أردت الصعود الى بيتك رفعت بسيارتك مهما علا الدور الذى أنت فيه .

حللت فندق Midland Club Hotel الرائع الفخم وأجره نصف جنيه فى الليلة وشكاغو تعد من أغلى البلاد على الغريب ، وما كدت أنزل لأجوب بعض نواحى البلدة حتى قصف الرعد وأبرق الجو وسح المطر وابلا عاق حركة المرور لكنى رغم ذلك نزلت اخوض بعض تلك الأرجاء فكان أثر البلدة ونواطحها المرصوصة الشاهقة بالغا حتى انى نسيت إلى جوارها نيويورك وعظمتها .

أنظر الى البناء فأجـــده يعلو باسقا إلى السماء فى مرمر براق وقد زود بالأبواب النحاسية الثقيلة الرائعة . وثمن باب واحد فى ظنى يقيم بيتا من بيوتنا . والعجيب أنهم ينيرون تلك النواطح باسراف شديد ثم يسلطون عليها أشعة بيضاء تجعل منظرها للوافدين رائعا . وترى الطابق الأسفل لها عبارة عن شوارع نسقت بها المتاجر ومعروضاتها أيما تنسيق وفى أركانها الروافع تمرت وبعضها بلغ الأربعين .

والحق أن ذاك المشهد الهائل لأول ما يأخذ على الوافد لبه ويكاد يذهله فلا ينسى ما خلفه ذاك فى مخيلته من عظمة وفخامة لا يدانيها أى بلد فى العالم سوى نيويورك .

فمن تلك الناطحات التى راعتنى (Field) بها ٤٢ دورا والبرج يعلو فوق ذلك ١٩ دورا وهو أحدث الأبنية ولقد اعتليت قمته فكان مشهد المدينة



(شكل ٩٩) احدى قنطرتى سان فرنسسكو

رائعا . ثم بناء (Board of Trade) وأدواره ٤٤ ، والدور المخصوص للبورصة مزود بأحدث النظم العالمية ويعد أحسن من سائر نظائره فى الدنيا ويشرف عليه تمثال Ceres آلهة القمح . وأروع ما ترى تلك الناطحات فى (مشجان أفنيو) حيث تبدو فى صف مستقيم تمتد إلى الأفق وتناطح ذراها السحاب وتشرف كلها على البحيرة ، والشارع قد زود بالمتنزهات البديعة والأرض رصفت (بالمسلح) ورسمت الخطوط التى تحدد للسيارات سيرها ونظام السير يكفل أربع سيارات تسير متجاورة إلى اليمين وأخرى مثلها إلى اليسار وإذا أعطيت إشارة المرور تحركت سيارات جانب واحد فقط ثم يوقف هذا ويتحرك الآخر وذلك ليمكن المارة من اختراق الشارع على دفعتين ولولا ذلك لاستحال على الناس المرور لكثرة السيارات التى تسد الطريق سدا فى كل دقيقة . ولشد ما كانت دهشتى لما أن علمت أن أجر غسل البيت الواحد من تلك الناطحات ٦٠٠٠ ريال وهم يحرصون على غسلها ليزيلوا عنها

تلك الطبقات السوداء التى يخلفها فوقها دخان المصانع التى تغص بها شيكاغو ومن الأبنية الفاخرة لوكاندة (استيفنز) أكبر فنادق الدنيا إذ بها ٣٠٠٠ غرفة وفى كل غرفة حمام وتوابعه . ثم أثر الحرب الذى كلفهم ٣ مليون ريال وبولغ فى نقشه وتأثيثه إلى حد لم أر نظيره فى مكان آخر . ثم بناء متحف التاريخ الطبيعى وهو على نمط متحف ميونخ فى المانيـــا وإلى جواره دار الاستاديوم الذى يسع ١٥٠ ألف نفس وقد كلفهم ٥ مليون ريال . ثم معهد الفلك (Planetorium) الذى يحكى معهد برلين وتعطى المحاضرات الفلكية للجمهور كل يوم . ومن أفخر شوارعهم (مشجن افينو) على البحيرة وشارع ate الذى يشق قلب البلد ويوازى (مشجن) وهو مقر المتاجر الفاخرة ودور الملاهى ومستراض المحبين طوال الليل . وكثير من شوارع البلدة منمرة على نمط نيويورك ويقسمها شارع (مادلين) إلى East و West town . ويشق المدنية نهر صغير هو (نهر شكاغو) يصب فى البحيرة وقد أقيمت عليه عشرات القناطر الثقيلة وقامت على ضفافه الناطحات ، أما عن المتنزهات المنسقة الفسيحة فذاك قد فاق كل حد ، ففى شكاغو ١٦٩ متنزها ومن أفخرها (Lincoln) ومساحته ٦٠٠ فدان وفى قسم منه حديقة الحيوان وبهـا مجموعة غنية جدا وبخاصة السباع ثم حديقة النبات وتربية الزهور فى جانب آخر .

وعلى جانب من تلك المتنزهات تطل بيوت السكنى وجلها فاخر لايجاوز أربعة أدوار وبخاصة فى القسم من شاطىء البحيرة المسمى جولد كوست وسمى كذلك لأنه مأوى الأثرياء (المليونيرز) وهنـاك ناطحة يسمونها بيت المليونيرز بها ١٤ دوراً وفى كل دور منها مسكن (لمليونير) .

أما البحيرة نفسها فهائلة كأنها البحر الزاخر مرتفع الموج كثير التعرجات وقد أقيمت عليها حواجز الأمواج والمرافىء ونسقت الطرق والحدائق ، ولا عجب فهى رابعة بحيرات العالم العذبة ولا يزالون يزيدون مساحة الأرض



(شكل ١٠٠)أغلب شوارع سان فرنسسكو منحدرة هكذا

على حسابها ويمدون الطرق إلى جوارها حتى بلغت ٢٦ميلا وكنا نرى وسط الماء بعيدا منا أربع محطات لرفع الماء وسقى المدينة . وكثير من الشواطىء مدرجة رملية تقوم عليها المسابح التى يؤمها خلق كثير . ثم كانت جولتى فى الحى الزنجى وكثير من أبنيته فاخر ومنهم كثير من المليونيرز المثقفين ، وفى البلد ٢٣٤ الف زنجى اسود جلهم يقطنون بجهة واحدة (حى كولنز) وقد مررت بأكبر فنادقهم (Ritz) وهو أجمل فنادق الزنوج فى الدنيا وفى هذا

الحى كثير من الـــكنائس لأن السود متعصبون للدين جدا ويؤمون الكنائس دائما .

ثم كانت زورتى للجامعة وأبنيتها المرصوصة إلى مد البصر والمكتبة العامة ولها ٥٢ فرعا منثورة فى عرض المدينة وكذلك معرض الفن الجميل وبه قسم مصرى حوى بعض التماثيل والجثث والحلى والتوابيت الذهبية البديعة .. بلد هائل ما كنت أخاله بلغ هذا الحد الذى فاق سائر بلاد الدنيا اللهم إلا نيويورك فأنت تلمس آيات الثراء والغنى لمجرد النظر إلى مبانيهم وفنادقهم وبخاصة حول المنطقة التى يسمونها (The Loope) ويسمى كذلك لأن القطار المرتفع Elevator يطوقها وذاك القطار من الأعاجيب فهو يسير أزاء الدور الثانى أو الثالث من البيوت ويشق أمهات الطرق وهو مرفوع على شباك ثقيلة من الحديد تمر تحن والسيارات وترام الأرض من تحتها وليس له نظير فى العالم إلا فى نيويورك.إلى ذلك فقد زودت البلدة بمجموعة من خطوط حديدية تحت الأرض وكم كنت أقف مبهوتا عند مفارق بعض الطرق حينما كنت أرى ثلاثه مجاميع من قطارات يسيرالواحد فوق الآخر والسيارات تسد الطريق سدا ولا ينقطع سيلها ثانية واحدة والمارة على الأرصفة العريضة جماهير متلاصقة الأكتاف وليس ذلك بعجيب اذا علمت أن سكان شكاغو قاربوا الأربعةالملايين . أما الجلبة التى تسمعها أينما كنت فى صوت كالرعد فتنغص على المرء نومه إلا اذا اعتادها . وحياة الليل خصوصا حول (اللوب) تسترعى النظر وبخاصة كثرة الجماهير الذين يسيرون فى الطرق الليل كله وخصوصا السيدات ، حتى كان يخيل الى أن ليس للقوم بيوت يأوون اليها سوى المطاعم والمقاهى ودور السينما وأرصفة الشوارع وغرامهم بالسينما بالغ الحد فأجر الدخول زهاء ½ ريال ومع ذلك لاتكاد تشق لك مكانا وسط الجماهير الدافقة عليها رغم أن السينما متواصل نهارا وليلا وكلما انتهت الرواية بدأت من جديد . ولقد دخلت أكبر تلك



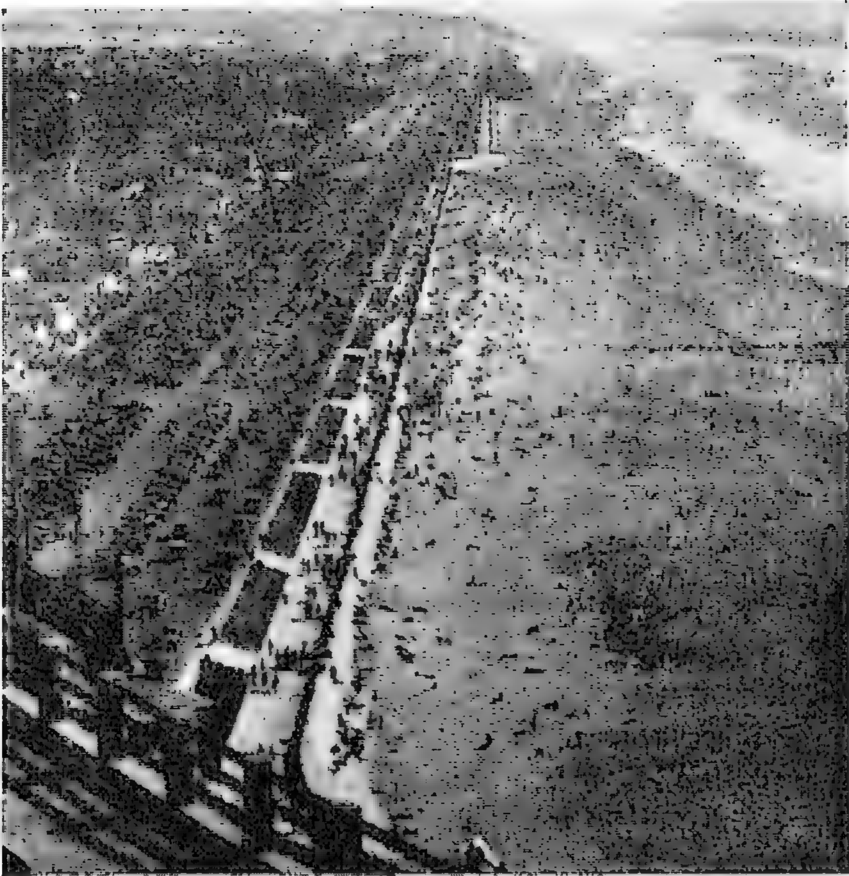
(شكل ١٠١) سان فرنسسكو وأضواؤها ليلا

الدور (Palace Theatre) وشريت التذكرة وزاحمت وسط الجماهير الغفيرة ولبثنا وقوفا فى ردهات الملهى نحو ساعة حتى جاء دورى فى الدخول، ذلك لأن الأماكن كلها مشغولة وكلما خرج فريق من المتفرجين استعيض بغيره من المنتظرين .

ولا أدرى من أين لهم تلك الأموال البالغة التى ينفقها الواحد منهم حتى العمال والأجيرات إذ ينفقون الريالات المتتابعة ، على أنى لما مررت بأحيائهم الفقيرة تألمت جدا لأن جل قاطنيها من الحفاة والمتسولين يأوون الى بيوت قذرة مهملة متهدمة وقلما يرى الغريب تلك الأحياء بل تأخذه عظمة القسم المستحدث الرائع من المدينة فيشغل به عن غيره والمدينة تفاخر بأنها أجمل المدن وأكثرها تقدما .

أما مستوى الثقافة فهو مرتفع جدا ويخيل إلى أن الفضل فيه راجع الى الصحافة أولا والى دور السينما ثانيا ، فالأولى تزود كل الطبقات ببدائع المصورات والمقالات والمعلومات التى تناسب عقليتهم والثانية تجتذبهم من سائر الطبقات وتنبئهم عن العالم الخارجى فتوسع بذلك مداركهم . ولا تكاد ترى طفلا أو رجلا أو امرأة يسير بدون مجموعة من المجلات والجرائد فالكل قراء لها بشكل يستلفت النظر . أقمت فى البلدة ثلاثة أيام ولم يسعفنى فى تفقد الكثير

من أحيائها سوى سيارة السياحة التى لبثت تجوب بنا خمس ساعات حتى استوعبنا جل مايهم السائحين أمره من المدينة ولما أن عدت عصرا ركبت الترام المرتفع الى منطقـــة عرض حيوان المراعى وشرائه ثم مصانع ذبحه واعداد اللحوم وهى التى كونت عظمة شيكاغو المالية ويسمونها Union Stock Yards وتقع فى جنوب البلد مابين شارعى ٣٩، ٤٣ وتشغل مساحة قدرها ٤٠٠ فدان فظل القطار طويلا يسير ومن دونه إلى الآفاق مربعات من حواجز خشبية ملأى بالحيوان (أبقار وخراف وخنازير) واليها تفد ألف سيارة كبيرة من أنحاء الولايات المتحدة كلها محملة بالحيوان الذى يعرض هناك فيفد تجار الجملة مع الخبراء ويشترون ما قيمته مليونان من الريالات أى أربعمائة ألف جنيه فى كل يوم . وفى وسط المنطقة تنتشر مصانع اللحوم الهـائلة وأكبرها (سوفت وشركاه وآرمر وشركاه) وهما يبيحان للنـــاس زيارة المصنع تحت أشراف دليل خبير يقودهم شارحا كل شيء . على أنى وصلت هناك بعد الميعاد إذ توقف الزيارة بعد الثالثة مساء . فاضطررت أن رجىء سفرى يوما وعدت فى الصباح ودخلت مصنع سوفت الهائل الذى يقع فى (الميل المربع المعروف بأنه أكثر بقاع العالم حركة تجارية) ومساحة المصنع وحده ٥٨ فدانا ويبتاع فى كل يوم من الحيوان بمليون وربع ريال . استقبلنا الدليل وأقعدنا فى غرفة الانتظار وقدم لكل منا كتيبا مصورا عن المصنع وعرض علينا مجموعة من كرتات مصورة عن المصنع أعدت لكتابة البريد على المكاتب المرصوصة هناك . ولما تجمهر عدد كبير من الزائرين تقدمنا الدليل وسار بنا الى قسم (الخنازير) والمصنع أكبر جهات العالم إنتاجا للحوم الخنازير (Ham & Bacon) فبدأ بقسم الذبح وهنا رأينا منظراً مفزعا : عجلات حديدية كالتروس الهائلة تتدلى من جوانبها سلاسل غليظة . وتلك العجلات تدور فيساق قطيع من الحلاليف السمان فى سرداب وبمجرد ملامسة الحيوان للسلسلة تقبض على يده وترفعه



(شكل ١٠٢) شاطىء الاستحمام فى سان فرنسسكو

معلقا وهو يصيح صياحا منكرا وتدفع به إلى سلسلة متحركة تقوده إلى قصاب بيده آلة مدببة يغمدها فى مكان من حلق الحيوان فينفجر الدم ويسير الى مجارى تحت الارض ليتجمع وتصنع منه الأسمدة وبعض أغذية الطيور والعلف . تصور مئات من العجلات والصفوف والقصابين يقتلون جماهير الحيوان فى ذاك المشهد البشع ووسط صياح وعويل من الخنازير يصم الآذان ويلقى الرعب فى القلوب . وأخالك تدهش دهشتى إذا علمت أن عدد ما يقتل من الحلاليف فى الساعة الواحدة ٧٥٠ فأذا كانت ساعات الأسبوع

٤٢ — ٤٥ فتصور العدد الهائل الذى يقتل فى العام فى أحد مصانع شيكاغو (فوق مليون وستمائة ألف) ولما أن صفى دم الحيوان جرته السلسلة إلى المحارق فيمر على لهيب يأكل الشعر وما تخلف ينظفه العمال وهو يمر تباعاً الواحد بعد الآخر . وهنا يمر كل حيوان على مفتش الصحة الذى يختبر غدد الحلق والرأس والكبد والطحال وإذا بدا فيها عيب أتلف لحم الحيوان على الفور . ثم تمر الجثث على رجال يرشونها بالماء فآخرون يسوقونها إلى المخرطة (مثل الجيلوتين تماما) فتقطع الجثة انصافا أو أرباعا وقسم منها يمر على فتيات يحزمن القطع دون أن يمسسن اللحم بأيديهن ثم تترك هذه فى الغرف المثلجة ويخرجن زهاء مائتى حزمة فى الدقيقة ، وبعضها يوضع فى الغرفة المثلجة بين ٢٤ ، ٤٨ ساعة . وبعض القطع تمر على رجال بأيديهم مشارط ومفارم يشذبون بها زوائد اللحم ويستبعدون الشحم الذى كانت شظاياه تتطاير أمامنا هنا وهناك ثم تمر القطع بين اسطوانات فتصبح رقائق مسطحة . ثم تساق القطع إلى أفران التبخير والتدخين وهنا تبقى بين ٢٤ ، ٣٦ ساعة فوق نار من خشب شديد الصلابة ثم تسير إلى قسم الصناديق والشحن وهناك زهاء ٦٠٠٠ عربة من عربات سكة الحديد ذات المثالج يشحن فيها اللحم لأنها لابد أن تبقى فى درجة التجمد دائما . خلفنا الخنازير بصياحها وعفوناتها ودهنها منفر الرائحة وسرنا إلى قسم الغنم حيث يقتل بالطريقة عينها ٨٠٠ رأس فى الساعة أى ١٣ مليونا فى السنة ثم تمر على الرجال الذين يسلخونها فى عجلة مدهشة وجلهم من الزنوج ثم إلى التقطيع فالضغط فالتثليج والحزم وكل ذلك فى أقل من ٢٦ دقيقة . ثم سرنا إلى قسم الماشية والبقر (beef) وشاهدنا عملية الذبح وهى هناك نوعان الأول بضرب الحيوان بمطرقة حادة فى مخه فيموت لساعته ثم يغمد فى زوره خنجر حاد فيصفى الدم والثانية بالذبح بجرة واحدة من سكين حاد وذلك تحت اشراف رجال من اليهود لكيلا يحرموا أكل ذاك الحيوان . وبعد مشاهدة العملية يختم اللحم وإلا



(شكل ١٠٣) حقول الفاكهة تمتد الى الآفاق فى كاليفورنيا

امتنع اليهود عن شرائه ثم تمر على الغسيل ثم شق الصدر واخرج الاحشاء العليا ثم شق البطن لاخراج الاحشاء السفلى وفى ٢٥ دقيقة يعد الحيوان للتصدير ، وعدد ما يذبح من البقر ١٨٠ فى الساعة (أى نحو ٤٠٠ ألف فى العام) ، وصالة التثليج التى تبقى درجتها ٣٤° ف دائماً تسع ٣٠٠٠ نصف من البقر المشقوق بطوله ولقد شعرنا برعدة البرد وقسوة التجمد ونحن نمشى داخل تلك الغرفة ويزن الحيوان المتوسط ألف رطل وإذا أعد نزل الصافى منه إلى ٥٥٠ . ومما بقى تستخرج مواد أخرى تزن ١٥٠ رطلا وللصناعة فروع أهمها : الاسمدة وأغذية الكلاب والقطط والبصطرمة والصابون والمرجرين وهو خليط من دهن الحيوان والزيوت النباتية . أخيرا بعد ثلاث ساعات كاملة خرجنا إلى غرفة قدمت لنا فيها بعض الحلوى وودعنا رجال (Swift) وصرحوا بأن المصنع يرحب بأية زيارة أخرى مهما بلغ عدد الزيارات والزائرين . وعدد من يشتغلون من العمال هناك ٥٥ ألفا . ذلك مجهود مصنع

واحد من مئات المصانع المرصوصة فى تلك الجهة . هنا فهمنا حقا مبلغ أهمية تلك الصناعة وفروعها لشيكاغو وأهلها فهى التى جعلت شكاغو فى مقدمة بلاد العالم غنى ومالا . عدنا إلى (الالفيتر) نشىع من رائحة اللحوم وبخاصة شحم الخنازير التى ظلت رائحته فى أنفى تنغصنى اليوم كله وزاد الطين بلة رائحة الزرائب المجاورة (Stock Yards) على أنا لبثنا نتحدث عن تلك العظمة الصناعية وذاك المجهود المالى الجبار الذى يقوم به أولئك القوم فيدر عليهم مالا وفيرا .

قمت أودع شيكاغو (ومعناها بالهندية الرائحة القوية لأنها كانت تختص فى زراعة البصل قديماً واليوم تشع لحماً وشحماً) ولبثت سائراً صوب (نياجرا) مسافة عشر ساعات بالقطار وكان أولها سهولا مبسوطة كثيرة المرعى والذرة منثورة بالشجر وكنا نجانب حافة بحيرة متشجن وعند ما بلغنا حدود كندا طاف بنا رجال الجمارك والمهاجرة ثم أوغلنا فى أرض كندا دون أن نلاحظ تغيراً فى المناظر ، وعند ما تقدمنا بعيداً فى شبه جزيرة البحيرات تموج سطح الأرض وكثرت غاباته ومسائل مائه البديعة وزاد حيوان المرعى وبخاصة البقر فى الحقول ثم فوجئنا عند بلدة (هملتون) بمزارع هائلة من الكروم والفاكهة وبخاصة التفاح وكانت تسد الأرض كلها الى الأفق وكانت المحاط الصغيرة هنـــاك تشحن صناديق لا عد لها من التفاح والصبية يسيرون وبأيديهم تلك الفاكهة يسرفون فى أكلها واللعب بها ولقد غيرت القطار الى نياجرا التى وصلتها عصراً .

نياجرا ثم شاءت المقادير أن أزور نياجرا واستمتع بمشهدها الرائع للمرة الثانية كى أشفى فى النفس غلة وأطفىء ظمأ لما يمكنى سحاب نياجرا ومطرها العام الفائت من تحقيقه . دخلتها والسماء تقطر وابلا والسحاب أدكن قاتم منفر فكانت منى خيبة أمل وكدت أواصل سيرى إلى تورنتو لكن القلب حدثنى ألا أيأس من رحمة الله فلعل الله يفعل بعد ذلك أمراً

فتقلع السماء ويصفو الجو . نزلت فندق (Fox Head Inn) الجميل (بريالين) وهو يطل على الشلال بمشهده الذى يأخذ بمجامع القلوب .

ألقيت بحقائبى ونزلت أشق طريقى وسط سيل المطر وقر البرد وعصف الريح . بدا الشلال بروعته يشرف على خانق نياجرا الفاتر بشرفاته الرأسية الشاهقة ويهوى ١٦٠ قدما فى زبد أبيض ناصع وإذا ما وصل ماؤه الهوة أسفله أرغى وفار وصعد برذاذ يصل إلى عنان السماء ويدرك المرء أينما سار على مرأى منه وهو يرى وكأنه بخار ناصع أو دخان أبيض . وينقسم ذاك الشلال الرائع شطرين بجزيرة (Goat) بغاباتها المستملحة فتترك الجانب الأيمن قوساً كبيراً يحكى حدوة الفرس ومن ثم سمى (Horse Shoe) وهو يناهز ثلثى الشلال كله ، والقسم الايسر وهو الأصغر داخل فى الحدود الأمريكية وتنزل مياهه فى جدائل تختلف سمكا ، ولا تلبث لفائف مائه الهاوى تتعقد ثم تتبعثر إذا ما صادمتها ركام الصخور السفلى ثم تذوب ماء يتفجر خلال الصخر ويندفع إلى قرار الخانق وهو يلتوى فى دوامات مخيفة وأروع ما ترى تلك الدوامات من فوق القنطرة الحديدية المعلقة التى تعبر النهر أسفل الشلال وتصل ما بين الجانب الأمريكى أمامنا والكندى الذى كنا نحل أرضه . لذلك وقف على طرفى القنطرة رجال الجمارك والمهاجرة ليطلعوا على متاع العابرين وجوازاتهم .



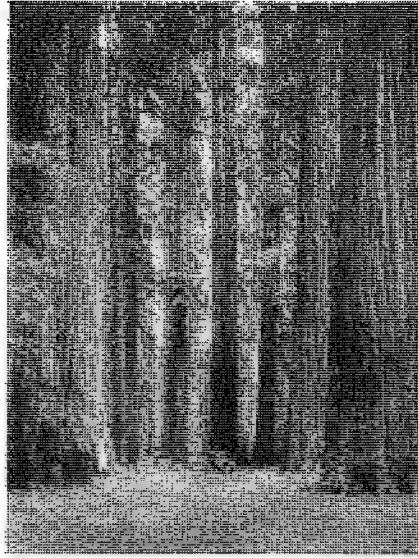
(شكل ١٠٤) البرتقال كبير الحجم وفير الثمر فى سان فرنسسكو

أعيانى السير وسط ذاك الجو المنفر فآويت الى النزل أتناول طعام

العشاء ثم عدت الى الشلال وكان رذاذ المطر قد خف أو كاد ينقطع . هنا أذهلنى جمال ما رأيت . أطلقت الأضواء القوية الملونة من مصابيح لاحصر لها فوقعت أشعتها على مياه الشلال وحافته فى ألوان مختلفة كانت تتغير بين دقيقة وأخرى فتكسب الشلال روعة سحرية لن يستطيع القلم تصويرها فليس إلا القلب وكامن الاحساس يدرك مبلغ أثرها فى النفس، وقد مدت الطرق المرصوفة تتلوى على طول الخانق فى مواجهة الشلال وبين فترة وأخرى تخرج شرفة ناتئة فوق الماء زودت بالمناظير التى تقرب الشلال وتزيد منظره روعة . أخذت أجوب تلك المناظر الساحرة ، ومما زاد المنظر روعة وسحراً بصيص القمر من بين أكداس السحب وقد أحاطت به هالة بيضاء بديعة . ثم جلس على ناصية من هاتيك متسول ضرير يعزف على قيثارته الاندلسية بيديه وفى فمه (موسيقى الفم الصغيرة) تتبع القيثارة فى أنغام جذابة .

بكرت فى الصباح وأنا أوجس خيفة الجو الاغبر المطير وإذا بالشمس ناصعة بين منثور السحاب والهواء بليل منعش فكان اغتباطى لايحد . وأخذت أعيد الكرة استجلى روائع الشلال وما أحاطه من جمال وزحام الزائرين من مختلف بقاع الدنيا كثيف هائل . ثم ركبت الباخرة الصغيرة التى كتب عليها (Maid of the Mist) ووصلت بنا هوة الشلال الامريكى واعتلينا بعض صخوره بقناطر صغيرة بعد أن كسونا أجسادنا ورءوسنا بمعاطف رقيقة لا يؤثر فيها بلل الماء ثم دخلنا مغارة وراء الماء فكانت كتلته الهاوية تنزل أمامنا وكأنها الستار الكثيف فى ارغاء شديد وهزيم كأنه صوت الرعد أو فرقعة المدافع الثقيلة . ثم نقلتنا الباخرة الى الشلال الكندى ولم نستطع أن ندنو من هوته لشدة تياره وغزارة مائه .

وبلدة (نياجرا فولز) صغيرة قامت على شئون السائحين فأسرفت فى الفنادق الفاخرة والمطاعم الكبيرة ونسقت من المتنزهات فى كل ناحية



(شكل ١٠٥) الاشجار الضخمة فى غابات كالفورنيا

ولا يكاد ينقطع عنها سيل السائحين ليلا ولا نهارا وهى لاشك خير مستراض للنفس التى أرهقها كد العمل أو أضناها مضض الوجد والهوى ، فهى أكبر عون للنفس أن تستعيد نشاطها الكامل فى أيام قليلة الى ذلك فهى ملتقى المحبين حتى آثرها كل حديثى عهد بالزواج أو كل أليفين على أهبة الاقتران ، لذلك أطلقوا عليها (أرض شهر العسل) .

تورنتو قمت أودع نياجرا بقطار الثانية بعد الظهر صوب تورنتو : ولبثنا نشق أرض الفاكهة المحدودة ثم عبرنا قناة (ولاند) التى زودت بالأهوسة لتصل الملاحة بين بحيرتى أيرى وانتاريو وتجتنب شلال نياجرا وبعد ثلاث ساعات دخلت المدينة واخترقت محطتها الرائعة وآويت إلى نزل Carls Rite (بريال ونصف) ثم نزلت أجوب بعض أرجائها فبدت مدينة عظيمة تمتاز باتساع طرقها وشدة نظافتها وحسن نظام المرور بها فعلى جميع النواصى تقوم الأضواء المثلثة اللون : الأخضر لتفتح الطرق والأصفر للاستعداد والأحمر لايقاف المرور يوقد ويطفأ من تلقاء نفسه فى جميع الشوارع فى فترات ثابتة

والناس يخضعون لتلك الاشارات ولا يتعدون القانون مطلقا على الرغم من عدم وجود رقيب من البوليس وحتى المارة ينتظرون وقوفا . ولو لم تكن حركة المرور مزدحمة — حتى تفتح الاشارة الخضراء وعندئذ فقط يعبرون الطريق ، ومن أجمل الطرق (Yong) مقر المتاجر الرئيسية وهو يقسم البلد شطرين شرقى وغربى . على أنى ألفيت الحركة هادئة فى سائر أنحاء البلدة وذلك لأنه يوم السبت حين يتأهب الجميع للراحة ، أما فى اليوم الثانى وهو الأحد فقد خيل إلى أن ليس بالمدينة أحد لأنى كنت أسير فى الطرق وحدى وهم شديدو التعصب لذاك اليوم فلا يبيحون العمل فيه مطلقا ويجب أن تغلق جميع المتاجر سوى الصيدليات والمطاعم ودهشت لما أن سرت ليلا اتفقد دور الملاهى فاذا بها مغلقة ذلك لأنه يوم الأحد ولا يباح فتحها إلا بعد منتصف الليل وعندئذ تموج بالناس وجلهم من المتذمرين الناقمين على تلك الشعوذة وذاك التعصب وقد راقنى ليلا موقف الكثير من المبشرين على رءوس الطرق يصيحون ويخبطون الناس حاثين على التمسك بالدين وعدم الانهماك وراء الماديات هكذا وقد ضحكت لما أن كان أحدهم يقول بأن المال ليس كل شىء فلا فائدة منه إذا لم يصحبه الايمان فى . . .

وقبل أن ينطق بالكلمة صاح الجميع متهكمين قائلين .Jesus Christ وظلوا يسخرون من الخطيب وهو يحاول اقناعهم عبثا وقد بدا لى أن جل الناس مندفعون وراء الالحاد والماديات رغم كثرة الكنائس التى بلغ عددها ٣٥٠ وجلها فى أبنية فاخرة . . أقلتنى سياره السياحة (بريال ونصف) وطافت بنا البلدة كلها ومتنزهاتها الهائلة التى بلغ عددها ٦٩ متنزها وأكبرها مساحة (هوارد) ذرعه ٢٥٥ فدانا والعجيب أنه هبة من أحد الخيرين ثم متنزه High كأنه الغابة المغلقة وبه مجموعة من الحيوان خصوصا التياتل والياك وجاموس أمريكا وكان السنجاب يجرى حولنا ويفد ليأكل من أيدينا فى جسمه الصغير وذنبه المنتفخ الكبير ، والبلدية هناك مصلحة إلى درجة



(شكل ١٠٦) قد يتسع تجويف الشجرة لمرور عربة كاملة فى غابات كالفورنيا

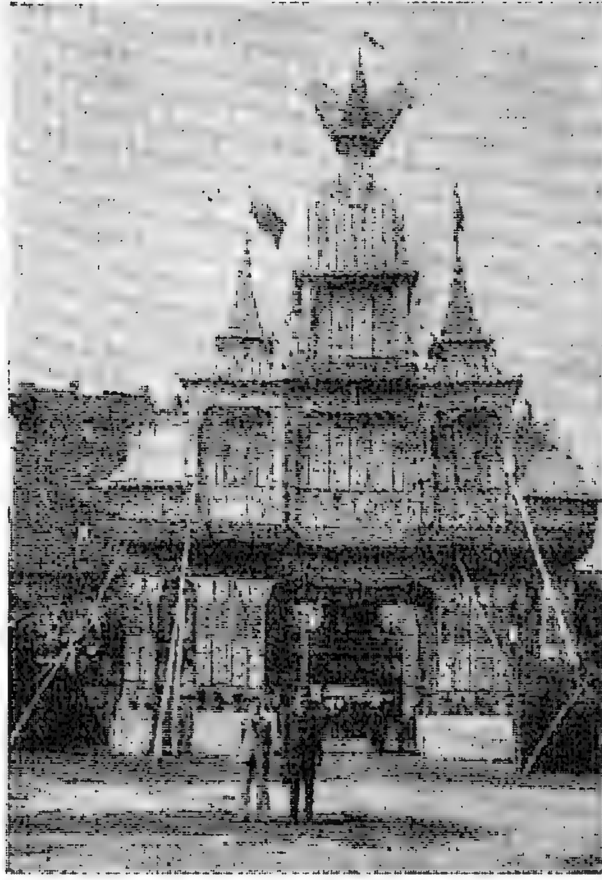
عظيمة ترعى مصلحة الناس وتكاد تدير كل شيء . ففى المتنزهات تقيم لهم المقاعد والمناضد وتبيح لمن شاء أن يعسكر ليلة الاحد وفى الاعياد ، وقد قسمت المتنزهات الى قطع منمرة يتسلم كل فريق ترخيصا بمعسكره فى نمرة معينة لكيلا يتشاحن القوم فيما بينهم ، ووسائل النقل تديرها هى وتربطها بعضها ببعض (الترام والاتوبيس) ولك أن تركب من أول البلد إلى آخره بتذكرة واحدة وتغير ماشئت من خطوط . كذلك الاضاءة الكهربائية فالطرق تضاء باسراف شديد وفى الشوارع الرئيسية ترى المصابيح متقاربة وفوق كل عمود ستة مصابيح فى دائرة جميلة وتكاليف الاضاءة فى المنازل لاتجاوز ريالا فى الشهر وكل تلك القوى مستمدة من شلال نياجرا . ولقد اخترقنا حى السكن الارستقراطى واسمه Rose Dale واذا به مجموعة ثلاث بديعة كل بيت يغاير الآخر فى هندسته ويحاط بالشجر المزهر الطبيعى وكلما جد بيت زرعت البلدية أمامه شجرة الاسفندان (Maple) وهى شعار كندا

كلها وفى هذا الحى متلوية طرق لا تكاد تستقيم بضعة أمتار وذلك لتمنع الاسراع فى سوق السيارات وبذلك تخف الضوضاء ولا يباح فتح المتاجر ولا المطاعم هناك مطلقا لذلك كان المكان ساكنا سكونا عميقا لا تسمع به حركة مطلقا ويحاط الحى بخندق طبيعى يسمونه (Ravine) وحتى أسلاك النور مدت تحت الأرض فلا ترى لها أثرا . ثم كان مرورنا بالجامعة وأقسامها فهى تكاد تشغل قسما كاملا من المدينة أحيط بأبدع المتنزهات وبها ٢٨ بناء كل يمثل كلية (Faculty) وهى أكبر جامعات كندا بها نحو ٨٠٠٠ طالب وعمرها ١١٢ عاما وقد تخرج فيها مكتشف الانسولين علاج السكر ولا يزال أستاذا هناك.

والتعليم هناك اجبارى ومجانى بين سن السادسة والسادسة عشرة، وبالمدينة ١٠٤ مدرسة ابتدائية (Public) والمكتبة العامة كبيرة جداً ولها ١٧ فرعاً تنتشر فى أرجاء البلدة ، وفى عطلة الصيف يقيمون مدارس مكشوفة وسط المتنزهات لتثقيف الصغار وتنشيط قواهم الجسمية حتى أن وزن الطفل يزيد فى المتوسط عقب كل أجازة سبعة ارطال .

ثم مررنا بحى مساكن العمال فدهشنا من نظافته وجل البيوت ملك لهم وكنا نرى لكل بيتين واجهة مشتركة وذلك ليتخلصوا من الضريبة التى تدفع بحسب امتداد واجهة البيت على الطرق العامة ، وعجبت لما علمت أن ٦٤٪ من سكان البلدة يمتلكون منازلهم رغم عدد السكان الذى فاق ٨٠٠ ألف نفس لذلك أطلق على المدينة (City of Homes) وبالمدينة حى للصينيين وهم زهاء ٦٠٠٠ نفس وآخر لليهود وعددهم ٥٠ ألفا ويبدو على البلد وأهله طابع انجليزى فهم أهدأ طباعا وأكثر تمسكا بالتقاليد من سائر الأمريكيين لذلك عدت العاصمة الانجليزية لكندا .

ومما يسترعى النظر هناك كثرة الفروع التى للمصارف فى كل شارع على أن عدد المصارف الرئيسية قليل محدود وكلها تحت اشراف الدوله . لذلك أمن الناس شر افلاس بعضها كما هى الحال فى أمريكا التى تتعدد مصارفها إلى



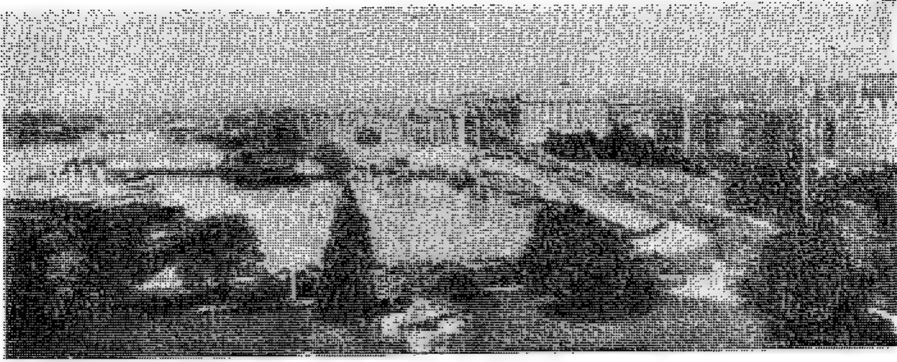
(شكل ١٠٧) مدخل المدينة الصينية فى ڤكتوريا بكندا

حد خطير ، وقد صادفت زيارتى لترنتو ميعاد انعقاد (المعرض العام) وهو يعقد مرة فى كل سنة من ٢٨ أغسطس إلى ٢٠ سبتمبر ، ويقوم على مساحة ٣٥٠ فدان ولقد صرفت فيه شطراً من مساء السبت وكانت معروضاته عظيمة ومتعددة وبخاصة قسم المسليات والملاهى على أنه فى جملته لا يفوق معرضنا السابق كثيراً وان قالوا عنه بأنه أكبر معارض الدنيا ، وجزء منه يطل على بحيرة أنتاريو ذات المياه الهادئة والشواطىء التى تكاد تكسوها الغابات ، وعليها تقوم ميناء تورنتو وهم جادون فى توسيعها وعندئذ تصبح

أكبر الثغور التى تبعد مسافة عن المحيط — أما اليوم فمنتريال هى التى تحقق ذلك . ولقد قدر الهنود الحمر قيمة مياه البحيرة منذ زمان بعيد لذلك أسموها (انتاريو أى المياه البديعة) ولقد ختمت زيارتى بالمتحف عظيم البناء كثير المعروضات وبخاصة المخلفات الهندية الأمريكية ، ثم حديقة الحيوان التى حوت مجموعة لا بأس بها من حيوان أمريكا وأستراليا .

أتاوة : قمنا صباح الاثنين صوب أتاوة العاصمة السياسية لكندا وكان القطار بجانب بحيرة أنتاريو بمياهها الملساء وشواطئها التى تكسوها الغابات الجميلة وكانت الأراضى سهولا للفاكهة والغلال التى كانوا يحصدونها عند ذاك بآلات تجرها الخيول وكنا كلما اقتربنا من أتاوة زادت كثافة الغابات وبخاصة شجر (البتولا والصنوبر) وقد عرى القوم مساحات أطلقوا فيها مراعيهم (من البقر والخيول والأغنام) ودجاجهم وكانت القرى صغيرة بيوتها أكواخ من خشب تقوم وسط الغابات ولا تكاد تستبين خلال الأشجار إلا كلما بدا شارع مرصوف شق وسط الغابات ، ولبثنا سبع ساعات فى مناظر بديعة من تلك الغابات تجرى خلالها النهيرات السريعة تقوم فيها الأخشاب مسافات بعيدة حين تلتقى عند مصنع للورق أو منشر للخشب ثم أقبلنا على أتاوة : تلك العاصمة التاريخية التى يرتبط اسمها بنهر أتاوة التى تقوم عليه ولقد بدا ذاك النهر فسيحاً هائلا قبيل البلدة ثم ضاق عندما قاربناها ولقد كشفه شامبلين (Champlain) سنة ١٦١٣ وبهره جمال شلالاته يوم أن وقف ينظر اليها من الربوة التى تحلها العاصمة اليوم ، وقد أسماها شوديير لأنها تفور وكأنها قدر الشاى (شوديير أى غلاية) ثم ما لبث هذا النهر أن أصبح طريق تجارة الفراء مدة قرن ونصف .

وكان الهنود يرسلون على مياهه فراءهم إلى منتريال ، وفى سنة ١٨٠٠ تنبأ امريكى اسمه (فيلمان ريت Phileman Right) بمستقبل الجهة ونزل فى مكان القرية (هل Hull) المقابلة لأتاوة وبدأ صناعة الخشب فيها وتلك هى

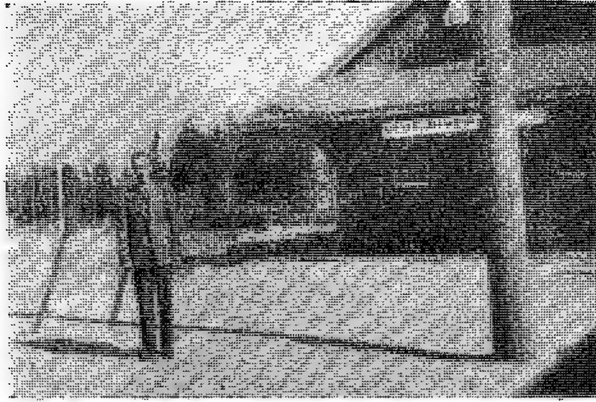


(شكل ١٠٨) ميناء ڤكتوريا تحف بها الأبنية الرئيسية

المورد الرئيسى اليوم لتلك البلاد ثم زادت شهرة أتاوة لما أن شقت قناة (ريدو Rideau) التى تصل المدينة ببحيرة انتاريو دون أن تمس حدود أمريكا وقد بنيت لأغراض حربية يوم كانت العلاقات بين انجلترا وأمريكا متوترة ، وقد بدأها الكولونيل (John By) وقد رأينا حجرين فوق Hill Park يعينان مكان مقر ذاك المهندس القدير وراء قصر لوريى ولقد ظلت أتاوة تسمى مدينة باى By town إلى سنة ١٨٥٥ ولم تصبح أتاوة عاصمة كندا إلا منذ سنة ١٨٥٧ حين اختارتها الملكة فكتوريا حسما للنزاع والمنافسة الحادة بين منتريال وتورنتو إذ كل منهما كانت تصبو أن تكون عاصمة البلاد . وهى تقوم على ربوة تشرف على نهر أتاوة ومن ورائه مرتفعات لورنشيا الوطيئة وعندها يلتقى نهر جاتينو Gatineau وريدو Rideau بنهر أتاوة لذلك استطاعت أن تستغل قوة انحدار تلك المياه المختلفة وبخاصة شلالات شوديير التى رأيناها على بعد من ربوة البرلمان ، ولقد أقيمت اليوم على مسافة لا تجاوز أربعين ميلا من المدينة مجموعة هائلة من مصانع ومولدات للكهرباء فعلى مسافة عشرة أميال منها يمكن استغلال ١٢٥٠ ألف حصان كهربائى من منحدراتها وعلى مسافة ٤٥ ميلا يمكنها أن تخضع لسلطانها مليون حصان كهربائى أو يزيد .

حللت نزل King Edward بريال ونصف ولا بأس به وهو يواجه محطة Union Station ثم قصدت لساعتى ربوة البرلمان ذائعه الصيت وهى مجموعة من متنزهات بديعة تشرف على نهر أتاوة بقناطره البديعة التى لاتحصى وشعابه الكثيرة وجزائره الأنيقة وكانت تواجهنا فى الجانب الآخر ضاحية Hull الصناعية والتى يغلب على أهلها الفرنسية ، وعلى جانب النهر بدت مصانع الورق وكانت أكداس الخشب إلى عنان السماء والنهر يغص بكتل الخشب السابحة وكل كتلة عليها طابع صاحبها وعند مناطق القناطر يقف الناس ليفرزوا مالهم ويحزموه آلافا فى سابحات كبيرة تقطرها باخرة صغيرة الى المصنع ، والمنظر من تلك الربوة ساحر خصوصا ناحية منبع النهر حين بدا شلال شوديير الصغير الذى حبست مياهه واستغلت فى توليد الكهرباء ، وتزين تلك المتنزهات دار البرلمان التى أقيمت على نمط قوطى رائع لا أخالنى رأيت دارا أفخر منها وهى من داخلها مجموعة آيات فنية من النحت والتصوير وخرط الخشب وبخاصة فى المكتبة التى حوت نصف مليون مجلد وقسمت بحسب المديريات المختلفة . وبها غرفة تعد هيكلا مقدسا نقش على جدرانه بالذهب أسماء أبناء كندا الذين فقدوا حياتهم فى الحرب الكبرى ، وبرج الدار شاهق تعلوه ساعة تدق كل ساعة دورا موسيقيا يظل خمس دقائق وهو يرن رنينا جذابا عاليا يسمع من آخر البلدة وحوله مجموعة من دور الحكومة ويواجهه على الجانب الآخر لقناة ريدو قصر لورىي (Chateau Lawrier) فى هندسة القرون الوسطى الضخمة الشاهقة وهى أكبر فندق هناك وقد كان لورىي رئيس الوزارة وزعيم الأحرار مدة ١٥ سنة ويكاد يكون شارع ريدو الرئيسى فى المتاجر والاضواء .

وليست مبانى البلدة شاهقة كسائر البلاد الامريكية فقلما تزيد على الدور الثالث وكثير من المتاجر يكتب اسمه بالفرنسية وهنا لأول مرة كنت أسمع بعض القوم يتحدثون بها فى الشوارع وبخاصة فى بلدة (هل) وحتى فى الاذاعة



(شكل ١٠٩) يقف بنا القطار فى محطة وسط جبال الركى

يتكلم المذيع بالفرنسية و الانجليزية وقد بدا على سحن بعض الناس التغير وقلت نسبة الجمال هنا جدا عما كانت عليه فى البلاد الأخرى ، ثم طفت بالكثير من المتنزهات الفاخرة و بالمزرعة التجريبية التى تبلغ ٩٠٠ فدان أعدت لخدمة الفلاح و توزيع الزراعة فى البلاد ولقد كان الجو باردا كأنه شتاء مصر تماما والسحاب لم ينقطع من السماء و فى الشتاء يقسو البرد جدا وتجمد مياه نهر أتاوة الى عمق ياردة ويكثر الانزلاق عليه وقد شاهدنا بعض المزالق تعلو فى الجو ١٥٠ قدما .

منتريال قمت الى منتريال التى وصلتها فى ثلاث ساعات وكانت أجلى ظاهرة حولى كثرة من يتكلمون بالفرنسية فى القطار وفى شوارع المدينة وجل العنوانات وأسماء الشوارع كتبت بالفرنسية أولا وتحتها بالانجليزية و كذلك خدام الفنادق يبدأون الحديث بالفرنسية ذلك لان المدينة تعد ثالثة المدن الفرنسية فى العالم كبرا بعد باريس ومرسيليا فسكانها ١٫٢٠٠٫٠٠٠ أى فوق مجموع سكان القاهرة وثلاثة أرباعهم ٧٦٪ فرنسيون لا يزالون يحتفظون بتقاليدهم وعصبيتهم ومذهبهم الكاثوليكى لذلك كان حتما على كل فرد أن يتعلم اللغتين الفرنسية والانجليزية وكل شىء يكتب هناك من صورتين

ولكل من الطائفتين مدارسهم على أنى لاحظت أن المشادة والبغضاء بين الفريقين حادة خصوصا الطلبة فكل فريق يمقت الآخرمقتا، وحق لمنتريال أن تظل فرنسية لأن تاريخها يؤيد ذلك إذ كان جاك كارتي أول من رسا هنا على بعد ألف ميل من المحيط سنة ١٥٣٦ ورأى هنا قرية هندية اسمها (Hochelaga) تلك القرية التى لم يبق لهـا أثر يوم وصل شامبلين سنة ١٦١١ ثم أطلق شامبلين اسم مونت رويال على المكان اكبارا لملك فرنسا والمكان على ربوة علوها ٧٦٩ قدما ولم يمد أول شارع وتقم أول محلة للنزلاء إلا سنة ١٦٧٢ بعد كفاح عنيف بين البيض والهنود الحمر، وقد وزع الملك الأرض على الفرنسيين على نظام الأقطاع ولكى يشجعهم على استغلالها والبقاء فيها بعث بالسفن الملأى بالفتيات الجميلة من آنسات فرنسا ليكن قرينات للنزلاء حتى أطلق عليها (سفن العرائس) لكن النظام الاقطاعى فشل لأن الناس فضلوا صيد حيوان الفراء من الغابات والاتجار فيها وفى الأخشاب وظلت البلاد تحت لواء فرنسا حتى كانت معاهدة باريس التى انهت حروب السنين السبع سنة ١٧٦٣ حين حل العلم البريطانى محل الفرنسى.

والمدينة أكبر بلاد كندا وسابعة بلاد أمريكا الشمالية ويطلق عليها أحيانا باريس أمريكا لان الحياة فيها تحكى حياة باريس الى حد كبير وحتى دور الملاهى أضحت من المراقص الباريسية (كابريه) وغلب شرب النبيذ غيره من المشروبات وهى اليوم العاصمة التجارية والصناعية لكندا وتعد أكبر ثغور أمريكا بعد نيويورك وهى أول ثغور العالم تصديرا للقمح وتقع على جزيرة وسط النهر ذرعها ٣٠×١٠ ميلا وعنـدها يلاقى نهر أتاوة أباه سنت لورنس ثم ينشعب نهر أتاوة اثنين بينهما جزيرة Jesus وبين تلك الجزيرة ومنتريال يسمى الفرع (Rviere des prairies) وبين هذا والقارة يسمى نهر الألف جزيرة Riviére des milles isles ولقد خال كارتي يوم سار فى النهر أنه وجد الطريق الى الصين ومن ثم أطلق الاسم على شلالات



(شكل ١١٠) تعرف جبال الركى فى كندا بروعة مناظرها الطبيعية

(لاشين) القريبة من المدينة وأقام على ذروة (جبل رويال) صليبا من خشب استبدل اليوم بصليب هائل من الحديد تراه على بعد أميال من البلدة خصوصا أثناء الليل حين يوقد بالكهرباء فتتلألأ ثرياته مشرقة رائعة . مدينة هائلة تبدو من العواصم الكبرى وقسمها الحديث وجله انجليزى يحكى مدن أمريكا الكبرى فى حركته وأضوائه ومعروضات متاجره وبخاصة فى شارع سنت كاتارين . والقسم القديم فرنسى بحت ضيق الطرق واطىء المبانى إلا حول كنيسة نوتر دام أكبر كنائس البلدة حيث تقوم البيوت المالية والحركة التجارية وهناك شارع نوتر دام أطول شوارع المدينة يمتد ٣٧ ميلا والمساكن هناك قديمة قاتمة وأغرب شيء فيها أن السلم يقام خارجها فى الطريق ولكل دور سلم قد يلتوى فيصبح حلزونيا لذلك ترى واجهة المنازل على طول الشارع بمجموعة من سلالم معوجة فى شكل مضحك وذلك ليوفروا

مكان السلم ويقيموا غرفة لأن غالب البيوت مكتظة والعائلات الفرنسية هناك وفيرة العدد كثيرة النسل جدا — على عكس فرنسا نفسها — وفى بعض الاحياء الفقيرة ينام الأطفال بالدور على فراش واحد وكلما أمضى فريق فى الفراش ساعات نومه انصرف وحل محله الفريق الثانى وكل بيتين متلاصقان كأنهما بيت واحد وذلك لسهولة التدفئة شتاء، وبرد الشتاء هناك قارس جدا فالمتوسط ١٨°ف وقد تنزل الحرارة إلى ٦٤ تحت الصفر فتجمد المياه وتتخذ الانهار والبرك مزالق لالعاب الجليد وكنا نشاهد الأبراج تعلو علوا مخيفا لينزلق القوم عليها فى لعبهم شتاء وقد يتكاثف الثلج فيسد الطرق وعندئذ تمر كانسات الجليد فتزيحه على الجوانب ثم تحمله بعيدا لتسهل للناس المرور لذلك أغلقت ميناء منتريال من اكتوبر إلى فبراير وتحولت التجارة إلى هلفاكس . وقد مررنا بحى West Mount مقر السكن الارستقراطى فكانت فلاته آية فى التنسيق ويسكنها ٦٠ ألف نفس خليط من الانجليز والفرنسيين وقد بلغ من وجاهة بعضها أن أجرتها تزيد فى الشهر على ٧٠ جنيها وسكانها من الاثرياء الذين لم يتأثروا بالأزمة العالمية قط بل على النقيض من ذلك ربت أموالهم والضاحية شبه مستقلة تدير مصالحها العامة وحدها بمجلس منتخب منها ولا تزال تنفذ قانون تحريم الخمر بين جدرانها، ومن الاحياء المتوسطة (نوتر دام دى جراس) وسكانه من الانجليز لكن ملاك الأراضى من الفرنسيين، وقد ألفت نظرنا الدليل إلى بيت صغير قال بأنه البيت الوحيد الذى يشتمل على سبعة مطابخ (Seven kitchens) . ولما سألناه عن السبب ضحك وقال لأن صاحب البيت اسمه (المسترمطبخ Kichen) وزوجته المسز مطبخ وأربعة بنين هم مطابخ أيضا ثم مطبخ البيت، فأغرق القوم فى الضحك رغم برود تلك النكتة الانجليزية .

وإلى جوار المنطقه مساحة من الأرض المزروعة هى للدولة تبيح للعاطلين أن يحرزوا منها ما استطاعوا زرعه فى العام ليتعيشوا منه بدون

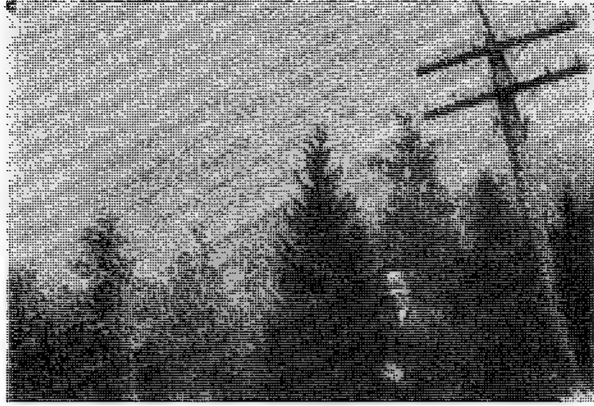


(شكل ١١١) بعض وعول جبال الركى عند جاسبر

مقابل حتى يجدوا لهم عملا . ومتنزهات المدينة لاحد لها فعددها ٧٢ ومن بينها بارك منتريال مساحته ٦٩٢ فدان وجله ترك غابات فى شكلها الطبيعى ، وفى أحدها زرعت ٥٠٠ شجرة من الاسفندان (maple) شعار كندا وعلق على كل واحدة اسم جندى ممن فقدوا حياتهم فى الحرب الكبرى وعلى واحدة منها علق ثلاثة اسماء من عائلة واحدة . أما عن كثرة الكنائس التى تلقاها أينما سرت وعظمة بنيانها والاسراف فى نقشها وزخرفها فذاك ما كاد يفوق روما نفسها ، وفى بعض الشوارع ترى الكنائس متلاصقة ولا يخلو الطريق من القسس أو صبيتهم الذين يلبسون معطفا أسود وحزاما أخضر تتدلى له ذؤابتان طويلتان فى شكل يسترعى النظر ونفوذهم فى تصريف الأمور عظيم جدا حتى كادت أن تصبح حكومة مديرية (كوبك) من رجال الدين وغالبهم من الكاثوليك ولذلك أطلق على البلدة (مدينة الكنائس) ففيها ٢٥٠ كنيسة أكثر من نصفها كاثوليكية ، والصحافة هناك فرنسية وأكبر جرائدهم La Pesse التى توزع فوق ٣٠٠ ألف فى اليوم الواحد ، والقضاء فى البلاد نوعان فرنسى يتبع (قانون نابليون) وانجليزى وكثيرا

ما يسبب ذلك ارتباكا بين المتخاصمين خصوصا إذا كان أحد الخصمين كاثوليكيا والآخر انجليزيا بروستانتيا . وأكبر كنائسهم نوتر دام على نمط كنيسة باريس تماما وهى تشرف على ميدان الحراب (Place d'armes) بنيت سنة ١٦٧٢ ثم جددت سنة ١٨٢٤ ويحتوى برجاها على عشرة أجراس أحدها يعد أكبر أجراس أمريكتين وبها مقاعد لعشرة آلاف مصل .

وعلى ربوة فى الجبل هيكل سان جوزيف أقامه قسيس اسمه André صغيرا ليتعبد فيه ثم ذاعت عنه الكرامات فبنى بشكل أكبر ثم أخذوا يمدون فيه ولا يزال البناء سائرا وسيكون من أفخر هياكل العالم وأكبرها . نسقت المتنزهات أسفله ثم بدأت السلالم إليه وعددها ٩٩ وكان الحجاج هناك كثيرين جداً يركعون على كل سلم منها ويقرأون وردا ومتى بلغوا القمة دخلوا الهيكل وقدموا قرابينهم وبوركوا فشفوا من أمراضهم وضمنوا الجنة . هكذا كانوا يقولون ! ولا يزال القس أندريه يتعهد الهيكل ويدر فى مدرسة أسفله مع أنه بلغ سن ٩١ سنة ، ويصله من الخطابات زهاء ٢٠٠ ألف سنويا ينتظرون الرد منه والتبريك حتى تتم سعادتهم ومن استطاع الحضور بنفسه حج إلى المكان من أقصى الارض ، وليس بالمدينة كثير من ناطحات السحاب فأعلى الأبنية ٢٥ دورا ولقد حرم القانون اليوم العلو أكثر من الدور الرابع . ولقد مررنا باحدى تلك الناطحات المتواضعة بالنسبة لأخواتها فى شكاغو ونيويورك لكنى دهشت لما علمت أن بها ستة أدوار تحت الأرض لأيواء سيارات الساكنين فى ذاك البناء وعدد سياراتهم ٦٥٠ . وجل التعليم هناك تحت اشراف القسس وقسم كبير منه دينى بحت وليس هناك قانون اجبارى للتعليم ومع ذلك فنحو ٩٩ ٪ من الأطفال يؤمون المدارس وبالمدينة جامعتان : ماك جل Mc J'll أسست سنة ١٨١١ وتشمل ثمانى كليات ، ثم جامعة منتريال أسسها قسس كوبك سنة ١٨٧٨ وهى فرع من جامعة Laval فى مدينة كوبك وبها ٣٥٠٠ طالب .



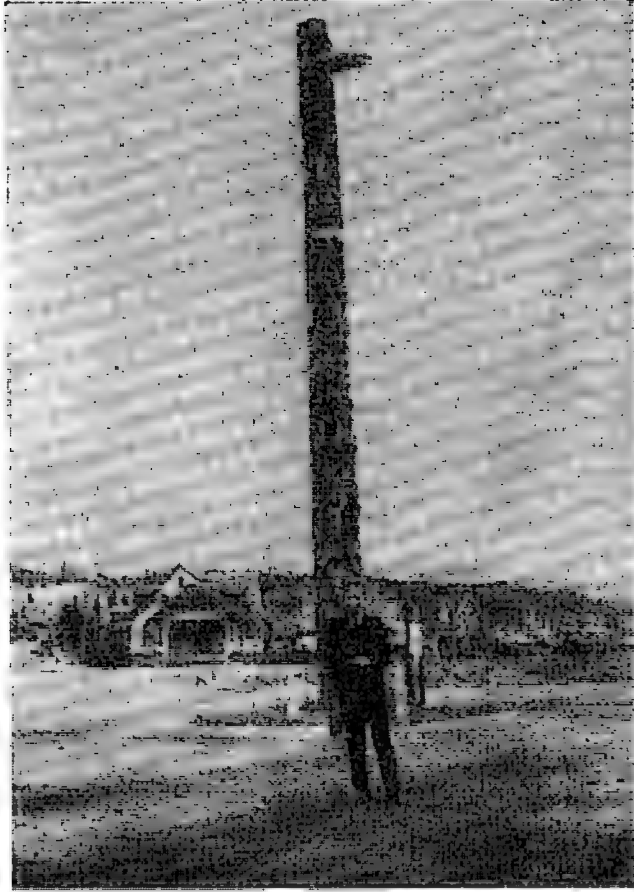
(شكل ١١٢) على ذرى الركى حيث كثر الثلج وانضمر الشجر

ومن أعجب ما زرت مستودع للدواء فاخر البنيان عظيم الزخرف حتى أن سقفه من الفضـة الصب فى وزن أطنان كثيرة ترى فى كل ناحية منه ومن أدواره العدة التلفون ومكبرات الصوت تلبى نداء أى انسان فى أقصى المدينة وتسعفه بالعلاج ، والرجال والسيدات الوقوف به من خبراء الأطباء وهو يعمل صباح مساء ولا تقفل أبوابه ساعة ويتولى العمال رقابتهم على ثلاث دفعات فى اليوم لـكل ثمان ساعات ، وأظرف ما به أنه يفتح أبوابه للزائرين جميعاً ويمدهم بالـكرتات المصورة ويبيح لكل انسان أن يكتب رسالة يرسلها المحل إلى أقصى الأرض على حسابه وقد كتبت أنا بطاقتين وسجلت اسمى بين كشوف الزائرين . ولن أنسى بهاء المنظر وأنا أقف على شرفة جبل (منتريال) أطل على النهر الفسيح الهائل وجزائره المنثورة وقد نثرت بعض المدافع التى غنموها فى حروبهم القديمة ومن أبدعها جزيرة سان هيلين التى سميت على اسم زوجة شامبلن وهى فى مجموعها متنزه واحد كبير ويصلها هى والجزائر الأخرى بالمدينة مجموعة من قناطر أنيقة . قمت إلى :

كوبك : فى سيارة الأمنبوس (٧ ريال ذهاب وإياب) الفاخرة التى تقل ثلاثين راكباً وقد بلغت من الوجاهة حداً فاق سكة الحديد فالمقاعد

بالقطيفة الوثيرة والشماعات البراقة من حولنا وعلى رءوسنا رفوف من الجلد البراق الثمين والمراوح تدور صيفاً والمدافىء شتاء وتلك تشق أرجاء أمريكا كلها بمواعيد ثابتة وأجرها أرخص من سكة الحديد بكثير فالسفر من سان فرنسسكو إلى نيويورك ، أو من شواطىء المحيط الهادى إلى الاطلنطى دون عشرة جنيهات وذلك أقل من نصف الأجر فى سكة الحديد وفوق ذلك فأنها تسلك طرقا أجمل بكثير ولا تحجب المناظر كثرة الأسلاك والمحطات وعربات الشحن التى تنغص علينا سفرنا فى سكة الحديد . قمت صباحا فوصلتها عصراً فى سبع ساعات وكان جل سيرنا أزاء مجرى سنت لورنس الذى كان اتساعه هائلا وماؤه هادئاً براقا رائقاً وبين آن وآخر كان يلاقيه فرع أو اثنين ثم تكثر الجزائر التى تتشعب المياه حولها وكانت تقوم المصانع الكبيرة طوال الطريق وبخاصة الأخشاب والورق ثم مطاحن الغلال ومخازنها وروافعها .

والطريق كله مدن وقرى بديعة أقيمت أبنيتها من الخشب فى تنسيق ونظافة تامة والاقليم عامر بالسكان وكلهم فرنسيون لا يكادون يتكلمون الانجليزية إلا إذا اضطروا إليها وعندئذ تكون لغتهم ركيكة ضعيفة وأكبر ما كان يلفت نظرنا كثرة الكنائس والقسس والصلبان التى كنا نراها قائمة حتى فى وسط الحقول فأينما نظرت ألفيت قسيساً أو صليباً ، والكنائس كبيرة وفاخرة إلى حد كبير حتى فى القرى الصغيرة مما دل على شديد عصبية القوم الدينية وكلهم من الكاثوليك المتمسكين بالدين تمسكا شديداً والاراضى كلها سهول فسيحة إلى الافاق يزرعها القوم من الخضر على اختلافها ثم الغلال وبخاصة القمح ثم الشوفان ثم قليل من الذرة وبعض البقاع ترك مهملا طبيعيا فكسته الغابات وعندها تكثر مناشير الخشب ومصانع الورق وفى تلك المصانع يسحق الخشب ثم ينقع فى السلفيد Sulphide ليستحيل عجينة منها يصنع الورق أو تصدر خامته لصناعة الورق فى البلاد الأخرى وقطع الخشب عمل رئيسى يدر على مديرية كوبك وحدها فوق أربعين مليون



(شكل ١١٣) عمود الهنود الحمر فى جاسبر وسط جبال الركى

ريال كل عام ويجتذب آلافا من الناس كل عام يهيمون فى المجاهل و يتوزعون فى معسكرات يضم الواحد خمسين رجلا يقطعون الخشب ثم يسوقونه الى المجارى المتجمدة وإذا ما ذاب جليدها عومت الكتل بطريقة مدهشة إذ يقف الواحد على كتلة سابحة وفى قدميه حذاء ذو نعل بارز المسامير ثم يحرك الكتلة برجليه فتدور وهو فوقها ثم تسبح فى سرعة خيالية وكان يستلفت نظرى أن السكان كانوا ينشرون ملابسهم المغسولة على جوانب الطرق بدون رقيب وكذلك يعرضون بعض أشغال أيديهم من (الطنافس) الصغيرة

ولا تتعرض هذه لسرقة أو عبث مما جعلنى أمتدح فيهم تلك الأمانة ، وأمام سور كل بيت صندوق مفتوح يوضع فيه البريد والجرائد الخاصة بكل بيت ولا يتعرض لها أحد من المارة مطلقا وحتى الأطفال الذين يلعبون ويمرحون طوال اليوم . وفى منتصف الطريق وقفنا ببلدة الأنهار الثلاثة Trois Rivieres وعندها تتلاقى أنهـار ثلاثة مع سنت لورنس فتجعل منظر المياه الممدودة فى كل ناحية رائعا والمكان صناعى وبخاصة للورق والخشب ، وكنا نرى مجارى الأنهـار مقسمة بشبه حدود من عوامات من كتل الخشب لتمنع اختلاط أخشاب كل مصنع مع غيرها .

دخلنا كوبك ونحن نسير فى طرق ضيقة تعلو وتهبط وتشرف عليها ربوة صخرية عاتية وحللت فندق (Old Homestead Hotel) المتواضع فى ميدان Place D'Armes وأمامه (شاتو فرتناك) على اسم أحد الحكام الفرنسيين الأوائل أفخر فنادق البلدة وهو ملك لشركة (كندا الباسفيكية) بنى على شكل حصون القرون الوسطى ومدت أمامه الأرصفة زودت بالمقاعد والمقاصير لتطل على النهر والمدينة السفلى من أعلى الربوة فى منظر ساحر . وكوبك بلدتان السفلى مقر دور الأعمال والحركة التجارية والعليا فوق صخرة كوبك التاريخية وجلها للسكنى وكم كان يروقنى السير وسط تلك الأزقة المتلوية التى تكاد بيوتها المتقابلة تتلاصق وهى قاتمة مظلمة وقد رصفت أرضها بالحجارة الصغيرة البارزة لكى تخفف من أثر شدة انحدار الطرق وكنا نعلو إلى الطرق التى فوق الربوة بدرجات قد تفوق المـائة ، والترام يسـير فوق منحدرات مخيفة جدا وفى بعض الأحيان يكون الصعود بالروافع Elevator . والمينـاء غاصة بالحركة التجارية وبالسفن الكبيرة التى تمخر المحيط بين أوروبا وكوبك والنهر هائل الاتساع شديد العمق ويخضع للمد الذى قد يعلو ١٦ قدما وعجيب أن الميـاه كلها عذبة وتظل كذلك أربعين ميلا جهة المصب وتجانب الميناء سكك الحديد وقد استلفت نظرنا مستودع الغلال لشركة (Can. National)



(شكل ١١٤) معبودات الهنود الحمر فى كندا

بروافعه التى تتسع لنحو ٤٥٠ مليون بوشل وكذلك مصانع الورق الكثيرة هناك ثم مصنع هائل للأحذية يعد من أكبرها فى الدنيا ومن خصائص البلدة العربات ذات العجلتين يجرها حصان تذكر المرء بالعصور الغابرة وقد أعدت شركة الترام عربات مدرجة مكشوفة ليستطيع الركاب أن يشاهدوا مناظر البلدة فى جلاء وفى زاوية من شارع ضيق فى المدينة السفلى زرنا بيت شامبلين مؤسس كوبك وهو صغير كأنه الكوخ الخشبى . وإلى جواره تدفن رفاته ثم صعدنا إلى سطح الربوة فأشرفنا على منظر المدينة السفلى والنهر الفسيح الهائل فى مشهد بديع وقد سورت الربوة وصفت على جوانبها المدافع القديمة فى سلسلة لانهائية وفى السهل الفسيح (سهل Abraham) كانت الموقعة الفاصلة بين قائد الجيش الأنجليزى (وولف Wolfe) وقائد الجيش الفرنسى مونتكام (Montcalm) وكان النصر حليف الانجليز لكن القائدين قتلا

فى الموقعة وسجلا لهما فخرا كبيرا ســـنة ١٧٥٩وقد أقيم لهما أثر تذكارى فى إحدى الحدائق هناك وبيت مونتكام الخشبي الصغير هناك وهو مدفون فى دير بالمدينة . والسهل اليوم ترك فسيحاً تكسوه الخضرة .

أما عن الكنائس الهائلة فذاك فى كثرة لاتوصف بحيث خيل إلى أن البلد كله مقر دينى للكاثوليك ومما زرنا معبد (Franciscan Sisters) وأعجب ما فيه أن الراهبات يتناوبن الركوع أمام الهيكل صباح مساء بحيث لاتخلو ساعة منهن طوال العام وقد رأينا خمس فتيات ركعا مطأطئات الرءوس يقرأن أورادهن ولا ينصرفن حتى توافيهن صويحباتهن . والبلد بدا فرنسيا خالصا فلم نسمع الأنجليزية هناك قط ويدير شئون البلاد مجلس المديرية المؤلف من خمسة عشر عضوا فرنسيا وثلاثة من الأنجليز وهم يحاولون الاحتفاظ بالصبغة الفرنسية فى كل شيء ويتعصبون لقوميتهم ولغتهم جدا . وحتى الصحافة كلها فرنسية وليس بالمدينة الاجريدة واحدة انجليزية (Chronicle Telegraph) على أن الأنجليز رغم قلتهم وضعف نفوذهم فهم أصحاب رءوس الأموال فى تلك البلاد . وكنت أعجب كيف استطاع الفرنسيون أن يحتفظوا بقوميتهم رغم مرور قرن ونصف وهم تحت الحكم الأنجليزى لكن الفرنسيين قد عرفوا بوطنيتهم الشديدة التى لايخفونها مهما أحاطهم من عوائق ولا يزالون يعدون شرق كندا (فرنسا الجديدة) كما اسماها شامبلين من قبل وفوق ٩٠ ٪ من سكان كويك البالغ عددهم ١٤٢ ألفا فرنسيون ، ولا عجب فكويك — ومعنى اسمها مدينة الصخرة (Rock City) — هى (فرنسا الجديدة) وقد ظلت أربعة قرون تحرس مدخل السنت لورانس بحصونها العاتية التى صرف عليها الأنجليز بعد فتحها ٣٥ مليون ريال وهى فى ظنى من أجمل بلاد العالم لا يتمالك الزائر لها أن يعشقها لجمال موقعها — وهل أروع من منظر النهر وجزائره وبخاصة جزيرة لورنس — عند مارأيته من أعلى الربوة ، أو أجمل من منظر صخرة كويك نفسها حين رأيتها من الزورق أزاء شاطىء الجزيرة إلى ذلك



(شكل ١١٥) ترى هذه الأشباح المقدسة أينما سرت فى الركى

فأن احتفاظها بأبنية القرون الوسطى وأزقتها المختلفة الملتوية زادها فى نظرى جمالا ، هذا الى الذكريات التاريخية التى تحوط كل ركن من أركانها ومما يلفت النظر فى المدينة كثرة ميادينها الضيقة التى تتوسطها تماثيل عظماء الرجال ومن أخصهم لاقال أول قسيس حلها وبدأ نواة جامعة لاڤال أكبر معاهد العلم فى كندا ، وكذلك تمثال شامبلين ويجاور شاتو فرتناك مشرفا على النهر .

الى نيويورك قمت أودع ذاك البلد الذى خيل إلى وأنا

أجوب نواحيه أنى فى قطعة من بلاد فرنسا المحتفظة بالقديم وعدت إلى منتريال التى غادرتها إلى نيويورك صباح الجمعة ٤ سبتمبر وقد اخترق بنا القطار النهر العظيم الذى بدا كالبحر لا تكاد ترى شواطئه وكان عبورنا إياه على قناطر تربطها عدة جزائر، ولم تمض نصف ساعة حتى مر بنا رجال المهاجرة والجمارك وفحصوا أوراقنا ومتاعنا فى رفق وبشاشة ثم بدأنا نسير إزاء نهر ريشليو ثم أقبلنا على بحيرة شامبلين التى ما كنت أخالها تمتد هذا القدر الهائل ولبثنا نخترق مجموعة هائلة من جزائرها بقناطر لا حصر لها وكانت المزارع تغص بالخضر وبعض الغلال وجل البلاد تحمل أسماء فرنسية والقوم فرنسيون ولما أن فرغنا من البحيرة وشعابها ظهر إلى يميننا نهر هدسن فى اتساع يفوق نيلنا ثم أخذت الأرض تتغضن وتعقدت رباها وكانت المزارع خليطا من الغابات وأرض الكلأ وكثيرا ما كان الصخر الجرانيتى القاسى يظهر عاريا ولقد أضحت المناظر من حولنا ساحرة بديعة .

وكانت البلاد والقرى كثيرة غاصة بالسكان والمصانع التى لم تغب عن أعيننا طوال الطريق ولا عجب فتلك بلاد (نيو انجلند) أقدم جهات أمريكا صناعة وأقدرها مهارة فى العمل وذكاء فى العامل ، ولذلك عرفت بانتاج المصنوعات الدقيقة وكان أجر العامل فيها أعلى مستوى منه فى سائر بلاد العالم . وعند ما وقفنا ببلدة (ترّوادة Troy) تشعبت الخطوط الحديدية فى كثرة هائلة ، ثم واصلنا سيرنا وبعد تمام عشر ساعات ومسافة ٤٦٠ ميلا دخلنا محطة (Grand Central) فى نيويورك . وقديما كان مجرى هدسن هذا طريقاً طبيعياً للانتقال اتخذه هنود أمريكا مسلكا لهم ثم زاد العلم اليوم فى قيمته فأضحى طريقاً مائياً من منتريال إلى نيويورك ومدت على طوله سكك الحديد فى خطوط لا حصر لها وكان له شأن فى تجارة الفراء فى أوائل عهد كشف أمريكا على أنه يجمد شتاء فتعمل كسارات الجليد على فتح جزئه الجنوبى بين Troy ونيويورك وحتى ثغر نيويورك يتعرض للتجمد لولا أ

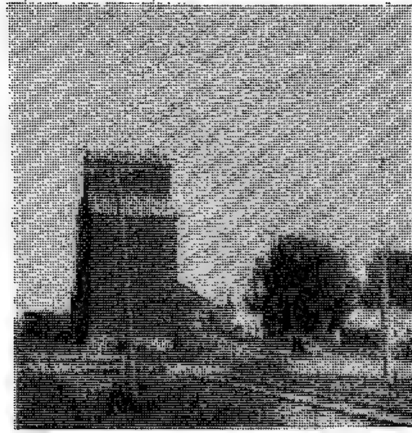


(شكل ١١٦) قطعان البيسون فى سهول البريرى

مقاومة الجليد بوساطة تلك الكسارات التى تعمل طول فصل الشتاء ولقد كان البرد شبيها بشتاء مصر فى منتريال وما جاورها لكنا عند ما أقبلنا على نيويورك دفىء الجو نوعا ولم يلزمنا بلبس معاطفنا التى حملناها من قبل .

خرجنا من المحطة العامرة وأنا ذاهل من فخامتها وفسيح امتدادها وتعدد أرصفتها وشعاب المواصلات المختلفة التى تخرج منها إلى أنحاء المدينة خصوصاً تحت الأرض وحللت نزل (Chelsea) فى شارع ٢٣ بقرب 7th Avenue مقر المتاجر الكبيرة والمبانى الشاهقة والثروة الطائلة ومنه إلى برودواى وشارع ٤٢ وما لهما من صيت فى الملاهى والأضواء ليلا فلقد خلفا فى مخيلتى أثراً قوياً منذ زيارتى الأولى حتى شككت فيما كتبت وخشيت أن تكون المبالغة قد لعبت بقلمى لكنى ألفيتنى لم أوف تلك الجهات حقها من الاكبار فلقد كان أثرها للمرة الثانية أروع منه فى الأولى وأبلغ وكم وقفت ذاهلا وأنا أرى تلك الناطحات تكسوها الأضواء المتلوية المتحركة ، وأولئك الجماهير الذين يسدون الطرق سداً ليلا ونهاراً ووسائل النقل التى لا تحصى عدا ، كل ذلك فى نظام تام ووجاهة لا تحد . ثم كان الصباح وكانت جولتى حول الناطحات الشهيرة مثل Empire و Chrysler وركفلر وما أحاطها من طرق وأبنية فكانت نظراتى لها اكبار لهؤلاء القوم ذوى العقول الجبارة والأموال

الطائلة وما وافى الظهر حتى ركبت قطار تحت الأرض (Subway) وهو يسير تحت الأرض فى الشوارع الرئيسية التى لا يجرى فوقها (الالفتير Elevator) وذلك ليجد الناس وسيلة يركبونها فى كل شارع . وكان مقصدى جزيرة كونى (Coney Island) فظل القطار يسير زهاء ساعة فى سرعة مخيفة ولقد انتقلنا منه إلى غيره ثلاث مرات كل ذلك بقرش واحد فبمجرد أن تلقى بالقرش فى الصندوق يدور بك الباب فتدخل محطة لك أن تركب أى قطار شئت Express أو Loca إلى up town أو إلى Down town ولو أحببت أن تظل يومك كله تركب هذا وتنتقل إلى ذاك فعلت مادمت داخل المحطات فأن خرجت وجب أن تدفع قرشاً آخر . بعد ساعة كاملة اخترقنا مجموعة من قناطر أدت بنا إلى الجزيرة فألفيتها بلدا عامرا مدت الحمامات الفاخرة على شواطئه الرملية وأقيمت فى وسطه مجموعة من دور الملاهى والمعارض والمقاصف والمطاعم بشكل ليس له نظير فى أية جهة من الدنيا وفى كثرة استغرقت من وقتى ثمان ساعات كاملات حتى مررت بها مرورا سريعاً فلقد حوت كل ما يخطر بالبال من صنوف الألعاب : البهلوانية والسحرية والميسر والأراجيح وعرض خوارق الطبيعة من حيوانات وانسان ، فهناك مجموعة هائلة من أنصاف الآدميين والذين ولدوا على نقص فى تكوينهم ومن أعجب ما رأيت جسم فتاة لها رأسان وجسم انسان أطرافه كعجل البحر وآخر كجلد التمساح ، ومجموعة من الأقزام الذين لا يزيد طولهم على نصف متر وثلاث من النساء جمعن بين صفات الذكر والأنثى فنصف الجسد الأيمن خشن قوى العضلات وفير الشعر ، والأيسر أملس رقيق ناعم وجمعن بين عضوى التذكير والتأنيث معا ، وسيدة بلغ بها السمن حدا مخيفا فمحيط بطنها متران ونصف ووزنها ٧١٥ رطل وطولها متر وكثير من تلك المعروضات تشرح شرحا علميا يرمى إلى فائدة الجمهور رغم مظهره الهزلى فلقد دخلت معرضا منها يعلن عن بعض أنواع التعذيب التى كانت متبعة قديما فى وصفها الحقيقى



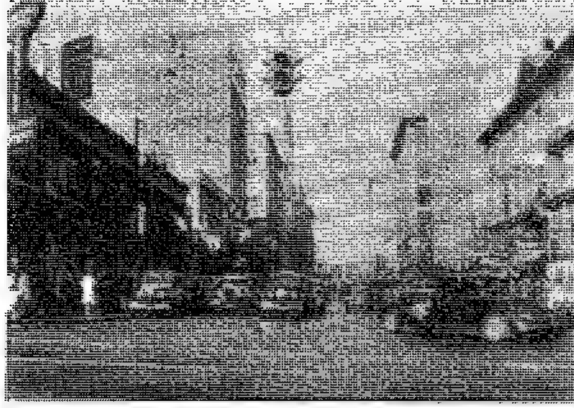
(شكل ١١٧) مستودعات الغلال فى سهول البريرى بكندا

بتماثيل تظهر الحقيقة جلية ، أذكر من بينها : التعذيب فى بلاد الصين ، يوضع الرجل فى قفص ينكمش شيئا فشيئا ويضغط على المسكين وهو يتألم ثم تطلق عليه مجموعة من فيران جائعة كبيرة تنهش لحمه حتى يموت ، و (الغاشق والعاشقة) إذا أحبت فتاة شابا رغم إرادة أبويها حكم عليها بوضعه فى (صندوق السماء) وأقفل عليه وفى غطاء الصندوق مسامير حادة وعليه مكبس لا تفتأ تديره فيضغط معشوقها حتى يموت بيديها على مرأى من أبيها . وفى اسكتلنده فى القرن ١٥ كانوا يضعون أقدام المذنب فى أحذية عالية من حديد وتصب فيها المنصهرات وفى انجلترا سنة ١٤٤٧ استخدم الوثاق (Rack) يشد عليه الرجل بواسطة اسطوانة (عصارة) كلما دارت شذت الرجل فاستطال حتى مات . ثم التحمير البطىء بأن يربط الرجل على حافة عجلة كبيرة تدور به ومن تحتها نار متقدة تكاد تلمس الجسم كلما مر بها وبذلك يشوى الرجل شيا بطيئا ، وفى المجر سنة ١٥١٨ عذبوا المجرم بربطه نائما ثم يأتى الجلاد بكتلة من حديد سخن إلى درجة الاحمرار و كوى قدميه كيا بطيئا . ثم الدفن حيا أواسط أفريقيا عدا الرأس ثم يلطخ الجسد بالعسل فينجذب النحل الكبير وينهش

الجثة حتى يموت الرجل . أو يوضع الرجل فى برميل وتبقى رأسه ظاهرة تعرض للشمس المحرقة حتى يموت .

وأخيراً عرضت المقصلة وهى تهوى على رأس (مارى انتوان) فى مخرطة ثقيلة حادة . ونحن خلال ذلك نسمع أنيناً واستغاثة وبكاء مؤلما مؤثراً لم أدر مصدره . ثم معرض آخر لعادات بعض الهنود الحمر وزنوج أفريقية من رقص وأزياء وهنا يبدو جمع من الزنوج الحقيقيين يعرضون علينا برنامجهم . ونحن خلال ذلك نرى أمام كل معرض رجلا أمسك بيده مكبر الصوت وأخذ يحاضر الناس ويغريهم على الدخول بعبارات شائقة جذابة تستهوى كل انسان . وما أقبل المساء حتى انتشرت ثريات الكهرباء فى إسراف شديدمن عقود متشابكة لا أول لها ولا آخر. مكان يسحر القلوب ويستهوى النفوس وزحام الناس عليه كثيف ورغم رخص أجور الدخول إلى تلك الأماكن — فهى زهاء قرشين لكل منها — ينفق الواحد ريالات متعاقبة دون أن يشعر إلا وقد خلا جيبه منها وكانت دهشتى كبيرة لما ينفقه القوم هناك حتى الذين تبدو عليهم علائم الفقر والأطفال الصغار ، وكفى أن يرى المرء ذاك البلد حتى يؤمن بأن أمريكا بلاد العجائب والمدهشات .

كان اليوم الأحد ٦ سبتمبر فآثرت أن أرود بعض المتنزهات لأرى ما هنالك. فقصدت Central Park فكانت جموع الناس كثيفة وفى ناحية منه أقيمت حديقة للحيوان هى أصغر بكثير من حديقة (Bronx Park) التى زرتها عامى الفائت لكنها ضمت بين أقفاصها مجموعة قيمة جداً من مختلف الحيوان فى حيز من الأرض صغير بحيث يمكن لكل فرد أن يطوف بها ويخرج بدرس فى الحيوان مفيد . ثم ركبت القطار المرتفع إلى طرف المدينة المسمى Battery وهو أقدمها وهناك مدت المتنزهات الفسيحة على حافة البحر وكان الناس يسدون المكان سداً لأن البواخر التى تربط مختلف الجزائر خصوصاً بروكلن تروح وتغدو من تلك الجهة ولقد أدى بى السير فى تلك الجهة إلى

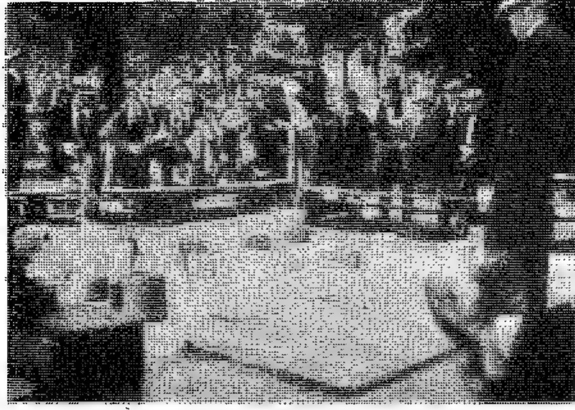


(شكل ١١٨) الشارع الرئيسى فى ونيبج

أحياء العمال ومساكن الفقراء المتقاربة المكتظة والجهة كلها تعوزها النظافة وأهلها بدا عليهم العوز الشديد وكثر بينهم المتسولون وأبناء الشوارع والسكارى المدمنون فى ثيابهم الخلقة وقد دهشت لما أن رأيت سيدة هناك تتمايل وتشاكس الناس وأخيرا أتى الخمر الذى أسرفت فى شربه على قواها فسقطت على الأرض فى حال يرثى لها .

وفى ناحية من تلك المنطقة حى اليهود وكانت اللغة العبرية تكتب بالخط العريض فى كل مكان وباعة الملابس القديمة على رءوس الشوارع وباعة (الشربات) يعرضونها فى براميل زجاجية وقد ألقوا بها قشر الليمون والبرتقال وكتبوا ثمن الكوب : سنتيما واحدا أى ملليمين ، ولقد بلغ من كثرة اليهود فى نيويورك أن أطلق عليها أحيانا اسم Jew York ومن أظهر شوارع المنطقة Essex و Bowery . وفى تلك المناطق يكثر اللصوص وقطاع الطرق (الذين يسمونهم gangsters) وكثيرا مايهاجمون المارة ويسلبونهم متاعهم ونقودهم ليلا وقد يصحب ذلك ضرب وقتل وحتى فى وسط نيويورك فى سنترال بارك Cen. Park يحدث بعض ذلك ولا عجب فان الامعان فى الغنى والاسراف فى إنفاق النقود الذى كنت ألاحظه على المتيسرين يوغر

صدور الفقراء وينحدر بهم إلى الاجرام هكذا ، ولقد جمعت نيويورك بين المتناقضات حقا فمن غنى مفرط إلى فقر مدقع . ومما ساعد على وقوع ذلك فى حى Battery أن الشوارع هناك غير مستقيمة لأن هذا الجزء قديم من جهة ولأن أرضه متلوية الشواطىء لذلك لم تنمر الشوارع كما هى حال باقى المدينة ، ولقد بنى أحد الأثرياء الذين كانوا من فقراء الحى وأضحى مليونيرا ناطحة هائلة سيؤجرها مساكن رخيصة لسكان الحى أصدقائه الأقدمين واسم الرجل Alfred Smith فكان ذلك منه وفاءا جديرا بالتقدير وهنالك تمتد القناطر بين مانهاتن هذه وجزيرة بروكلن ، ومن أشهرها قنطرة بركلن المعلقة ، وقنطرة مانهاتن وهذه شاهقة بحيث تمر من تحتها أكبر البواخر ، وفى الشوارع أسفلها يمر الترام وفوقه القطار المرتفع ، والقنطرة فوق كل أولئك وضخامتها هالتنى كثيرا فهى تشمل شارعا للمارة يليه طريق لقطارين Elevators متجاورين (الاكسبريس والعادى) يليه وسط القنطرة للسيارات الثقيلة والأمنبوس هذا إلى اليمين ومثله إلى اليسار وفوق الجانبين دور آخر للسيارات الخفيفة . وقفت وسط القنطرة وأنا دهش مذهول وكان منظر القناطر الأخرى وبخاصة بروكلن والماء من تحتها وواجهة جزيرة بروكلن بناطحاتها الساحقة رائعا بديعا . هنا عن لى سؤال فاجأت به شابا كان يقف إلى جوارى على القنطرة فنظر إلى وابتسم وقال : أنت ابن عرب قلت نعم مصرى قال وأنا (اسكندرانى) جئت هنا منذ ست سنوات ولا تزال عائلتى فى الاسكندرية على أن الكساد الحالى فى أمريكا قد أخلاه عن العمل هو وزهاء ستة من المصريين . قلت ولكن أتظلون عاطلين الوقت كله قال كلا فان الرئيس (روزفلت) الذى يحبه العمال حبا جما قد ابتكر نظاما يوظف به العاطلين ثلاثة أيام كل أسبوع حتى يجدوا عملا ثابتا . قلت وكم تؤجرون على ذلك ؟ قال ١٢ ريال فى الأسبوع أى ثمانين قرشا لليوم الواحد أعنى زهاء عشرة جنيهات فى الشهر ولا يكاد ذلك المبلغ يفى بحاجاتنا إذ المعيشة



(شكل ١١٩) يلعبون الضامة فى المتنزهات العامة

هنا غالية ومطالب الحياة متعددة . قلت وماذا كنت تشتغل قبل ذلك قال اشتغلت عاملا فى عمارة أختص بالرافعة (lift) وكنت أتقاضى ٢٥ ريالا فى الاسبوع أعنى عشرين جنيها فى الشهر . ومن لم يجد عملا من العاطلين يقيد اسمه فى كشف الـ Relief) ويتقاضى ريالا فى اليوم تدفعه له الدوله . ولقد تمسك أن أرافقه إلى المقهى وأشرب معه كأسا من القهوة فأكبرت فيه هذا الكرم الذى علمته إياه مصر بلاد الكرم وهو من عنصر أجنبي ولد فى الاسكندرية وتمصر .

ودعته ثم عرجت فى عودتى على المدينة الصينية (China Town) بشوارعها التى تزينها الكتابة الصينية فى بقع عريضة كتبت كلماتها تحت بعضها على شرائح تعلق إلى جوانب المتاجر على أنى ألفيتها بؤرة فساد إذ آوت جماهير المبتذلات والمومسات فعجلت بالخروج منها عائداً إلى قلب نيويورك النابض : Times Square الذى عنده تتلاقى الشوارع الثلاثة الشهيرة. برودوى و٤٢ والطريق السابع 7th Avenue وتتوسطه عمارة جريدة التيمز الأمريكية N. Y. Times فى ناطحة كاملة ، وقد شريت عدد يوم الأحد بقرش فألفيته ٧٦ صفحة فى أربعة أقسام : المصور والأخبار والهزل والرياضة وتظل

تعلن أهم أخبار اليوم بالضوء المتحرك فى حروف كبيرة جدا ليقرأها المارة جميعا . هنا بهرتنى أضواء تلك المنطقة واعلاناتها المدهشة التى تسد الجدران سدا ، ولقد راقنى من بين تلك الاعلانات التى لا حصر لها بحر مائج يغص بالسمك مختلف النوع فى ألوان بديعة متحركة وآخر من رجل يصب شرابا أحمر من زجاجة فى كأس وثالث فنجال من القهوة يصعد منه بخار كثيف وسيجارة تحترق ويصعد دخانها كل ذلك بالنور المتوهج المتحرك ومن صنوف الاعلان عن بعض المراقص إقامة تماثيل للراقصين والراقصات تتحرك وترقص فى الشكل الطبيعى والأضواء تنعكس عليهم . أما سيل الناس وبخاصة مساء الاحد فذاك أمره عجيب ، الأكتاف تتلاصق فى غير مبالغة وأينما كنت أسير كان يقودنى تيار الناس ودفعهم لى . والسيارات الفاخرة تسد الطرق وكنا نسمع أصوات الراديو منبعثة من كل سيارة فى جلبة كبيرة وظل جميع الناس إلى بعد الثانية صباحا وبينهم الأطفال الصغار ، ولهم العذر إذ المكان يبهر العقول ويستهوى من الناس الحكيم الرزين فما بالك بالأطفال ضعاف الأحلام ، وكنت كلما هممت بالعودة إلى الفندق لأنام ووجهت خطاى اليه أجدها تساير التيار وتابى إلا التجول فى تلك المنطقة الساحرة .

أما خروج الغانيات والشبان عن الحد المألوف فى تبخترهم وعناقهم وتقبيلهم على قارعة الطريق فذاك ما كان يروعنى كثيرا فكأن الأباحة قد بلغت هناك غايتها وامتنع الحياء بتاتا ، والمدهش أن ذلك لم يكن يستدعى من المارة لفتة استنكار أو امتعاض فالكل راضون بذلك وهل الحياة فى نظر رواد برودوى الا هذا المتاع والاسراف فى المجون ؟

قمت صباح الاثنين قاصدا تمثال الحرية فأقلنى القطار المرتفع (Elevator) الى الباترى (South Ferry) وهناك أخذت الباخرة (Ferry) الى جزيرة صغيرة أقيم عليها التمثال الذى أهدته الأمة الفرنسية للولايات المتحدة منذ خمسين سنة وهو لسيدة تمثل الحرية تمسك بيدها اليمنى شعلة الهدى والحق



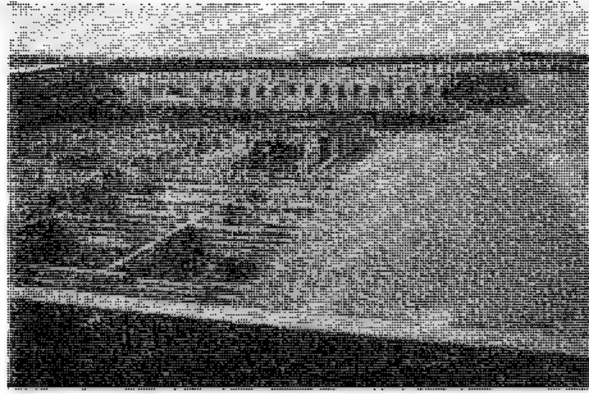
نشرف على نياجرا وقد أذهلنا بروعته



(شكل ١٢٠) على قنطرة نهر شيكاغو

والحرية مرفوعة الى السماء وباليسرى كتاب هو دستور الحرية وقمة الشعلة
تعلو عن مستوى البحر ٣٠٦ قدم أى زهاء مائة متر ورأس السيدة تبعث
أشعة الحرية كأنها الشمس فى لونها الذهبى وفى الليل توقد تلك الشعلة
بالمصابيح الكهربائية وتلقى أشعة النور من الأركان على جسم التمثال كله فيلتهب
وضوحا وبريقا وقد أقيم على قاعدة من الجرانيت زودت بالروافع والدرج
التى توصلنا إلى أقدام التمثال وحول تلك القاعدة نسقت المتنزهات وزودت
بالمقاعد ولقد هالنى جماهير الزائرين الذين يسدون المكان طوال اليوم وقد

أعد هناك سجل لقيد أسماء الزائرين وقد دونت اسمى تقديسا للحرية وإيمانا بها ولما أن عدت ركبت أطول خطوط (**الالفيتر**) **واخترقت البلدة كلها** من أدناها إلى أعلاها from down to up ولقد استغرقت المسافة بالقطار السريع (الا كسبريس) ساعة كاملة قطعت خلالها فوق مائتى شارع وسط تلك الناطحات الهائلة وذلك على طول (3rd Av) كل ذلك (بنيكل) أى قرش واحد رميته فى صندوق المدخل وأدرت الباب وانتظرت هنيهة حتى وفد القطار وفتحت أبوابه من تلقاء نفسها فركبته ثم دق الجرس فامتنع الناس عن الركوب وأقفلت الأبواب وحدها وسار بنا ينهب الأرض نهبا ، وهذا القطار يجرى من أقصى البلدة إلى أقصاها فى أربعة شوارع تكاد تكون متوازية. وفى آخره تجولت فى حديقة النبات ببيوتها الزجاجية التى حوت نبات جميع المناطق ثم عرجت على جانب الحيوان وبه حديقة الحيوان الكبرى وفى عودتى أخذت قطار تحت الأرض (Subway) جرى بى على طول شارع (7th Av) والعادة أنه يسير فى الشوارع الكبرى التى لا يجرى فوقها الترام المرتفع وهو أسرع الوسائل إذ لا تعوقه علامات المرور فهو تحت الأرض فى سراديبه الخاصة ولقد دهشت لما ألفيت السراديب عليها أربعة أشرطة متجاورة للأكسبريس والعادى (Express & local) على الجانب الأيمن يسيران إلى أسفل المدينة dwon town ومثلهما على الجانب الأيسر الى أعلى المدينة Up town وأجره (نيكل) أيضا وحدث أن محطتى التى كنت أريد النزول بها (شارع ٢٣) لا يقف عليها الاكسبريس فمر بها ووقف فى (شارع ١٨) فنزلت وخطوت الى الجانب الآخر (Up town) وانتظرت حتى جاء القطار العادى (local) فركبته الى حيث أردت ولم أدفع لذلك شيئا الى ذلك فهناك مجموعة من الترام العادى والأتوبيس الفاخر البديع والبواخر (ferries) المتعددة التى تسهل لك الاتصال بأية جهة من المدينة وما حولها من جزائر وكل ذلك (بنيكل) ليس غير ولهم الحق أن يفاخروا



(شكل ١٢١) فى ناحية من مجازر شيكاغو

بأن مواصلات نيويورك أرخص وأسرع وأرق منها فى أية مدينة أخرى فى العالم ولقد ساعدها على رواجها هذا وفرة الركاب الذين تغص بهم العربات صباح مساء فلا تتجاوز المدة بين القطار والذى يليه دقيقتين وقد عددت عربات قطار تحت الأرض فألفيتها عشرا فى كل قطار كل ذلك ولا تكاد تجد مكانا خاليا وكثيرا ما تظل واقفا .

ولعل أفخر ما رأيته من وسائل النقل هناك محطة (بنسلفانيا) للسكة الحديدية ، وقد كنت أخال أن المحطة التى وصلت اليها وافدا من منتريال (Grand central) لا يفوقها فى الأبهة والفخامة شىء واذا بها لا تذكر الى جانب المحطة الأخرى (بنسلفانيا) فبهو المدخل يبهر النظر بمرمره وبريقه وجمال المتاجر على الجانبين والأقبية المذهبة فوق الرءوس وتزين واجهة منه مجموعة من أعمدة كادت تبلغ بعظمتها أعمدة الكرنك ثم تنزل درجا الى بهو آخر فسيح للتذاكر والاستراحات والمطاعم والتلغراف والتلفون والاستعلام ثم تنزل الى ثالث عظيم به يقف المسافرون كل فريق أمام مدخل رصيفه (Track) وحول المكان مدخل ٢٨ رصيفا لقطارات مختلفة والراديو بمكبراته يذيع على الجيوش التى تراها كل لحظة رقم القطار الذى

سيقوم الآن ووجهته ومن أى رصيف يسير واذا دخلوا نزلوا درجا آخر تحت الأرض وركبوا عرباتهم .

عجبت من نزعة الأمريكيين الى الظهور بمظهر الأبهة والغنى المفرط فى كل شىء فلا يروقهم إلا الضخم الطلى من الأشياء وتقع تلك المحطة فى (7 thav) . خرجت منها ذاهلا وأحببت أن ألقى بآخر نظرة على أكبر ناطحات العالم (The Empire State) وكان على مقربة منه فطفت حوله فزدت اعجابا به وبالقدرة الهندسية التى أنتجته ، وقد أعلنوا فى بعض نوافذه السفلى (الفترينات) يحضون الناس على الصعود الى قمته وأذكر من ذلك أنهم وضعوا نماذج كبيرة للبناء الى جوار برج إيفل ومسلة وشنطن والهرم الأكبر وبرج بيزا المائل وروعيت فيها نسب الارتفاع فكان هو أعلاها ثم تدرجت الأخرى نقصا فى العلو على الترتيب المذكور . وفى نافذة أخرى أعلنوا عن عدد الزائرين لقمة البناء فكانوا فى الأسبوع الأخير من أغسطس ١٢٦٤٤ وفاق مجموع من زاره الى آخر أغسطس ٢ مليون ونصف دفع كل منهم ريالا أجراً للصعود أعنى أنهم ربحوا من وراء ذلك نصف مليون جنيه ثم ذكروا الدول المختلفة التى ينتمى اليها أولئك الزائرون ومن بينها مصر ثم نشروا جميع أعلام تلك الدول وكان علمنا الأخضر الجميل ظاهرا بينها . كل ذلك ليستميلوا الناس إلى الصعود فيربحوا من وراء ذلك مالا وصيتا . أحسست بالجوع عاجلا هذه الليلة لأن غدائى كان مفاجأة غريبة فلقد رأيت فى اعلان الطعام الذى يضعونه على مقدم مطاعمهم بالخط الكبير وعليه الثمن أن الطبق الخاص اليوم Special dish هو Hot dog ومعناه الكلب الحار فأحببت أن أتذوق لحم الكلاب الذى يحبه القوم حبا جما لكثرة وروده على ألسنتهم وفى اعلاناتهم واذا به مجموعة من لحوم مقطعة تحكى البسطرمة حشرت فى أغشية حمراء اسطوانية تحكى (المنبار) .

تناولتها فى غير شهية ظنا منى أنها من لحوم الكلاب ، ولما أن استفسرت



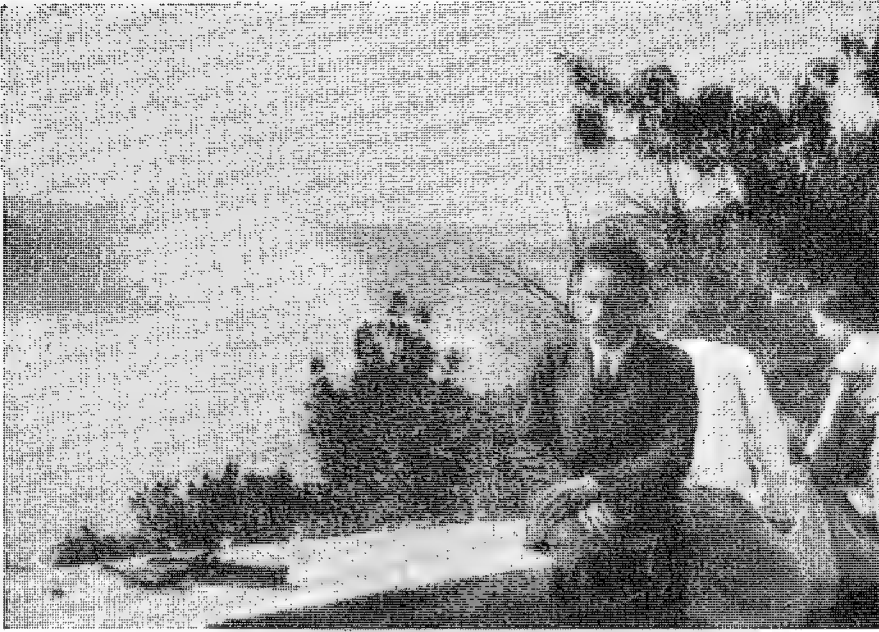
(شكل ١٢٢) الساحل الذهبي مقر مليونير شيكاغو

عنها آخر الأمر ضحك الرجل وقال بأنها من لحوم البقر وقد سميت كذلك لأن الكلاب تحب رائحتها حبا جما . دخلت فى المساء مطعما للعشاء وهنا كان رأس الطعام صينى الأصل يسمى (chop suéy) ويعلن عنه بحروف كبيرة من نور أمام المطاعم لذلك خلته شهيا واذا به خليط من نثير لحم البقر وشرائح البصل والشكوريا صبت عليه (الصلصة) فبدا كالعجين الأحمر ، فتناولته على مضض منى لأن مذاقه كان منفرا ولم ينقذنى من الجوع سوى الحساء والخبز والزبد وذلك يقدم مع كل طعام ثم فطير التفاح (Apple pie) وفنجال القهوة مع اللبن وذاك نظام طعامهم العادى وقد كلفتنى تلك الوجبة ثمانية قروش مصرية .

انحدرت بى قدماى الى كعبة أهل نيويورك وزائريها — برودوى وشارع ٤٢ و 7 thav فكانت الحال كما تراها كل ليلة بحر زاخر من الناس من مختلف الأرض وكنت أسمع كل فريق من المارة يتكلم بلغة مختلفة فرنسية وطليانية ويونانية وعربية واسبانية الخ . وحتى اللغة الانجليزية التى يتكلمها السواد الأعظم من أهل نيويورك بل وأمريكا محرفة دخلها كثير من الكلمات الغريبة .

ولم يكن يروقنى سماعها منهم فقد أكسبوها اعوجاجا واضغاما أفقدها موسيقى النطق الذى نسمعه من الانجليز وبخاصة السيدات وذلك طبيعى بين أمة قد تألفت من عناصر متباينة وجنسيات عدة توطنوا فى البلاد ولم تتأصل فى ألسنتهم اللغة الانجليزية ، أما عن اللحن والتكسير فى قواعد اللغة فذاك لا يكاد يخلو منه أحد هناك .

طفقت أتجول هناك وأنا مبتهج بما أرى من أنوار وأزياء طروب لما أسمع من ضوضاء حركة المرور الصاخبة التى كانت تنغصنى بادىء الأمر ثم ألفتها فأحببت سماعها من صياح الناس يعلنون عن ملاهيهم الى صوت العجلات الى غناء الراديو المنبعث من كل سيارة الى جلبة (الالفيتر) فوق الرءوس و (السبوى) تحت الأرض وكان صوته ينبعث من النوافذ التى تشغل كثيرا من أرض الطرق فى شباك حديدية لا يفتأ بين آن وآخر يتفجر منها دخان وبخار ساخن هو الهواء الفاسد الذى تطرده مضخات التهوية وتعيضه بغيره من الهواء البارد المنعش ، ومن تلك القطارات ما يسير فوق بعضه فهناك ثلاثة أدوار (للسبوى) الواحد تحت الآخر وفوق أولئك ترام الأرض العادى وفوق ذلك (الالفيتر) وقد يكون من دورين قطار يجرى فوق الآخر ، أعنى أن وسائل النقل قد تشغل ستة أدوار بعضها فوق بعض كل ذلك يحدث جلبة تقلق راحة من يحل البلد لأول وهلة لكنه لا يفتأ يعتادها فينفر من السكون ويعده ضربا من الوحشة المقلقة ، وذلك ما كنت أحسه أنا آخر الأمر . وعند منتصف الليل رجعت الى الفندق وكان جو اليوم حارا بعد أن كان أميــــل الى البرودة فى الأيام السالفه ، والجو فى نيويورك سريع التقلب فبينا تجد الشمس صاحية وضاءة والهواء عليلا اذا به ينقلب فى ساعة واحدة فيحجب السحاب الشمس وقد يمطر وابلا أو يعم الجو شبه دخان يخفى الكثير من جمال مناظر البلدة وما أحاطها من بحار وجزر وناطحات وذلك هو السائد فى جو نيويرك واذ قلما يصفو الجو



(شكل ١٢٣) نجلس على حافة خانق نياجرا ومن ورائنا الشلال

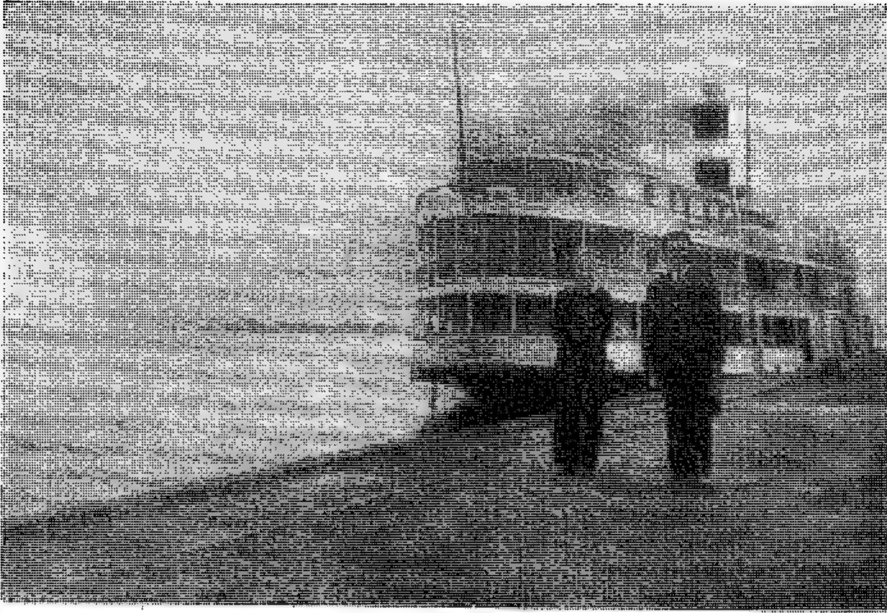
يوما بأكمله .

ودعت نيويورك ظهر يوم الثلاثاء ٨ سبتمبر مستقلا الباخرة Saturnia الايطالية بعد أن أفلتت منى الباخرة Rex ملكة البواخر الايطالية وحمولتها ٥٢ ألف طن ، أما هذه فزهاء نصفها حجما . لكنى ألفيتها عظيمة فاخرة البنيان والأثاث فسيحة الأبهاء والحجرات شهية الطعام والايطاليون معروفون بجودة الطهى إذا قورنوا بالانجليز ، وهل أنسى صنوف المكرونة البديعة التى لم تخل منها وجبة أبدا ؟ أو قنانى النبيذ بلونيه الأحمر والذهبي الذى يتلألأ فوق مناضد الطعام جميعها فى كل آن والذى يشربه القوم بدل الماء فى اسراف شديد فلا يفتأ الواحد يفرغ القنينة الكبيرة ويعقبها بثانية فثالثة .

أخذت الباخرة تتنحى عن ارصفة نيويورك وميناها الصاخب العظيم

فتجلت ناطحات السحاب فى روعتها الكاملة وأخذت هذه تنضمر و تتوحد كلما بعدنا حتى أضحت شبحا فاترا ثم غابت عن الأنظار وكانت وجهتنا : **بسطن** : أكبر بلاد ولاية (ماستشوستس) وقد أعلن على لوحة الباخرة أنا سنصلها صباحا (الأربعاء) ولما أن استيقظنا فى الصباح ألفينا الباخرة واقفة فى غير حراك وقد أحاطتها حجب كثيفة من الضباب الزمتها الوقوف وحرمت عليها السير خشية أن تصطدم بصخرة أو باخرة أخرى ، ذلك لأنا كنا نحاول عبثا أن نبصر بشىء على بعد أمتار قليلة من الباخرة ولم تجد مناظيرنا فى ذلك شيئا . وتلك المنطقة عرفت منذ القدم بخطر الملاحة فيها لأنها وسط بين تلاقى التيارين : مياه تيار الخليج الدافىء وافدة من الجنوب ومياه تيار لبرادور البارد تفد من الشمال فتكثف كثيرا من أبخرة الجو فى سحابات قاتمة هى ذاك الضباب الثقيل وقد يسمون هذا الحجاب أو الستار الثقيل (The cold wall) بالحائط الباردة لأنه يقف سدا كالحائط تشع برودة وبللا . لبثت الباخرة واقفة تعلن عن مكانها بالأجراس والأبواق لتنبه البواخر الأخرى اليوم كله إلى الساعة السادسة بعد الظهر حين انجلى ذاك الضباب وكنا نخاله سيخف حوالى العاشرة صباحا عند ما تعلو الشمس وتبخره لكنه أدهشنا بركوده طوال اليوم . وقد حل ذلك بالكثير من السفن الماخرة فى تلك المياه . ولقد أعلنت الجرائد عن هذا الضباب الذى عاق سير الكثير من السفن وقالت بأنه أسوأ ما وقع فى فصل الضباب كله هذا العام .

نزلنا بسطن بعد أن جزنا مجموعة كبيرة من جزائر عند مدخل مينائها ولقد ظهرت فاترة وسط دخان المصانع المحيطة بها وهى مدينة المنسوجات على اختلافها . وأخذنا نخترق نواحيها فكانت المبانى عظيمة شاهقة لكنها تطل على شوارع ضيقة متلوية فكلما سرت قليلا انعطف بك الطريق يمنة ويسرة وتكاد تكسى جميعا بطبقة سوداء قذرة منفرة من الفحم المنبعث من دخان المصانع . وأدهشى ما رايته من القطار المرتفع (E evator) الذى



(شكل ١٢٤) بعد أن نزلنا من الباخرة تورنتو على بحيرة انتاريو

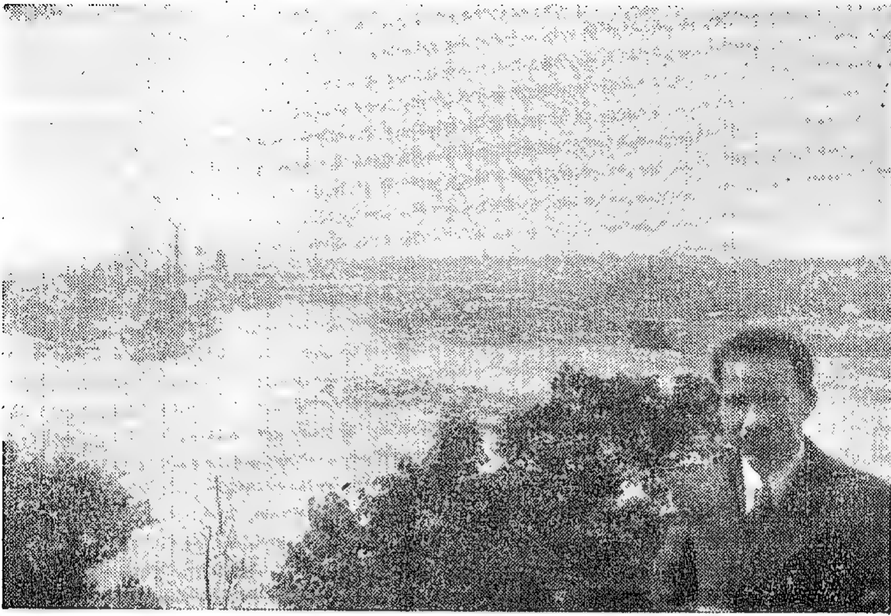
يجرى فى خط واحد فوق الرءوس ثم لا يفتأ ينزل إلى تحت الأرض فيصبح Subway فكأنها جمعت بين وسيلتى النقل العظيمتين اللتين فى نيويورك .

والمدينة أقدم بلاد أمريكا والذكريات التاريخية تحوطها من كل جانب. فهى مهد الثورة الأمريكية وفيها بدأت أول شعلة لحرب استقلال أمريكا؛ وكانت مقرا لزعماء تلك الثورة .

فلقد زرنا الكنيسة القديمة التى أقيمت سنة ١٦٠٣ والتى عمد فيها بنيامين فرانكلن ، ثم مررنا بالبيت الصغير الذى ولد فيه ، وقد أبصرنا بالمكان من المزارع المحيطة بالمدينة الذى بدأت فيه أول مناوشة قاوم فيها الفلاحون الانجليز بالسلاح حين خطب زعيم الرعاع فى الناس قائلا (اثبتوا فى أماكنكم ولا تطلقوا النيران حتى يعتدوا عليكم فأن رغبوا فى الحرب فلنبدأها فى هذ المكان : Stand your ground, dont fire unless fired upon, but if

they mean to have a war, let it begin here. ثم زرنا دار البلدية القديم The Old State House الذى بنى سنة ١٧١٣ والذى قام وشنجطن يخطب الناس من شرفته الصغيرة ويقرأ تصريح الاستقلال والانسلاخ عن الانجليز Declaration of Independence وأمام تلك الشرفة وسط الميدان الصغير وضعت علامة من الحجر الأبيض لتدل على مكان مذبحة بسطن التى سفكت فيها أول دماء الثورة سنة ١٧٧٠ ، ثم كانت زيارتنا لمهد الحرية قاعة فاينباى (Faneuil Hall) التى قررت بين جدرانها عناصر الثورة وبنود الاستقلال سنة ١٧٦٣ . ومن الكنائس القديمة كنيسة المسيح Christ Church التى علقت منها المصابيح سنة ١٧٢٣ لتنبه (Paul Revere) بزحف الجنود الانجليزية . وأخيرا اعتلينا ربوة بنكر (Bunkers) التى كانت مقر الموقعة الحاسمة (Bunker Hill Battle) بين الأمريكيين والانجليز ويقوم عليها نصب تذكارى لانتصار أمريكا وهو عبارة عن مسلة شاهقة علوها ٢٢١ قدما ارتقيناها بنحو ٢٩٤ سلما ومن نوافذ الذروة بدت المدينة فى منظر بديع رغم ما أحاطها من دخان وضباب وقد بدأ بناؤها سنة ١٨٢٥ وتم ١٨٤٣ ، كل تلك الذكريات أحلت المدينة من نفسى مكانا ساميا فهى أقدم المدن الأمريكية وأقدسها ويعدها القوم كعبتهم يحجون إليها ويزورون تلك الأماكن الخالدة ويترحمون على مقابر قادتهم وأبطالهم الذين ماتوا ودفنوا فى رحابها دفاعا عن استقلالهم وحماية لحريتهم ، ولقد كان طريق عودتنا من الشارع الرئيسى للمدينة الذى تقع عليه أكبر المتاجر وأروع الأبنية ويتوج باسم زعيم حركة استقلال أمريكا (جورج وشنطن) . ولم ندرك متحفها الشهير Agassiz Museum الذى حوى مجموعة قيمة من مختلف الزهور فى أحجامها المختلفة وألوانها البديعة وكلها من الزجاج صنع فى مصانع المدينة وليس له نظير فى العالم أجمع .

ولقد كان يسود جو المدينة شيئان : المظهر الصناعى الذى كان يبدو فى



(شكل ١٢٥) أشرف على نهر أتاوة من ربوة البرلمان

كثرة المداخن وسواد الأبنية ورث الثياب التى كان يرتديها غالب المارة وهم طبقة العمال ، والشيء الاخر رائحة السمك التى كانت تنبعث من كل الأرجاء وبحار بسطن تعد من أكبر مصائد الأسماك فى الدنيا بفضل قربها من مياه شط نيوفوندلند نهاية دفء تيار الخليج وكثرة الضباب الذى يجد السمك تحته غطاء ومخبأ وتعد ضاحيتها التى تسمى (جلوستر) من أغنى بلاد الدنيا لأنها أغنى المناطق هناك بصيد السمك وإعداده . وعجيب أمر هذا الضباب فما كدنا ندخل الميناء ونقف بها بضع ساعات حتى عاد فخيم علينا من كل ناحية ثم انجلى ساعة واحدة سلكنا سبيلنا فيها الى عرض المحيط وها نحن اليوم (الخميس) نشق طريقنا خلاله فى بطء شديد ولا نكاد نبصر بشيء قط ولا تفتأ الباخرة تعلن عن مقرها بالأبواق والأجراس ، ولبثنا هكذا يوم الجمعة كله حتى أخذ ينجلى تدريجا ، أما الجو فكان بارداً منعشاً والبحر هادئاً وديعاً. واليوم (السبت) فقط سطعت الشمس وصفا الجو لأنا بعدنا عن أطراف

هذين التيارين ولقد أذكرنى ذاك الضباب بفاجعة الباخرة (تيتانيك) التى كانت تعبر المحيط لأول مرة بعد بنائها سنة ١٩١٢ وكانت تفاخر بأنها أحدث البواخر التى شقت المياه وأكبرها وكان آلاف الركاب آمنين على أرواحهم واثقين برسوخ قدم مطيتهم على سطح الماء وما أن أوغلت فى ذاك الضباب الى الشمال من منطقتنا هذه حتى باغتها جمد من الجليد لم تنم عنه حجب الضباب الكثيفة لحطم جانبها وغرقت وقد أودت بحياة الألوف من المسافرين لذلك لا يغامر قواد السفن اليوم فى تلك المنطقة اذا أحاطهم ضبابها ويجب أن تظل الباخرة واقفة حتى تخف وطأة تلك الظلمات .

نزل الباخرة من بسطن جمع كبير من المسافرين وجلهم من الطليان والاغريق الذين توطنوا أمريكا وقد حنوا الى أوطانهم فعادوا يزورون أهلهم هناك وبعضهم يعتزم العودة والكثير يؤثر أن يقيم فى بلاده الأولى بعد أن حمل معه ما جمع من ثروة ومال خصوصاً وأن المقام فى أمريكا اليوم لا يعود عليهم بكبير فائدة لأن الضائقة المالية لا تزال آخذة بمخنق الكثير فى تلك الديار .

وممن ركب الباخرة زهاء مائة طالب من مختلف بلاد إيطاليا استقلوا الباخرة وقد مروا على الكثير من ثغور البحر الابيض والبرتغال وأزورا وبسطن ونيويورك ثم أقاموا فى باخرتهم وهى ترسو هناك خمسة أيام تفقدوا فيها أنحاء المدينة تحت إشراف أستاذ إيطالى . وقد علمت لما أن حادثتهم فى هذا الشأن أن (موسولينى) فرض على كل باخرة أيا كانت وجهتها ان تعد مكاناً فى اية درجة فيها لمائة طالب يسافرون معها فى رحلتها ذهابا ورجعة مقابل نصف اجر الدرجة الثالثة تدفعه الدولة وذلك لانه يؤمن بفائدة الرحلات واثرها فى تربية النشء على الاستقلال وقوة الملاحظة والرجولة والاعتماد على النفس وقد كان سلوكهم اينما ظهروا مشرفا . فلم نرهم إلا فى كامل حللهم يلزمون الهدوء ويبتعدون عن المجون ولم نلمح أستاذهم بينهم



(شكل ١٢٦) دار البرلمان الفاخرة فى أتاوة

الا نادراً وحتى فى حفلات الرقص آخر الليل كانوا يحضرون ويشاهدون ما يقع فيها دون أن يحركوا ساكناً . أكبرت تلك النزعة المصلحة فى زعيمهم الوطنى (موسولينى) الذى لا يدخر وسعا فى تكوين الرجال الذين ستعتمد عليهم ايطاليا فى مستقبلها . وكنت أشعر بالحزن الشديد لنصيب أبنائنا من تلك التربية ، وإلى متى تظل حكومتنا غافلة عن أبنائهـا وهل يكلف وزارة المعارف مثل ذاك الأمر الا القليل من المال به يرى المصريون العالم الخارجى فتتسع مداركهم ويرون بعيونهم كيف يغامر أبناء الأمم الأخرى طلبا للرزق الوفير فى أقصى الأرض غير قانعين براتب ضئيل تمن عليهم به حكومتهم فى وظيفة لا تلبث أن تقتل فيهم روح العمل وحب البحث ، أليس ذلك أجدى على الطلبة مما يدرسون فى مدارسنا وما يحرزون من (شهادات) . انى لأرجو أن يلمس رؤساؤنا ما لذلك من أثر جليل فى التربية ويعدوا العدة لانفاذه وها نحن على أبواب عصر جديد وقد زالت عقبة السياسة التى كانت تقف فى سبيل كل تقدم وتعترض كل محاولة للأصلاح .

خرجنا إلى عرض البحر وخلفنا وراءنا منطقة الضباب الكثيف فصفا الجو وهدأ البحر وكانت تتعلق بمائة قطع من طفيليات الماء وأعشابه فى عناقيد

مشتبكة حبهـا صغير وهو عشب سرجاس الذى يكثر فى وسط البحر بين دورة التيارين : تيار الخليج إلى جانب أمريكا وتيار كناريا إلى جانب أوروبا وأفريقية وذاك البحر الأوسط الذى حمل اسم ذاك النبات (بحر سرجاس) قلما يغضب ماؤه أو يعلو موجه ، لذلك لبثنا خمس ليال وأربعة أيام كاملة نشق طرفه الشمالى فى هدوء حتى وصلنا جزائر أزوارا ظهر الاثنين ١٤ سبتمبر . فظهرت مجاميع الجزائر منثورة فى امتداد كبير ثم دخلنا خليجا كملته الأرصفة والحواجز الصناعية فى ثغر سان مشيل فى جانب من الجزيرة الرئيسية وكانت الأرض جبلية تعلو رباها فى مخاريط متعددة لبراكين خامدة كست الخضرة القصيرة منحدراتها وفى سفوحها السفلى أقيمت المدينة بمتنزهاتها الجميلة وبيوتها الوطيئة وكان يشرف على الميناء دير (سان مشيل) الكبير . ولم نقف بها سوى ساعتين ونصف وأقلنا زورق صغير إلى الشاطىء بعد أن دفعنا ريالا ضريبة النزول إلى البر وطافت بنا سيارة فى أهم أنحاء البلدة وبعض ما أحاطها من مزارع الفاكهة والاناناس وقد بدا على كثير من أهلها العوز فكم رأينا من حفاة خلقى الثياب ومتسولين بائسين على أنهم مرحون بسطاء فى جملتهم وهم من البرتغاليين إذ الجزائر مستعمرة برتغالية .

اضطرب البحر وعلا موجه وترنحت السفينة قبل دخولنا لشبونة بيوم واحد حتى ألزم كثيرا من المسافرين مضاجعهم وهجروا المطعم فى العشاء ولم يشاطر منهم فى رقص المساء إلا القليل . وفى باكورة الصباح أشرفنا على عاصمة بلاد البرتغال . دخلنا خليجا مستطيلا يصب فى نهايته نهر التاجه وإلى يمينه قامت لشبونة ببيوتها الوطيئة وسقوفها الحمراء تتدرج على المنحدرات والمبانى مكتظة متقاربة إلى ورائها ظهرت الربا نصف مجدبة وقد احمر أديمها من شدة الجفاف ولفح الشمس إلا فى بعض نواح زرعها القوم خضرا . نزلنا نجوب نواحيها وظلت السيارة ثلاث ساعات وهى تشق طريقها وسط أزقة مختنقة كثرت لياتها وصعب منحدرها ورصفت أرضها بقطع البازلت



(شكل ١٢٧) منظر عام لمنتريال فى كندا

البركانى فى غير نظام . والبيوت تلاصقت فيما بين ثلاثة أدوار وخمسة دون أن نرى بها فجوة أو شرفة (أو فرندة) وإذا بدت (بلكونة) كانت عبارة عن نافذة (شباك) خرجت منها شبكة من (درابزين) متقاربة صغيرة . على أن جل واجهات البيوت كسيت بالقيشانى الملون البديع وذاك لا شك مقتبس من الأندلس وما فيها من أثر عربى . وكان الترام يجرى وسط تلك الطرق الوعرة وكلما قارب التواء وقف عامل بالاشارة ليدل الناس على اقتراب الترام لينتظروا حتى يمر . والمتاجر جلها صغير ومبعثر أسفل البيوت فى غير نظام . على أن بالمدنية عددا من الميادين لا بأس باتساعها تقوم وسطها تماثيل العظماء من ملوك وكاشفين ومن أظهرهم تمثال فاسكودجاما يشير بيده إلى البحر وإلى ورائه كنيسة كبيرة ، زرنافيها مدفنه إلى جوار بعض العظماء والأمراء . وهناك عدد كبير من الكنائس الهائلة وقد راقنى منها بناء الكتدرائية (سان جيروم) فى هندستها القوطية وأعمدة الداخل شاهقة العلو وتحكى مآذن المساجد تماما .

ثم كنيسة سانت انطونيو أقيمت حول المكان الذى ولد فيه وإن كان مثواه اليوم روما والناس يقدسونه إلى درجة العبادة فالمقام غاص بالركع السجود تنهال الهبات من كل جانب وتبدو الشعوذة داخله بشكل فاق ما نراه فى أضرحة البلاد الشرقية . وكان يروقنا طوال الطريق نداء المتجولين والمتجولات من بائعى السمك والخضر والفاكهة يحملون السلال على رءوسهم ويصيحون ترويجاً لسلعهم وقد بدا على هندامهم العوز الشديد أما المتسولون وشريدو الشوارع من الأطفال ففى كثرة هائلة وجلهم حفاة قذرو الثياب ولا تلبث تسمعهم يطلبون اليك سنتيما (one cent) وأيديهم ممدودة فى تواضع شديد إذا قورنوا بمتسولى أمريكا الذين يطلبون (a quarter) أى خمسة وعشرين مليما (خمسة قروش) ولا يقنعون بدونها . وكان قد تخلف معى من النقود الامريكية زهاء عشرين سنتيما بدرتها عليهم فكادوا يطيرون فرحا مع أن السنتيم بمليمين . ثم علت بنا السيارة تدريجيا حتى أشرفنا على منظر البلدة كلها وهى تتدرج ببيوتها المتلاصقة إلى البحر فى مشهد بديع . وهناك زرنا حديقة للنباتات كسيت سقوفها بشرائح الغاب تتخلله بعض أشعة الشمس وبه مجموعة من النبات قيمة جداً .

ولقد دخلنا متحف العربات القديمة حوى مجموعة من عربات الخيل لبعض الملوك والبابوات أذكر من بينهم البابا كلمنت الحادى عشر وفيليب الثانى ملك اسبانيا الذى ملك البرتغال يوما ، والعربات مقعرة مستطيلة بولغ فى تذهيبها وفرشها بالقطيفة والحرائر وتزيينها بالقصب البديع وإلى جوارها بعض السروج الذهبية والفضية وكثير من الأسلحة . وفى ناحية هناك دخلنا مدفن الملوك فى شكل (بانتيون) باريس لكنه فى حجم أصغر ومظهر أقل فخامة . وتقع دور الوزارات حول ميدان فسيح جدا غنى برصفه على أن المبانى نفسها قديمة وليست جذابة . والبوليس منتشر فى جميع الطرق على مسافات متقاربة حتى خيل إلى أنهم يخشون صدى ثورة جارتهم اسبانيا ،



شكل (١٢٨) كنيسة نوتردام فى منتريال

والبوليس هناك دقيق قاس حتى أن سائقنا التفت يساره وخالف اشارته له مخالفة بسيطة غير متعمدة فأوقفه وسحب منه (الرخصة) وسلمه قسيمة المخالفة وحاول الرجل استعطافه فأبى وقال :

أتريد أن ترى السائحين الأجانب أننا لانحترم القانون ؟

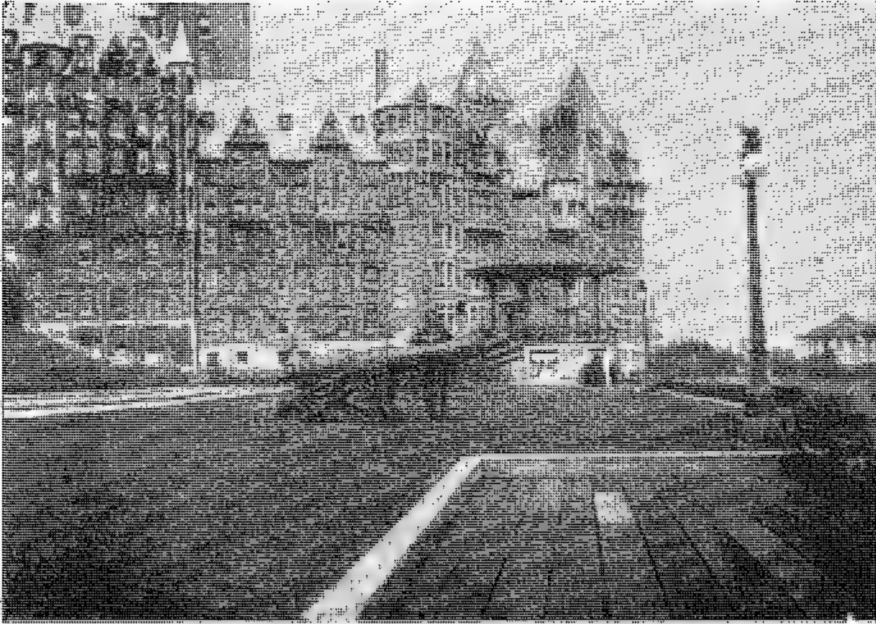
وقد راقنى من بعض الطرق المتسعة على قلتها رصف الأطارين بالودع الملون فى هندسة شرقية عربية . ومظهر البلد بدا قديما شبه أثرى أذكرنى بأزقة روما ، والناس بدوا فى بساطة الهندام وشتان بينهم وبين وجاهة



شكل (١٢٩) الشعوذة الدينية منتشرة فى كندا الفرنسية

الأمريكيين . وحتى المعروضات فى المتاجر كانت من المواد الرخيصة والأقمشة كلها من (الشيت الملون والباتستة) وما الى ذلك مما قل ثمنه ، وكثير من النساء يحملن شيلانا ثقيلة على أكتافهن رغم الجو الحار . وقد كانت الشمس شديدة الحرارة من أثر المنحدرات المجدبة التي تحيط بالمدينة وما كدنا نخرج الى البحر حتى رق النسيم وهبطت الحرارة هبوطا عظيما مفاجئا أيد فى جلاء ما للبحر من أثر فى مناخ الاقليم . أما سحن الناس فقد اسمرت جميعا وكثرت العيون السوداء على أن نسبة الجمال أقل منها فى أمريكا وفى الأندلس فقلما كنت أبصر بوجه جميل يسترعى النظر . وبدا النساء فى شيء كبير من الحشمة والوقار فى السلوك والهندام والحديث على عكس فتيات الدنيا الجديدة اللاتى قد انتقصن من جمالهن كثيراً بما يبدين من إباحة وطيش .

وهم يحاولون استغلال الغريب ما استطاعوا فمثلا استبدلت ريالين من النقود الأمريكية فسلمنى الصراف (٤٢ اسكودو) ولما رجعت



شكل (١٣٠) مبانى كوبك تذكرنا بالعصور الوسطى

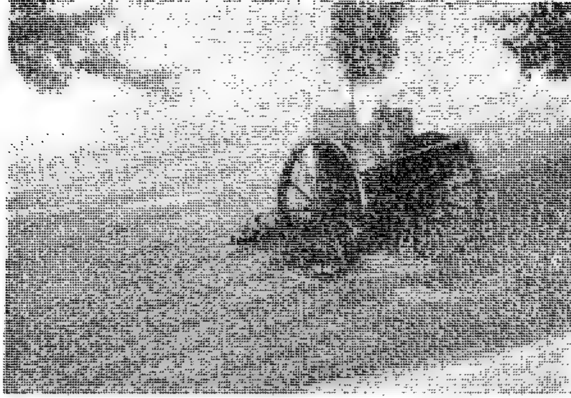
لم تكن بى حاجة اليها ، فعدت أردها إليـه ليعيد إلى النقود الأمريكية فسلمنى ريالا و٧٠ سنتيما أى أنى خسرت ستة قروش فى تلك الصفقة وذلك طبيعى فى بلد فقير يحاول أهله أن يحصلوا على المال من أى طريق والاسكودو يعادل قرشا صاغا تقريبا وهو أساس النقد البرتغالى وينقسم إلى مائه (سنتافو) أى أن السنتافو عشر المليم .

قمنا مبكرين فى السادسة من صباح الخميس ١٧ سبتمبر لنشهد سير السفينة بين شواطىء القارتين . أوروبا الى يسارنا وأفريقية الى يميننا ونحن نجتاز جبل طارق . وقد ظهرت الربى الجيرية الشاهقة على كلا الجانبين يغشاهما شبه دخان قاتم من السحاب وبخاصة صخرة جبل طارق التى ظهرت كالأسد الرابض يمتد ذراعاه فى انحدار متدرج ويلتوى الطرف كأنه المخلب العظيم وكان جانبه الأيمن المواجه للمحيط مدرج الانحدار وعليه قامت أبنية المدينة بعضها فوق بعض ، أما جانبه الأيسر المواجه للبحر الأبيض فظهر زلقا وعر

المنحدر عرى صخره عن كل شيء. أقلنا زورق صغير إلى البر فسرنا على أرصفة الميناء بالغة الطول ثم دخلنا بوابات الأسوار والطوابى التى تحيط بالبلدة إلى الشارع الرئيسى مكتظ المبانى قليل الاتساع ومنه تتشعب الأزقة التى لاتكاد تتسع لشخصين متجاورين تعلو بنا درجات إلى ذرى الصخرة حيث تقام الحصون العاتية والمدافع بعيدة المرمى. هنا أشرفنا على البوغاز كله تتدرج المبانى الصغيرة على جانبيه وتنتثر أحواض الميناء بالبواخر الحربية.

أما الناس هناك فخليط عجيب من سحن متباينة وأزياء مختلفة ولغات عدة على أن الاسبانية هي الغالبة وقد ظهر عليهم الضنك ورقة الحال فجلهم فى أسمال خلقة وأجسام هازلة ووجوه مصفرة ولا يكادون يرتزقون إلا من وراء ماينفقه السائحون وهم قليلون، وفى أحد الميادين رأينا عددا كبيرا من الأسبان اللاجئين إلى هذا البلد فراراً من الثورة فى أسبانيا وكانوا فى حال يرثى لها، ولقد ركب السفينة عدد كبير من الراهبات الهاربات من اسبانيا، والحكومة الحاضرة تضطهد رجال الدين وتطاردهم.

ولقد أمر موسولينى أن تنقلهم السفن الايطالية مجانا الى ايطاليا والثائرون من الاشتراكيين الفاشستيين لم يطيقوا حكم الشيوعيين وسوء معاملتهم لرجال الدين وكنا نتوقع سماع بعض طلقات المدافع الاسبانية لأن القوم هناك يسمعونها كل يوم. وكثير من نساء جبل طارق يلبسن فوق الرأس (طرحة) سوداء تكاد تشبه الحجاب الشرقي، ولقد دخلت إحدى كنائسهم فكانت حاشدة بهن ركعا يقرأن أدعيتهن ويظهر أن القوم متدينون إلى حد كبير. ولا يزال للعهد العربى الاسلامى هناك بقية فى قلعة عالية فوق مبانى المدينة وقد تهدمت أركانها وتصدعت جوانبها ويسمونها (Moorish Castle) . طفنا بالبلدة ساعتين ثم عدنا فى عربة يجرها حصان هزيل، وتلك العربات هى المطية الرئيسية هناك. وقامت بنا الباخرة توغل

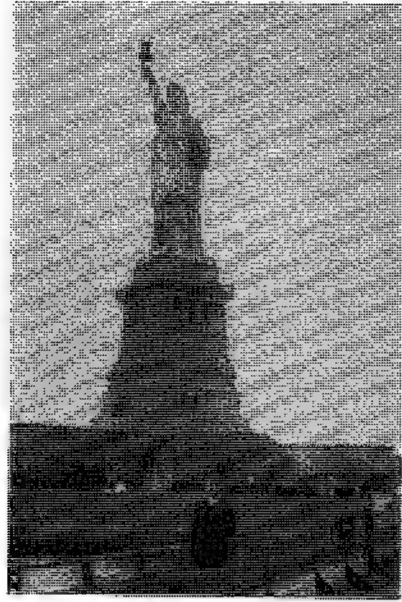


شكل (١٣١) ميدان أبراهام الذى هزم فيه الانجليز فرنسا فى كويك

فى البحر الأبيض ، وقد ودعت جبل طارق للمرة الثانية وفى القلب حسرة وفى النفس أسى لانصرام العهد العربى فى تلك البلاد.

كانت حفلة هذا المساء حاشدة على ظهر الباخرة فلقد أجرى عقب العشاء مباشرة سباق الخيل — وهو ضرب من المقامرة كلف به القوم جميعا ثم أعقبه شريط سينمائى بديع ثم تقدمت فرقة من هواة المتطوعات عازفات على القيثار والبانجو والمزمار وهن يغنين أدوارا لم ترقنى كثيرا إذ لم تطابق أصواتهن أوتار تلك الآلات ثم أعقب ذلك الرقص إلى ساعة متأخرة من الليل. وعجيب أمر أولئكن المتطوعات فهن يسافرن إلى البلاد الشرقية ومصر من بينها ليقفوا عند مفارق الطرق يعزفن ويغنين ومتى التف حولهن جمع من الناس بدأن التبشير الدينى محاولات رد الناس عن دينهم إلى الدين المسيحى والمدهش أنهن مخلصات لمهمتهن هذه وكن يكلمننا وكلهن يقين بنجاحهن فى ذاك العمل حتى خيل إلى وهن يتكلمن فى حماسة نادرة أنهن سيحولن البلاد جميعها إلى دينهن ! غير أنى رجعت فرثيت لحالهن ولسذاجة عقولهن وإلى متى يظل العالم أسير تلك الشعوذة الباطلة وهلا وجه أولئك مجهودهن إلى عمل إنتاجى نحن اليه أحوج وبه أجدر ؟

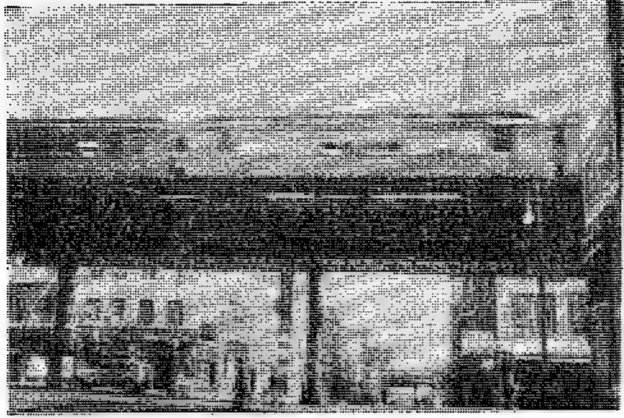
كنا على أبواب مدينة الجزائر صباح يوم الجمعة فظهرت مدرجة فوق الربى ممتدة فى طول هائل . ولقد حللتها للمرة الثانية وطافت بنا سيارة أرجاء المدينة فأخذنا تصعد تدريجا حتى بلغنا الذرى وأشرفنا على منظر ساحر للمدينة وبيوتها البيضا مدرجة إلى البحر وأرصفة الميناء ضمت مختلف السفن وأمنتها حواجز الأمواج التى أقامتها يد الانسان ولا تزال توسع نطاقها كى تصبح الميناء ذات شأن تجارى كبير بموقعها المتوسط فى البحر الأبيض . هنا أبصرنا بالوطنيين من المسلمين يمتزجن مع الفرنسيين فى ائتلاف عجيب لا فرق بين غنى وفقير ، وكثير من الوطنيين يلبسون الطرابيش السميكة الوطنية ، ولما أن دخلنا الحى الوطنى الصرف (حول القصبة القديمة) كانت الشوارع أزقة مختنقة لا تتسع لأكثر من شخصين وتكاد شرفات البيوت العتيقة تتساند على بعضها ولا يكاد يدرك أرضها شعاع من الشمس لذلك كانت رائحتها تشع وخما حتى لم نطق صبراً على البقاء فيها طويلا وهى أحياء قذرة جدا والعجيب أن بعض الفرنسيين يقطنون تلك الأزقة مع الوطنيين ويشاطرونهم معيشتهم البائسة الفقيرة . وقلما كنا نسمع العربية وإن نطق بها أحدهم كانت شوهاء محرفة منفرة ويستسيغون الفرنسية عنها وقد مررنا بعدد لا يحصى من المقاهى (البلدى) يجلس عليها الجماهير فى كسل كأنهم الذباب فى شكلهم القذر وملابسهم المنتنة وكثير منهم شوهته الأمراض . ولقد هال ذاك رفقائى من الأمريكيين الذين وفدوا إلى الشرق لأول مرة وقد ألفوا الحياة الأمريكية ، وعناية الدولة هناك بأحياء الفقراء فقال أحدهم : أليس من العار على فرنسا أن تترك تلك الأحياء هكذا ؟ وكيف تسمح بعرض المأكولات تعبث بها الأيدى ويعف عليها الذباب إلى هذا الحد المنفر ؟ وهلا ساقوا هؤلاء المرضى الى المستشفيات رأفة بحالهم وحفظاً للناس من وبائهم ؟ وفى الحق أنى كنت أشعر بشىء كبير من الخجل لأنى شرقى تربطنى بتلك البلاد صلة الجوار والدين . ولقد سألنى أحدهم قائلا : لا أخالنى سأرى شيئاً من



شكل (١٣٢) تمثال الحرية فى مدخل نيويورك

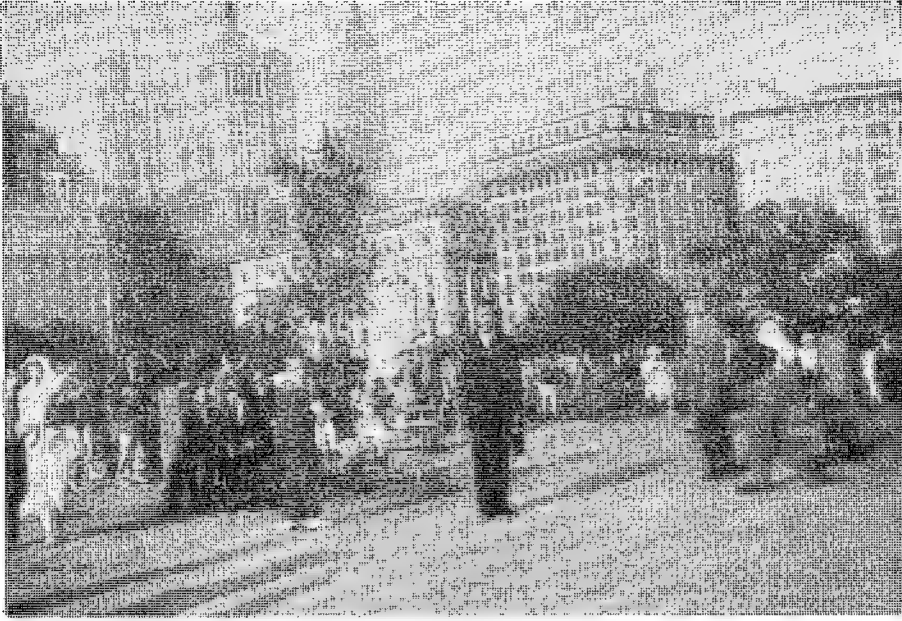
هذا فى مصر عند زيارتى لها فى مارس المقبل ؟ فسكت عن الجواب وقلت فى نفسى: عسى أن تكون حكومتنا الجديدة قد عنيت بأحياء الفقراء وبرقابة المطاعم والضرب على أيدى المرتزقة من المتسولين والمشعوذين وما ذلك عليها بعسير. ولقد طغى ذاك الحى الوطنى بقذارته فخلف أسوأ الذكرى فى أذهان جل ركاب السفينة حتى أنى كلما سألت أحدهم ، كيف رأيت مدينة الجزائر كان الجواب (Terrible & awful لم أر أشنع منها) فكنت أقول ولكنكم نسيتم جمال الأحياء الأخرى وهى تفوق ثلثى المدينة فكانوا ينكرون على ذلك ويقولون بأنهم لم يلمسوا بها جمالا . وذلك يظهر لنا مبلغ أثر تلك الهنات فى نظر الأجنبى ولذلك فهو إذا تحدث عن الاقليم لم يجد غير الاستنكار شيئا .

أبحرت بنا السفينة والجو حار والبخار كثيف وفى الرابعة بعد ظهر السبت بدت جبال جزيرة صقلية الشمالية شاهقة غير مجدبة وفى أسفلها مجموعة



(شكل ١٣٣ القطار المعلق فى نيويورك)

من قرى صغيرة ثم التوت بنا فى خليج فسيح تقوم عليه مدينة پالرمو عاصمة الجزيرة ولقد مدت حواجز الأمواج الصناعيـــة وأمنت مكانا متسعا من غوائل البحر جعل المرفأ عظيما ولا يزال الانشاء فيه قائماً على ساق وقدم شأن موسولينى الذى يريد أن ينشىء بلاده من جديد . نزلنا البر فالتف بنا جمع لا يحصى من الباعة والحوذية والمتسولين يلحفون جميعاً ، هذا يحاول إكراهنا على ركوب عربته أو سيارته وذاك يضع بضاعته فى جيوبنا لندفع له ثمنها والثالث يطلب عونا وصدقة . وكانت الطرق الجانبية للميناء قذرة جدا وأهلها حفاة قذرون والمأكولات تعرض فى شكل منفر تعبث بها الأيدى والأعين . ولما أن أوغلنا فى قلب المدينـــة ظهرت قيمتها التاريخية فى أبنيتها الفاخرة الضخمة أذكر من بينها الكتدرائية وقصر الملك والأبرا وكثير غيرها فى هندسة القرون الوسطى يزينها بعض الشىء الأثر العربى الأندلسى ، ولقد كانت مقر ملك صقلية من بين الدويلات الصليبية . وبها مجموعة فاخرة من كنائس لا حصر لها . ولا تكاد تمر بميدان أو منعطف إلا وتجد صليبا أقيمت أمامه الشباك وعلقت المصابيح ويركع المارة أمامه ويقبلون الأعتاب ومن الأزقة ما يشع وخما وعفونة لم نكد نطيقها وهى



شكل (١٣٤) فى ناحية من نيويورك

مكتظة بالأهلين لدرجة أن البيت كان غرفة واحدة كأنها الحانوت يكدس الساكنون فيه كل متاعهم ، وفى الوسط سرير النوم . وقد يكون صاحبه تاجر بعض الشراب أو الطعام يعرض على منضدة أمامه وقد يكون صانع أحذية كنا نراه جالساً والحذاء على فخذيه يعمل فيه (بمخرازه) وخيطه فى كد ونصب ، وبالمدينة عدد كبير من الميادين الفسيحة تتوسطها النافورات والتماثيل على نمط ما رأيناه فى روما ، إلى ذلك متنزهات متفرقة لكنها صغيرة المساحة وتفتقر إلى التنسيق والتشذيب ومظهر الفقر والحاجة هو السائد على البلدة وأهلها ، ولقد سألنى صبى عونا فقدمت اليه عشرين سنتيما (أى ٣ مليم) فكاد يطير فرحا وأخذ يرفع يديه إلى رأسه يحيينى حتى غاب عن نظرى . على أنهم على جانب كبير من الظرف وحب المعاشرة وهم أميل الى الشرقيين والمصريين فى الشكل وفى كثير من العادات وعدم التكلف .



شكل (١٣٥) أكبر ناطحات السحاب فى العالم

قمنا فى المساء الى نابلى التى بدت طلائعها قبيل شروق الشمس وقد تجلى فيزوف مشرفاً عليها ينشر حجره فى انحدار مدرج الى البحر وتقوم عليه أبنية المدينة ولقد هالنا ما حل بالميناء من التجديد والتغيير فلقد أقامها موسولينى من جديد فى مظهر رائع جميل . ولما أن جبت بعض أرجاء البلدة بدا كثير من أحيائها وشوارعها غير ما كان يوم أن زرتها فى رحلاتى السابقة وفى الحق أن الجهود التى يبذلها زعيم ايطاليا اليوم فى رفع شأنها لتكسبه فخارا واجلالا فى نظر العالم أجمع رغم ما نعلمه من موارد البلاد

المحدودة التى لاتحتمل ذاك الانفاق على شئون العمران والتوسع الاقتصادى والحربى ، لكن صدق الوطنية والعمل الخالص لصالح البلد وأهله هو الذى يأتى بالمعجزات . طفقت أبحث عن بواخرنا المصرية عسى أن أجد لى بها مكاناً وقد آثرت وأنا فى نيويورك ألا أبتاع تذكرتى الى الاسكندرية من شركة أجنبية . لكننى أسفت لما علمت ان بواخرنا لاترسو على نابلى . عندئذ قصدت الى الشركة الايطالية فلم اجد بالباخرة (فكتوريا) ولا التى تليها بعد أسبوع متسعاً فى أية درجة من درجاتها . وبعد الجهد الشديد قبلوا أن دفع ثمن تذكرة الدرجة الثانية واسافر بشرط الا اطالبهم بفراش انام فيه وطفقت ثلاث ليال كاملة اقضى ليلى على مقاعد (الصالون) حتى تجلت ارض الوطن العزيز فى باكورة الصباح فقرت بها عينى بعد ان غابت عنى مائة يوم وعشرة .

فهرس الكتاب

فهرس الخرائط والصور

الجولات الأخرى للمؤلف

جولة فى ربوع أوروبا

بين مصر وايسلندة

عن طرائف المدنية الأوروبية ومشاهدها ونظمها الاجتماعية

جولة فى ربوع آسيا

بين مصر واليابان

عن بدائع الشرق الأقصى ومدهشاته (اليابان والصين والهند الخ)

جولة فى ربوع افريقية

بين مصر ورأس الرجاء الصالح

عن عجائب القارة الغامضة وغابات جوفها وأسرار همجها وأخطار وحوشها

جولة فى ربوع الشرق الأدنى

بين مصر وأفغانستان

عن مميزات بلاد إيران والعراق والأفغان والأناضول والشام

جولة فى ربوع الدنيا الجديدة

بين مصر والأمريكتين

عن مدهشات الدنيا الجديدة ونفائس بلاد المغرب والأندلس

جولة فى ربوع استراليا

بين مصر وهونولولو

عن روائع زيلندة — فيجى — ساموا — هوليوود — كندا — أزورا